روايات الهلال

رأيتهما قمرين في المحاق

أحمد الشيخ

5-3 7-8

رواية

رأيتهما قمرين فى المحاق

دار الهلال
٢٠١٤

بقلم: أحمد الشيخ

إهداء

لمصر المستقبل... والناس
من البسطاء والشرفاء الأوفياء
وقد صمدوا لخصوم الداخل والخارج
تحاملوا واحتملوا واعترضوا وقاوموا
ولآلاف السنوات، ليورثونا وطنا متوحدا
نتباهى بتاريخه ومنجزات شعبه
ونضحى من اجله بدمنا، وبأرواحنا
ليبقى علامة لأعرق حضارة عرفها الإنسان
لمصر المستقبل... والناس

سأحاول أن اتواصل معكم وأواصل بوحى بصراحة أراها ضرورة عاهدت روحى بأن تسعى لتفسير ما عشناه بينكم، وبمصداقية سأروى لكم ما عشته مع أمنياتى ليتواصل من يقرأ ويتوافق أو يتعارض مع من كان يبذل جهوده من اجل حياة يتحقق فيها اليسر المأمول، فيتفاعل مع الحكايات ويفتح لخياله الابواب لاستكشاف ما بين السطور ليصل لدلالاتها، وسامحونى لأننى حاولت خلال فترات البوح أن تتفاعلوا مع تلك العلاقات المتشابكة وما تحويه من مطامح وأغراض متعارضة تستعصى على النسيان، ولأن كل شئ باق رغم الخوف الموروث من الفناء أو التجاهل المتعمد للعطاء المتواصل بلا مردود يليق بمن أعطاه، ولأن النسيان سلاح له قدراته الخفية على إزاحة ما نسعى إليه من أمنيات مستحقة، إشفاقا علينا لمواصلة تأكيد المؤكد بعد أن كان مردوما عليه فى السراديب المخفية عمدا وعنادا، ولأنها كلها مبررات كامنة تدفعنا للتوهان غير المقبول لعقول فى المتاهات الشائكة، وقد كنت أرغب أن أستعيد ما كان يتخفى من تلك المشاعر التى سكنت ذاكرتى سنوات رغم أننى ظللت أعانى منها فى الغياب والتباعد، ثم طاوعونى وشاركونى فدخلنا سراديبها برغم رغباتنا وإراداتنا لأنها تخصنا وإن كانت تبدو أحيانا هامشا ساكنا ومستكينا يطالبنا بالسعى لتثبيت تلك الصور بالذاكرة مما يؤدى لنسيان لا نعترف به لأنفسنا، وقد كنت أحاول أن ادارى مواجعى عنهم، متباعدا عن التفريعات العابرة بتأثيراتها السالبة أو الموجبة وأنا بينهم، ربما لأننى كنت واحدا ممن عولوا عليهم ليكونوا أكثر إيجابية فى تفسير ما شافوه قبلى وتوهمت أننى تفاعلت معه وهو طيف يحوم فى الفراغ قبل أن يتحقق وجودا حيا، فهل كان ما باح به عن تلك المكابدات وهو طيف لم يتأكد وجوده مبررا ليسخروا منه بخفة؟

فلم يتخيلوا أن اطيافهم كانت تحوم حول المكان قبله مثلما قال عن نفسه قبل وجوده لأنه بدا لهم محايدا صادقا بينما يستعيد معهم ما شافوه وشهدوه قبل أن يدخل دنياهم يتحقق وجوده بينهم قبل ابتعاده عنهم غصبا عنه وعنهم ليعيش مغتربا تماما لأن من كانوا يملكون حق الاحتواء أو التخلى عنه أوصلوه إلى حد الطرد من المكان أو الزمان، ومن رحلوا عن دنياهم جميعا وتحولوا إلى ذكريات يروى بعضهم تفاصيلها، وما عاد ممكنا أن يعودوا ليراجعونهم أو يستوضحونهم فى ملابسات كان الطيف يرويها لهم فيثير الجدل معهم بلا قصد، ولأنه كان شريكا مستبعدا بلا جرم يستحق أن يستبعدوه، فقد برر أسبابهم واغتفر لهم ظلمهم وتألف معهم، وأتى ليحدثهم عن بعض ما شافه أو كابده، وربما قرروا أن يسايروه فى بعض الأحيان ويهزوا رؤوسهم تعبيرا عن تعاطفهم معه وتصديقه وربما بحسابات البعض لم تكن تلك الحكايات المروية عن أزمنة عاشوها قبله مغايرة لما شافوه، ولأنها كانت ظلالا أحقاق شافوها بالفعل قبل أن يأتيهم ضيفا، لأنه كان يعيش بعيدا عنهم رغم خلايا الدم المشترك بينهم إلا انه لم يكن صانعا لتباعده أو طرفا فيه، فكانوا يتضاحكون أو يؤنبونه ببهجة عن بعض المساخر التى كان يرويها عن زمن لم يكن شريكا فيه، فيتحول بشكل مؤكد ليكون مغضوبا عليه أو مغلوبا على أمره، ومطرودا من داره مثل ابيه بلا مبررات بحساباتهم وحساباته، ولأن الحيز الذى يخصه كان حاضرا ومؤكدا فى عقول اهله واهلها، ولأنه كان خلفتهما الوحيدة التى تأكدوا من وجودها بعد مرحلة كان خلالها بحساباته على الأقل احتمالا مرجئا لم يتنفس أو يكون له نصيب فى الفراغ السرمدى الممدود، وخوف أحدثكم بلسانه احيانا بحياد دون تحيز له أو عليه دائما، وربما أتوافق معكم

وأواصل مشوارى معكم عنه وهو الغائب أو أن أكلمكم بضمير الحاضر، أو الشاهد الذى يحكى عن تجربته فيجد استجابتكم التى سعى لنيلها منكم على وجه الدقة وأنتم أهله وناسه ويتعسر الأمر وتظهر الخلافات على الملامح فيلجأ لوسيلة أخرى يتبعها من يروى ما جرى له أو لهم بضمير الغائب عنهم، لعلكم ادركتم أن حكاياتى ستتواصل معكم، وسأحدثكم بضمير الحاضر أو الغائب كأننى فى بعض الأحيان سأتحول لشخص الآخر، أو غائب صار ضحية إبعاده غصبا بحسابات بعضكم، غير أنه غاب بالفعل عنكم ولم يعد يملك إلا ضمير الغائب، المسألة متشابكة متداخلة لكن مقدرتكم على التمييز دفعته دفعا ليخوضها بجسارة، وأنتم لحمى ودمى وعقلى الكامن ولسانى الناطق والساكت

•••

ولأننى لم أكن أكثر من طيف لم يتواجد فى غير خياله عندما رآها مرة أخرى تطل من نافذة دارها المبنية فى الحيز الفاصل بين بنايات العائلتين فاستعاد وجه طفلة رآها عند رأس حقلهم منذ سنوات، صبية عمرها اثنى عشر عاما أو ثلاثة عشر عاما بالكاد وقد لفتت انتباهه بعينيها الخضراوين ووجهها يتألق بالشعر الأصفر الذهبى الذى يتطاير على خدها وهى تهمس له بحياء وتمد يدها نحوه بقرشين:

– هات لى بدول عنب، بناتى

– خليهم معاكى يا شاطرة، أنا ح اجيب لك العنب

– ببلاش؟

– لأ مش ببلاش، أنا خدت الفلوس من ابوكى، اسمك ايه؟

– إسمى قمر؟

– وأبوكى اسمه إيه؟ أنا نسيت اسمه

– أنا بنت المغاورى، شلبى

تركها واقفة مكانها وطلع بسرعة لسطح " زريبة المواشى " ثم راح يجمع فى " حجر " جلبابه عناقيد العنب التى يراها اكثر نضجا، ثم نزل بحرص وتقدم نحوها ليفتح "حجره " فرأت عناقيد العنب المتراكمة، لعلها استغربت كثيرا وهى تسأله عن نصيبها من كل هذه العناقيد الكثيرة والزائدة على تصوراتها:

– ياه، دا عنب كتير قوى يا عم منصور، إنتوا بتبيعوه لمين؟

– إحنا مش بنبيعه، إحنا بناكله

– بتاكلوا ده كله؟

– ساعات نديه لقرايبنا ومعارفنا، هديه يعنى

– بس إنت مليت حجرك ع الآخر، انا عايزه عنقودين اتنين

– خدى اللى تقدرى تشيليه، وأنا ح اجيب الباقى لحد الدار، مش إنتى بنت المغاورى؟

كانت مجرد بداية للشاب العفى وقد تخطى ربع القرن حسبما كان يقول لأولاد عمه، مزهوا بنفسه ومنتقدا ما تصوره كسلاً من أبيه وأمه فى تزويجه مثل اولاد عمه فى مثل سنه، كان مشواره لدار أبيها فى بداية المساء محملا بمحصول عنبه الذى جمعه من أجلها ولم تأخذ غير عنقودين منها، كان العنب موضوعا فى سلة حملها بين يديه ووقف بها عند عتبة الباب الذى دق " سقاطته " وانتظر حتى جاء المغاورى ليقدمها له بحياء قائلا:

– العنب ده بتاع بنتك قمر

مد الرجل يده ليحمل سلة العنب التى قال المنصور إنها تخص " قمر " وعيناه تتفحصان العناقيد بنهم وهو يشير له ليدخل بابهم المفتوح إلى حجرة مفروشة بكنبتين متقابلتين، ومرحبا به قال:

– إتفضل خش، واقف كده ليه؟ ما تقعد وتريح روحك يا قمر، قمر، دى جابت لنا عنب م الغيط بتاعكم، يا قمر

وجاءت البنت باسمة له ولأبيها اكثر لكنها أسرته ببسمتها فى تلك الليلة، دعنا نقول إنها أعجبته أو تمناها طفلة تكبر وتصير له زوجة تؤنس وحدته بجمال تقاطيعها، لكنه لم يكن غير لقاء عابر لم يتكرر إلا بعد سنوات من الحياة فى الكفر أو خارج الكفر

•••

هامش (١)

" سأحاول أن احكى لكم حكايات لناس عاشوا كأطياف فى البراح الممدود وتعايشوا قبل أن يتأنسن الواحد منهم فيرى الأرض المزروعة منذ آلاف السنين بعزيمة فلاح كان يتفاصح ويتشكى ويبوح فى حضرة الفرعون العارف بأنه تأنسن وصار حقيقة تتنفس مثله، تطلب منه عدلا ممكنا وإن بدا مستحيلا لتأكيد هوية مشتركة بين محكوم وحاكم، لأننى كنت مشروعا لروح لم تتجسد قبل مولدها وتحوم حول المكان لتتعرف على ناس الزمان أو تفاصيل الأشياء كطيف لروح تمنت أن تتجسد لتشارككم الحياة والأنفاس فى مستقبل مأمول أيامها، راضية بلا شك فى امكانياتها للعطاء والإضافة والعشق والخلفة وتربية صغار ممن يأتوا لنا يوما ليرثوا ارضا ووطنا ووعيا كامنا وقابلا لتأكيد ما هية الوفاء والصدق، ومواصلة البناء لمن يأتوا بعدهم ليضيفوا ما هو ممكنا أن ينضاف ليبقى دليلا على أنسنة الأطياف

ولأنها هواجسى التى تجسدت وتشكّلت فى اللاوعى قبل الوعى وزمن الصحو فقد تأكد وجودى بعدها يتيما لأم تحيا فى البعيد، وأب يكابد إغترابه عن أهله وناسه غصبا عنه، ولعله باح لى أو تبدى لى أنه باح لى من غير بوح منطوق أو مقصود لنقله إلى كيانى على نحو مؤكد، لكنه صار

ونيسى وجليسى وحارسى وراعينى وحامينى من كل المخاطر قبل أن تحوم حولى، كما كان يكسينى ويطعمنى ويسقينى لأبقى صاحيا وأسمعه وهو يحكى حكاياته عنها، وكانت صورها تنطبع بخيالى صورا طبق الأصل لم تنمح أبدا لأنها توافقت مع حقيقتها المتخيلة فى ذاكرتى، لعلنى عشت حائرا مثله فى امرى وأمره بينى وبين نفسى لأننى كنت اسأل روحى احيانا:

– كيف صدّقت ما ثبت فى ذاكرتك من تصورات هلامية عن الحياة قبل أن تتشكّل وتصير كيانا تحقق؟ وكيف كان ممكنا أن يتوهج خيالك كطفل على هذا النحو؟ قبل الأيام والأسابيع والشهور الأولى من عمرك؟ أو كيف كان ممكنا أن تعى وتتذكر ما كنت تراه وتسمعه من أب يحكى لك أو لنفسه عن طيفها المخطوف منه؟ وقد عبرت حياته خطفا ثم ابتعدت أو انشطرت تماما بعد عامين أو ثلاثة اعوام بالكاد من معاشرة ميسرة بينهما وكيف كانت تتباعد فيها الخلافات؟ "

" سأحكى لكم حكاياته كما كان يحكيها لى ولكل من يلتقى بهم أو يحاورهم فى امر نفسه وكانوا يحيطون به، يتنهد ويقول لهم ما جرى له قبل أن يشرع فى عقد قرانه لتكون له حلالا أمام الناس رغم أنه خالف أهله؟ والعهدة على الراوى الذى سيكون أبى فى بداية ونهاية المطاف من غير تعصب له أو لها، لأننى لم أتشكك للحظة واحدة فى صدقه مع نفسه ومعى ومع الناس، وكنت اتمنى أن يطول عمر المنصور ابن الحاج إبراهيم وهو أبى الذى رحل عن دنيانا حزنا عليها وعلى ابيه، فعشت يتما مكتملا بعد أن علمنى وربانى وخفف عنى غيابها، لأنه كان يروى لى أحيانا ولنفسه ولكل من كان يلتقى بهم ويثق بأشخاصهم مثل هذه الحكايات على نحو متكرر، وإن كنت سأحكيها لكم كما تصورتها وتخيلتها من الطيف السارح فى الفراغ وهو يرصد سلوكا من شاب نحو بنت أعجبته صبية فتابعها،

وبإرادته تعمد رؤيتها وهو يعبر أمام دارها، فيراها عدة مرات أثناء مروره خطفا وهو يتوجه لحقلهم أو فى زياراته للكفر وأهله احيانا قبل أن يخرج منه برغم إرادته غضبانا، ثم مطرودا بملاعيب لزوجة أبيه من ناسها، وربما كانت تشبهها إلى حد كبير لأنه فى اول رؤية لها حسبها " قمره " أو شقيقتها التوأم، لكنها لم تكن هى ولا شقيقتها رغم التشابه الغريب بينهما، بل كانت زوجة الأب التى فوجئ الكل بالعلاقة بينها وبين أبيه ولان اسمها " الغندورة " كان اسما على مسمى بالفعل، لأنها كانت غندورة وقد ولدت ولدا لتداوى مواجعه وتحقق امنياته، فمنحه مذكّر اسمها ليكون إسمه " الغندور " لكن الحاجة سعيدة زوجة الحاج إبراهيم وأم " المنصور" كانت تبث له مواجعها مما تراه ولا توافق عليه وهى بنت لعمه الشقيق وأما للمنصور، لكنه جلب لها " ضرّة " على غير توقع متناسيا لسنوات العشرة وقد طالت بينهما لكنه فاجأها وفاجأهم كما استنكر الكل، واستنكرت أمه واعترضت عليها وعليه لفترة وغضبت منه وتركت له الدار وعادت بعدها غضبت لأنها يئست تماما ثم طلبت منه أن يطلقها لكنه لم يفعل إلا غصبا عنه وبضغوط اكابر اهله المتزايدة، وربما بدا لها أنها عاشت مرتاحة مع نفسها بعد أن حققت مطلبها، لكنها لم تشعر بنشوة نصر لأن الخسائر كانت اكثر بكثير من رغبتها فى التباعد عنه أو الخلاص من وجودها كظل أو خيال مقاته بدارها، وبرغم تحقيق رغبتها وتباعدها عنه بعد أن طالت سنوات عمره وتخطى نصف القرن لكنه جلب امرأة من سلالة بلا أمان تلاعبت بعقله لصالح اهلها من خصومه القدامى واختارت زوجته أم المنصور أن تعيش وحدها غصبا عنها كى تتغلب على مواجعها، وربما باحت للمنصور بلا قصد عن بعض ما كان فى السابق مؤثرا من التفاصيل بحياتها مع شريك عمرها وابن عمها، وقد كان طرد المنصور مفاجئا لها لأنه كان مدبرا بخسة

وتتطلب احتجاجا لا يقل عن مغادرة الدار، ربما كانت تستحق الرعاية فى وحدتها لكنها لا تنالها من أحد، فتحكى لنفسها ما عاشته بلا هموم أو مواجع فى ماضيها أو تسلى نفسها وتبرئ ساحتها ووحدتها القاسية وقد غاب ابنها الوحيد وطال غيابه لأنه اغترب بعد تركه للكفر وسفره ليسعى من أجل لقمة عيشه فكابد هموما لم يتوقعها بعد طرده من داره بملاعيب زوجة أبيه الجديدة، ولعلنى تخيلت أننى سمعت جدتى تناديه ولا يرد فتبكى فى وحدتها بصدق مشاعرها وأنا أشعر بالونس معها وأنا احوم حولها طيفا يتعجب أحيانا لأن جدى ظلمها يوم فرط فيها من أجل الغريبة أو " الغندورة " أم " الغندور "

●●●

تكررت حكاية قمر مع العنب البناتى مرتين أو ثلاث مرات فى مواسمها المتتابعة، لكنها كانت تأتيه أيضا فى مواسم طرح التمر، وفى كل مرة تبدو له اكثر براءة وخفة ظل فيتطوع بأن يجمع لها التمر ويتبرع بتوصيله لدارها، ربما تحول الأمر لعادة سواء جاءت أو لم تأت، لكنها صارت شريكة فى المحصول حاضرة فى ذاكرته ولا ينساها، يجمع الثمار ويوصلها لدارها محمولة على ظهر حمارهم ليقوده نفر أو صبى من ناحيتهم يعرف دارهم، وإن جاءته يبتسم مرحبا بها، ثم يجلب لها ثوبا لتجلس عليه فوق الحصير، طفلة خفيفة الظل بحساباته، وإذا غابت يتمنى أن تأتيه وتذكره بما يمكن أن ينساه فى زحمة الحياة، يختار لها افضل الثمار من التمر أو العنب، وربما يضيف لها بعض الثمار التى يزرعها خيارا أو فولا اخضر أو كيزانا من الذرة الخضراء تشويها فى الفرن بعد أن يرسلها كعادته ولعلهم كانوا يبالغون فى الترحيب به لو دخل دارهم كضيف ويشكرون كرمه، وبحساباته كانت قمر تستحق مثل هذا العطاء البسيط الذى لا يكلفهم شيئا، لأنه يمنحه

لجيرانهم وأقاربهم أيام موسمها كعادة ورثوها وصارت من طباعهم، لكنه كان يراها تتحول لصبية تكبر وتزداد فتنة ولعلها تحولت لتكون محطا للعيون والحاج إبراهيم الذى باح له بانه يرسل لها بعض ثمار الحقل لم يعترض أبدا على ما يمنحه المنصور لقمر، وعندما تنفتح سيرتها كان الرجل يضحك ويصفه بينما يمد يده ليلمس خده ب " العفريت " وكأنه يدعوه لمواصلة علاقته بها لكن امه كانت تعترض عليها دون أن تراها وهى تستعيد من خلال الحكايات ما كان من امر المرحوم والدها الذى كان يساعد سلالتها ويدفع ديونهم بلا مردود، وقد استباحوه نهبا ولم يسدد احدهم بعض ما اخذه، وحتى يوم وفاته كان قلة منهم قد أتوا للعزاء، رغم أن اكابر الناحية جاءوا وشاركوا فى اكبر جنازة شافها الكفر وناسه وكانت تؤكد قلة اصلهم فيسود الصمت ويتغير الموضوع، لكن المخزون عند امه من حكايات اهلها كان يتواصل، لعلها كانت تحذر المنصور من تلك العلاقة بقمر رغم أنه يؤكده لها أنها طفلة أو صبية صغيرة لم تكتمل علامات انوثتها، لكن العلامات اكتملت فى فترة غيابها خلال مرور موسمين للبلح التمر والعنب أيضا، ولأنه لم يكن يعبر خلال تلك المدة أمام دارهم فقد ارسلت له أختها التى تشبهها أيام طفولتها مرسالا يذكره بها، وقفت امامه وسألته ببراءة:

– أنا قمرين، اخت قمر، وهى بتقولك ما بتبعتش البلح ليه؟

– اختها، واسمك قمرين؟ دا انتى شبهها الخالق الناطق

– ح تجيب لنا بكام بلح؟ أنا معايا فلوس

– بكام إيه يا قمرين؟ انتى تروّحى، والبلح ح يوصلكم الدار

– يعنى اروح؟ وأقول لقمر إيه؟

– سلمى لى عليها، إستنى، ح اركبك الحمار ونروح سوا

وبحماس كان يجمع تمر البلح، ويلملمه فى سلة صغيرة كان يحمل فيها وجبة الغداء، ركبت قمرين ووضعت السلة امامها وهو يحذرها من سقوطها أو ميلها على ناحية، وكان تحاور راضيا مع قمرين وبدا له أن قمر رجعت عدة سنوات للوراء وأنها استعادت طفولتها التى كانت تميزها وتدعوه للحوار معها طول الطريق

كان باب الدار مفتوحا وقمر التى اكتملت ملامحها وتبدل بدنها ووضعت على الجفنين كحلا اسود كشف خضرة العينين المميزة، مدت له يدها ليسلم فسلم عليها باسما، وبيدها الأخرى وضعت طاقية مصنوعة بخيوط ملونة تلفت الانتباه بكف يده وابتسمت بود قبل أن تبوح له بالكامن كما احسته:

- عشان ما تنسانيش
- إيه دى يا قمر؟
- طاقيه معموله ف النوبه، بيلبسها العرسان
- والنوبه دى فين؟
- فى قبلى، أصل احنا لنا قرايب هناك
- كتر خيرك، دا قمرين تشبه لك بالظبط
- مش احنا اخوات؟
- بس إنتى كبرتى يا قمر
- بقيت عجوزه يعنى؟
- لآ، بقيتى عروسه، انا ح امشى، الناس بتبص علينا

قال لها عبارته الأخيرة وسحب حماره ومشى متباعدا والطاقية فى يده اليمنى، يتأمل خيوطها ويستعيد ما قاله وما قالته وينوى أن يواصل عادته بإرسال العنب والبلح إليها حتى لا تلومه بعد ذلك، لعل مشواره طال لأنه كان يمشى متباطئا ليسرح بخياله ويفكر فى مستقبل تشاركه فيه بنتا

جميلة ورقيقة مثل قمر ويوم زواجه يجرب الطاقية الجديدة التى لم ير مثلها،لكنها كانت امنيات بعيدة المنال صمم بينه وبين نفسه أن يحققها مهما كانت المعوقات

●●●

تأتى الرياح أحيانا بما لا تشتهى السفن، هكذا كان يقول لهم مدرس اللغة العربية أيام كان المنصور تلميذا مجتهدا ومنتظما فى دراسته، لكن الحاج إبراهيم وقد بلغ الخمسين عاما كان يرى أنه لم يعد قادرا على متابعة زراعة الأرض بنفس همته أيام شبابه المبكر ورآه شابا عفيا يمكن ألاستعانة به فى العمل بالأرض، لم يكن المنصور يملك ان يعترض لأن الأرض ارضه فى نهاية المطاف، والتعليم سيمنحه شهادة يلزم أن يسعى للعمل بها فى مكاتب الحكومة ولأنه كان عاشقا للأرض اكثر وكان يتأمل الطمى والرماد والتراكيب ومسارات مياه النهر تسقى ألأرض لتمنحها قدرة على طرح ثمار كل ما ينغرز بأرضها من بذور فتطرح وتفرح بها قلوبهم وتحلم بغد أكثر أمنا، وقد اعتادو أن تتوافر بدارهم غالبية ما يحتاجه اهلها من مخزون غذائهم طوال العام قبل بيع المحصول، وما يفيض يخصص لتكاليف الكساء وبقايا الاحتياجات اللازمة أو بعض المطالب، وأحيانا لإقامة أفراح الشباب أو الصبايا أو البنايات المضافة للبيوت، لكن الأرض فى نهاية المطاف تكفيهم ويفيض منها وطمأن قلوبهم لأن براح الحيز المملوك ضمان للمستقبل وتأكيد لاصل من يحافظ على ميراثه ولا يفرط فيه كالحاج إبراهيم

على هذا النحو كان المنصور يفكر ويرى طريقه لتحقيق أمنيته وهو فى مرحلة الصبا وقد ترك المدرسة وشارك الأب فى الزراعة بلا تردد وبدا له أن المستقبل كان مفتوحا بلا عقبات ولا أى موانع، فمن أين تأتى العقبات؟ وألأب يعرف علاقته بقمر منذ طفولتها ولا يعترض، ومنذ طفولتها وقد ظهرت

علامات أنوثتها وصارت بنتا تملأ العين وتليق، والمنصور يفكر فى مفاتحة أمه فى امرها اولا ليضمن موافقتها فتسمّعت كل ما قاله وردت عليه بحياد يحمل معنى الموافقة:

– يا منصور إنت أدرى بحالك، عايزها قول لأبوك وهو يمشى لك فى سكتها، بس تبقى واخد بالك من روحك، الجماعة دول لهم دقات نقص، هو انا ح اوعيك، انت ادرى بنفسك

لعله استراح تماما وصار مطالبا بمفاتحة ابيه فى امر البنت لأنه يستريح فى معاملته معها ولأنها جميلة التقاطيع ومريحة فى كل شئ، ولأنها لن تكلفنا اكثر مما نملك صرفه، وفى المساء فاتح الرجل فسمع الكلام وهز رأسه ونظر لأمه كأنه يستشيرها فهزت رأسها، وابتسم الرجل ووعدهما:

– على خيرة الله، بعد ما نجمع القطن ونبيعه ح نشترى لهم جهاز وشبكه تليق بابننا

•••

هامش (٢)

سوف نسبق الأحداث دون أن نقلب الموازين فالتداخل بين الماضى والحاضر يتحول أحيانا إلى خلاص ومخرج من مأزق يحاصرنا فلا نجد غير ما وصلنا إليه وحزناها، امتلاكا فى واقعنا يدفع عنا مخاطر ما قد يطل علينا من ماضينا، وهو ميراثنا الذى نحاول أن نحميه ونحتمى به حتى لا يسحبنا لمدار متاهات فررنا منها وتباعدنا،لكنها تواصل الطواف حولنا ليتحول واقعنا إلى درع للحماية أو مخرج متاح لنا كان يتربص بنا أو يرغب ان ينال حريتنا فى حياتنا، وربما يحدث لنا العكس عندما نستعيد ماضينا لنفر من الحاضر غير المتوافق مع طاقاتنا وقدراتنا، وهى على كل حال أشياء نتحسسها ونتعايش مع أطيافها عندما يضيق بنا الحال ولا نجد لنا

مهرب غير ماضينا العريق لينقذنا على المستوى النفسى الذى نتساند عليه لنستعيد القدرات التى فقدناها بعد أن شابت قلوب وزادت المواجع ولعلنى اسمح لنفسى أن أبوح أن الخلط لم يكن متوافقا تماما مع نفسى، لكن نفسى تاهت منى تماما فى بعض الأوقات، وطيفها يتباعد عن طيفه دون مقدمات، فيتأجل مشروع وجودى الذى بدا له ولها ولكل من كانوا يحيطون بهما على وشك الحدوث إلا أن المخفى ظهر جليا وواضحا لتغيير المسار، فبدلا من زفة المنصور مع قمر نرى شبه زفة مفتعلة تجمع الغندورة والحاج إبراهيم والمنصور معا، فيتأملها باستغراب ويختلط عليه الأمر تماما فيراها شبيها لـ" قمره "لكنها " غندورة " مدسوسة عليه بقصد توريطه والحصول على غاياتها المدبرة بالانتساب إليهم كزوجة لكبيرهم بكل ما تعنيه الزوجة وهى حامل فى طفل قبل أن يرى النور وهو على وشك أن يكون اخا للمنصور بعد شهرين أو ثلاثة لتنقلب موازين الدار لغير صالحه وصالحها وصالحى، والصبر هو العلاج بلا بديل ولا إمكانية للتعديل والتبديل بغير الصبر الذى يحمى من التهالك والانهيار

•••

ولأن " الغندورة " تنتسب لخصومهم القدامى فقد قال ناسهم إن أهلها دفعوها نحو الرجل دفعا بتدابير لترافقه بتراكيب الغيطان وزرائب المواشى ومدارات السواقى دون أى تحفظ أو تراجع حتى ينفضح أمرهما بشهود عيان شافوا العلاقة التى صارت تدور بينهما فى الخفاء شبه المعلن،ووصلت لمكتب المأمور ضمن الشكاوى التى يكتبها الأهالى أو الغرباء دون أن يذكروا اسماءهم خوفا حذرا، فيحولها لمدير المديرية الذى يأمر بتشكّيل المجلس العرفيّ وهو يضم العقلاء من أكابر الناحية يهدف لمعالجة اى مشكلة ويتوصل المجلس الذى ساير مدير المديرية فى هذه القضية إلى توصية أن

يسترها الرجل ويتزوجها ما دامت أمارات الحمل بادية عليها، وقد حاول ناسه إزاحة الخطيئة عنه لأنه فى نهاية المطاف ابن الاصول وله تاريخه وهيبته المشهود بها، لكنه وافق أن يسترها بشرط أن تأتى وتبوح أمامهم بأنها سلمت له نفسها برضاها

وبجسارة غير مسبوقة تفوق كل المرويات المحفوظة بعقولهم دخلت الغندورة مندرة العمده وعيناها مركزتان على الحاج إبراهيم قبل أن تبوح لهم جميعا أمام مدير المديرية والمأمور:

- أنا يا ناس ما حدش غصبنى، ولا خدنى بالعافيه

- والشكاوى دى يا " غندوره "؟

- ما فيش شكاوى من ناحيتنا، انا شفت الراجل، وعشقته، ولقيتنى راقده، برضايا ف حضنه

تحفز كبيرهم ووقف متلفتا حوله، مرتبكا وعاجزا عن تكذيبها، ثم تنهد بخجل قبل أن يشير لها آمرا:

- إمشى إطلعى بره يا بنت المراكيب، إحنا ح نتبرى منك

- براحتكم يا آبا الحاج، براحتكم

قالت عبارتها للرجل وأطلت لمدير المديرية والحاج إبراهيم ثم رمحت خارجة من المكان وسط همهمات وعبارات معترضة وأخرى شامتة، وربما تاهت العبارات المحايدة أو المهدئة لأن غالبيتهم صاروا جاهزين لدخول الصراع بحناجرهم، ورآه مدير المديرية قابلا لأن يتطور إلى عراك أو صراع فوقف يدق الترابيزة وهو يأمرهم بسماع ما كان قد توصل اليه وما قرره:

- عايزكوا تسمعونى ف كلمتين، أنا كنت شغال ف مديرية قنا، والصعايده ما بينهم وبين بعض تار ما بيخلصش وصالحتهم على بعض، عارفين ليه؟

- ليه يا باشا؟ إزاى؟ عملت لهم إيه؟ حد بيسيب تاره؟

- كويس لما تسألوا، بس يبقى أحسن، لمّا تسمعونى

وببراعه بدّل المأمور الحوار وتحدث عن سيادة مدير المديرية الذى اشتهر بقدرته على حفظ الأمن وحذرهم من تجاوز حدودهم، أو السماح لأحد بأن يتطاول أو يرتكب أى خطأ لآنه المسئول عن تطبيق القانون وبقوة السلاح، قال عبارته متجهما فساد صمت ثم نظر لوجه مدير المديرية الذى هز رأسه باسما له وتلفت متفحصا الوجوه ليأمرهم بتحديد مطالبهم:

- قولوا عايزين إيه؟

- إتخرستوا ليه؟

قالها مدير المديرة وهو يتأمل الوجوه ساخرا قبل ان يضحك بصوت مجلجل على نحو غير متوقع، وجلس بجوار الحاج ابراهيم وهمس فى اذنه بكلام لم يسمعه احد ، وكان الرجل يهز رأسه علامة الموافقة ومدير المديرية يربت على كتفه بود قبل أن يقوم ويعلن للجميع ما توصل اليه:

- الحاج ابن الأصول ح يستر عرض بنتكم، حد عنده اعتراض؟

همهموا وتبسّموا وامتدحوه ووافقوه وشكروا الحاج إبراهيم أيضا، لعل اصواتهم كانت تجلجل وتبحث عن وسيلة لمحو ما بدا خلافا فى كلامهم، فضحك مدير المديرية ومأمور المركز بصوت شجعهم على الضحك الجماعى، كأنما تاهت الأدمغة ولم تعد قادرة على مواصلة الشكاية أو الشكوك المتبادلة، لعلهم ردّدوا كلاما يفيد أنهم سئموا الصراع وقد طال زمنا كابدوا فيه من ضربات الشماريخ فوق رؤوس وأبدان أجيال ودعت الدنيا ورثوا من جاءوا بعدهم كثيرا من الخصومات والخسائر التى دفعتهم لردود افعال خائبة كانوا عملوها رغم أنهم عشاق للحياة فى سلام، باحوا بأنهم يحلمون باليوم الذى يسود فيه الحب وتنتهى الخصومات

– نبعت نجيب المأذون؟

– وماله، نجيبه، ويعمل اللازم

طرح مدير المديرية سؤاله الأخيرة وعاود الجلوس مكانه مجاورا للحاج إبراهيم، ربت على كتفه متوددا وطلب من أهلها أن يقدروا الرجل وسأل:

– المأذون موجود؟

فرد الصول عرفان:

– موجود وتحت امر سيادتك يا باشا

ثم تلفت حوله واشار بيده فدخل المأذون باب مندرة عمدة الكفر المفتوح، واستجابة للأوامر وضع دفتره على الترابيزة الخالية وأخرج قلمه وختامته ودواية الحبر وتأمل وجوه الحاضرين قبل أن يلقى السلام ويتوجه للمقعد الخالى المجاور للباشا مدير المديرية وباسما صار يهز رأسه متحدثا بهيمنة من منطق القوة موضحا لهم جميعا أنه وافق على عقد القران لبنت يعرف أهلها وناسها لتصبح حلالا لابن الأصول ، ولأن شرفه فى نهاية المطاف مصان كرجل بيده الحل والربط فما هو الضرر؟ فأسكته مأمور المركز بكفه المفرود أمام وجهه مشيرا لمدير المديرية، وقد بدا للكل انه أمره بعمل تلك الاشارة لتكون تحذيرا من استرساله فهز رأسه ولم يعلق بغير نظرة التسليم وهو يرفع يديه أمام الكل ليطمئن مدير المديرية أنه سينفذ أمره فورا كى ينفذ امره، كانت بوادر نجاح المأذون فى مهمته تأخذ مسارها كما يريد سيادة مدير المديرية وقد حركوا المأذون من مكانه بإشارة منه ليضعوا مقعده ويجلس بين مدير المديرية والحاج إبراهيم ويفتح دفتره باسما وفتح قلم الحبر وركن غطاءه فظهر سنه قبل أن يغمسه بفوهة دواية الحبر، وبإشارة منه مد يده وأخذ بطاقة تحقيق شخصية الحاج إبراهيم ومن البعيد جاءته البطاقة التى تخص والد الغندوره الذى بدا غريبا لم يتعرف عليه احد

وهو جالس بطرف كنبة فى مؤخرة الصفوف، وعمدة الكفر يطالبهم بقراءة الفاتحة فيقرأوها بأصوات عالية قبل أن يبدأ المأذون عمله مكتوما ومغلوبا على أمره كما بدا لهم لأنه حبس لسانه على غير عادته ربما حرصا وتقديرا لسيادة مدير المديرة وكى لا ينفلت لسانه بما يعكر صفو الجمع الملموم وهو يشرع فى الكتابة متسرعا ثم صار يجفّف آثار الحبر عن كل الأختام، وداخل دوار العمدة انطلقت زغاريد بعض أقاربها تعبيرا عن الفوز أو النصر الذى لم يخطر على بالهم أبدا، ثم قام مدير المديرية محاطا بحراسة ومن خلفه مأمور المركز متقدما العساكر الذين امرهم الصول عرفان أن يقفوا صفا ثابتا، ليركب الكبيرين سيارة المديرية وسيارة مأمور المركز وهما يتجاهلان بقصد تحية العمدة ومأذون الناحية اللذين توهما أنهما سيقدمان لهما أى شكر كما هى العادة فى مثل هذه المناسبات، لكنها كانت فرحة مكتومة ولم يحصل المأذون على حقوقه خلافا لكل العقود التى حررها، ولأنه كما يقول بزهو عن نفسه يمنح من يكتب عقد قرانه إذنا بممارسة ما يبيحه الشرع بين اى زوجين ولا يجوز لهم فعله إلا بالعقد الذى يكتبه بخط يده وفى دفتره، حتى من يكتبون عقود الزواج خارج زمام الناحية لم يعترف ابدا بهم، وكأنهم كيانات مندسة على أمثاله ممن يحررون هذه العقود بعلم ومعرفة ووعى بالشرع لا يصل إليه الآخرون

•••

لأن تاريخ الصراع بين أسرتيهما كان ماثلا بوضوح بذاكرته فى تلك الليلة ولأنه تأكد من الحكايات المروية وصارت راسخة بذاكرته، فقد كان من اللائق أن يراجع نفسه بعد غضبة أبيه عليه وطرده من داره إثر زواجه من الغندورة الصغيرة التى لها نفس الملامح الناعمة لوجه قمر وقد شدت انتباهه من أول إطلالة بينما تدخل بثوب زفافها لدارهم مزفوفة وخلفهما

يزمر زمّار بزمارة وتطبل إمرأة بطبلة وتطلق آخرى زغرودة ممدودة فيتحول وسط الدار إلى شبه فرح، وبمرور الأيام كان يحاول إنكار انها تشبه قمر بعدما كبرت بلا فائدة، فيستعيدها طفلة جاءته لتطلب منه عناقيد العنب البناتى وأخذتها فى حجرها ورمحت فرحانه، لأنه لم يأخذ ثمنها رغم انها عرضته عليه ورفض تعاطفا مع الملامح وحيائها النادر الذى طالعه على ملامحها، وبالتأمل متمهلا للمزفوفة رآها تختلف فى نبرات الصوت وأسلوبها فى الكلام وهو يستعيد الإسم الذى بقى فى ذاكرته لأسباب لم يعرفها، ليتأكد لديه أن الغندورة ليست قمره " التى رآها طفلة وواصل معها مشواره ليبرئها من الخطيئة بخلطه بينهما، وقد حدث قمر ساخرا فى اول لقاء بينهما شارحا أنها لا تشبه الغندورة، ضحكت وواصلت الضحك ثم أكدت له أن الغندورة بنت خالها لكنها صارت لأبيه زوجة لأسباب لا تعرفها، ولأن قمر حسبما رآها تختلف عنها تماما رغم الملامح المتشابهة كما قد يبدو بالحسابات المتعجلة، وربما متطابقة بتفاصيلها مع ملامح قمر رغم كونها كيانا مغايرا وتتحرك من موقع مختلف ونبرات صوتها لا تتوافق مع " الغندورة " ويوم رآها فى الليلة التى شكلوا فيها مجلسا عرفيا وقد تسربت عنها مع ابيه الأقاويل وسرحت حكايات متنوعة عنهما، لعله عاتب نفسه بينه وبين نفسه على ظنه أنها تشبه " قمر" التى عرفها تفرز براءة وشفافيه والصدق على العكس من " الغندورة " بعد أن دخلت دارهم بإحساس من ينوى السيطرة والهيمنة، ولأنه لم يكن فى حالة وعى كامل أو نصف كامل وهو فى غفلة القيلولة تحت ظل شجرة الجميز التى تمنح " الطراوة " وتجلب النعاس وربما الأحلام أيضا، ويسرح بخياله فى صحوه تحت ظلها بعيدا ليسأل نفسه برغم وعيه كيف رآها قمر " رغم أن الشكل ليس معيارا للكشف عن جوهر الملامح، وكم من الملامح الجميلة التى لا تعبر عن جمال

الطباع ليرتاح لها الإنسان، فالتقاطيع مخادعة فى بعض الحالات ويلزم أن يزيح الكابوس بعيدا لأنه وضعها فى المربع الذى سكنته الغندورة بعد أن دخلت دارهم زوجة لأبيه، وسأل نفسه عاتبا لائما نفسه لتسرعه فى الخلط بينهما من أول إطلالة لملامحها، وتاهت منه الفوارق وهى تعبر عتبة دارهم مسنودة على ذراع ابيه، فأوشك على الصراخ معلنا احتجاجه لكنه بخوفه من ابيه اسكت نفسه وانتبه للحقيقة

•••

كان أولاد عوف قبلها يتباهون بما حققه الحاج إبراهيم ويقولونها فى الخفاء أو العلن ليكيدوا الخصوم:

– راجل ابن أصول بصحيح، شمروخه ضربته والقبر، وكلمته قادره بيمشيها ع الكل، من مدير المديرية لمأمور المركز، دول قالوا فيه كلام ما يليقش غير ع الأكابر إللى زيه

كانوا يتحدثون عن أولاد عوف وبطولاتهم القديمة التى حازوها فى لعبة التحطيب فى ساحات موالد السيد البدوى والدسوقى والحسين بن على والقناوى وغيرها فى الموالد أو الأعياد ويؤكدوا لعيالهم أنه وافق أن يستر عرض " الغندورة " دون خوف من مدير المديرة أو المأمور أو أعوانهما أو من أحضروهم ليكونوا شهود عقد القران من أكابر الناحية، وسترها دون ضغط أو إكراه من أى بنى آدم، فعلها راضيا بعد أن باحت أمام الكل بلسانها بأنها عشقته وأسلمت نفسها له بدون غصب أو اكراه وبكامل وعيها وموافقتها لأنها كانت مفتونة به كما قالت وباحت أمام الكل بوحا علنيا دونما حياء ولا خجل من أهلها وناسها أو من الغرباء، فهل فرّطت واستكانت لأنها كانت مفتونة به حسبما باحت علنا للكل؟ أو أنها سلمت نفسها بعد أن حملت سفاحا منه أو من غيره وهو الأرجح؟ كذّبت ما كتبه

أهلها بالشكاوى ضده رغم اعتراضاتها المنطوقة، لكن بعضهم أشاع فى الكفر بعد عقد قرانها ودخولها لداره أنها سوف تصبح على ذمته ورأسها برأس الحاجة سعيدة أم المنصور، كما أشاعوا أنها طلبت من أهلها تقديم الشكاوى ضده لمديرية الأمن والمأمور وكل من له كلمة تمكنه من تنفيذ غرضها من أكابر الناحية، رغم أن الشكاوى تضمنت أنه عاشرها غصبا عنها لكنها دونما خجل أنكرت أمام مدير المديرية والمأمور واكابر الناحية بأنه نالها غصبا عنها، وباحت أنها عشقته وتمنت لو صارت له خليلة أو زوجه ولأن زواجهما وهى حامل كان أمرا مربكا لمن يحاول أن يؤكد إن كان الحمل جاء منه أو من غيره، كانت مسألة لا يمكن أن يؤكدها أو ينفيها أحد وقالوا إن من قرأ شكاوى أهلها تأكد أنهم أعلنوا بلا حياء استعدادهم لعرضها على حكيم شرعى ليكشف الحقيقة لكل الناس كما قالوا، لكن الناس قالوا إنها حيلة رتبوها لتخدع الحكومة وتخدع الرجل وناسه بادعاء أنه نالها غصبا، لكنها خيّبت رجاءهم وكذبتهم عمدا وعلنا وقالت معكوس ما قالوه

كانت الغندورة ترتدى ثوب زفاف اقترضته من امرأة أكثر منها سمنة بمراحل، لكنها لبسته وأتت إليهم فى دوار العمدة لتبوح بما باحت به وبعدها انطلقت الزغاريد واكتمل عقد القران بدفتر المأذون، واقتربت منه ووضعت كفها حول يده اليسرى والزغاريد تنطلق من افواه والمباركات تتوالى له ولها، والغندورة تقترب منه اكثر وتضع يدها على كوع يده اليمنى لينهض واقفا وربما بدفعتها له قام وتحرك وهى تخطو بجواره ببطء فى كل خطوة تعمدت أن تكون متمهلة، لتجلب المزيد ممن يشاهدوا تلك الزفة التى لم يتخيلها، وأغانى الصبية مع اللعب بالعصى مع الرقصات الجسورة لبنات حزموا انفسهم أو حزمتهم بنات ليرقصوا فتبدو لمن يراهن أنهن محترفات

ومشوارهن فى الرقص يبدو ممطوطا ومتباطئا، والغندورة ممسكة بكوع الحاج إبراهيم ما بين دوّار العمدة وداره، والمنصور يراهم من بعيد متأملا ومفكرا ومخزيا فى ذات الوقت من المشهد بأسره، كان يتساءل إن كانت " الغندورة " قد خطفت مشروعه المأمول مع " قمر" التى لو رآها وسألته عن زواج ابيه من الغندورة فلا يستطيع أن يفسر لها ما رآه، لكنها كانت خيالات تدعوه إن كان من الممكن أن يفعل شيئا ولا يجد ردا؟ ومشواره يبدو له ممدودا وهو مكره أن يمشيه متكاسلا غصبا عنه دونما مهرب يراه فى الأفق البعيد وكأنه يعايش اليتم المفاجئ

وكان مشواره المتباعد عن زحمة الناس الذين امتلأت الشوارع بهم وهو يراهم بخطواته المسلوبة المعنى أو الإرادة والناس تطل ولا تتفرج على الزفة الزائفة بحساباتهم مثلما كان المنصور يراها زفة كاذبة أخطر كثيرا من كذبة إبريل لأن الناس حبسوا كلاما كان على اطراف الشفاه،وقالوا سخريات مستفزة عن علاقتها بالرجل فى العراء المفتوح، ولم يتجاسر واحد منهم طوال الزمن الفائت ان يمسه بكلمة انتقاد فتأكد أنها سقطته الأولى والتى لم تخطر على باله ولا كانت تناسب رجلا له هيبته واسرته وابنه وزوجته، وبدا له وكأن الناس وجدوا فرصة للتعبير عن الكامن المردوم عليه تعليقا على تلك التى تسير بجواره " الغندورة " وتتعلق به لتدخل داره فى الزفة الزائفة، وقالوا بعد أن دخل بها باب داره وفى سكة رجوعهم أنها فرطت فى شرفها وسمعة ناسها فى سابق الأيام، وأعلنوا فضيحتها لتحول سيرتها لحدوتة متداولة بكل قرى الزمام مضافا لها قرى وكفور ونجوع الناحية وعاصمة المديرية، وربما وصلت لعاصمة مصر بعد أن قالت أمامهم أنها عاشرته باختيارها فى الحرام، لتصل لغرضها الخفى كأنها شوكة مغروسة فى دار واحد من أكابرهم، أو عينا كاشفة لداره وذريته وناسه لحساب سلالة من الغرباء بعد أن استباحت داره

لكن بعض من يبرعون فى التبريرات ردّدوا بزهو أن قبوله عقد قرانه عليها كان حلا من منطقه القوة لإنهاء الصراع الذى طال زمنه ثم صار عبئا ثقيلا على الكل، وربما كان مقدمة لبتر ألسنة تهوى التحريض المتكرر لأخذ الثأر وإراقة المزيد من الدماء، وصارت حكايتهم متداولة فى الخفاء أو العلن،يتعففون أحيانا عن الحديث عنها وحولها بشكل مباشر أمام الصغار حرصا على سمعة الرجل فى اذهانهم، وإذا انفتح الحوار لانتقاد الرجل لا يزيد على إشارات عابرة أو تلميحات خاطفة، حول خصوم قدامى سلّطوا واحدة من بناتهم مكشوفة الوجه على رجل لتفتنه وتأسره بدلالها فوقع فى الفخ وعشقها، وتمادى ليفعل الممنوع معها دون أن يدرى انها تنفذ ما دبروه بإرادتهم جميعا، وطمأنوها بأن يكونوا حولها ومعها فى الخفاء والعلن، وفى مناسبات بعينها كان الكلام عن تلك الواقعة لا يقال أمام شباب العائلة، أو يقال بتأدب محبوك كى لا يقللوا من هيبة الرجل وابتعادا عن تلويث سمعته أو إنكار افضاله وأفعاله التى تستحق احترامهم وتوقيرهم وتقديرهم له، ولعلهم كانوا فى بعض الأحيان يعتبرونها تضحية قدمها الرجل لتسكين جراح قديمة ولحماية من كان ممكنا أن يكونوا عرضة للمخاطر إذا واصلوا الصراع بين طرفين لم يتوافقا إلا فى الحرام، ربما كانت حيلة لحقن الدماء أو تخفيفا لعداوة طال زمنها، هكذا ردّد البعض بمرارة وكأنه يقدم لروحه ولهم واجب العزاء فيه، لكن الوجع الذى أصاب الحاجة سعيدة أم المنصور كان اقسى بكثير فقد طال قلبها واصاب خلاياه وأسكتها زمنا لم تنطق خلاله بحرف تعليقا على ما سمعته ممن كانوا يحيطونها ويتحفظون قبل فتح الموضوع أمامها ليخففوا عنها، ولو كان ذلك يجدى ما أحست بتلك المواجع على هذا النحو، وعندما فكر ابنها المنصور أن يبوح لها بما كان يسمعه أو يراه أسكتته بإشارة ممرورة وصارت تتحاشى سماع ما يقال عن الحاج أو

عنها والغريبة التى تتلاعب بالعين والحاجب والبدن لتأسر الرجل وتلمح استجابته لها، وناسيا عشرتهما التى طالت وطالت، لكنه صار رجلا فاقدا لعقله بعد أكثر من ربع قرن من الزمان معها، وكان بالنسبة لها محور الحياة وبؤرة التباهى والزهو لكونها زوجته وابنة عمه، ولولا تلك الآفة التى توهمتها وعاشتها وعاشها وانشغل بها وتشكى من نفسه أيضا لنفسه وصحيح أنه تمنى خلفة جديدة غير المنصور ولعدم قدرتها على الحمل مرة أخرى حسبما شاع عنها وتمنتها لترضيه عنها وعن نفسه وعن كل من يحيطون به، ولترضى نفسها عملت كل ما كان ممكنا أن تعمله أو تفكر فى عمله لأنها عاشت سنوات ممدودة من العشرة معه وهى موجوعة وصامتة تسمع ما يقال عنها ولا تعلق، وليلة دخول تلك الغريبة دارها لملمت ثيابها ووضعتها بالمقعد الخالى بسطح الدار لأنها تعرف التفسير الأكثر قربا من حقيقة شعورهما، وشوقه لخلفة غير ابنه الوحيد برغم طول السنوات التى كانت خلالها ونيسته التى اخلصت فى رعايته ولم تبخل عليه أبدا بما كانت تملكه من طاقة على الصبر والطمأنة وزرع الأمل فى قلبه لسنوات، كان يعرض نفسه على أى واحد من الأطباء فى المركز أو طنطا أو القاهرة إذا اشاروا عليه أن يسأل طبيبا مشهورا إسمه فلان الفلانى لأنه متخصص فى الخصوبة أو لأنه بارع فى التحاليل الكاشفة لقدراته كرجل ومدى سلامة تكوينه فكان يذهب ويطاوع ويتناول العلاج المكتوب أو يعمل التحاليل الطبية ويأخذ العينات ثم يتناول المزيد من الأدويه بلا فائدة، والمنصور وحده بلا أخ أو أخت يشعر بالرغبة فى تحقيق امنيات الأب لأن كل طبيب ممن زاروهم كان يؤكد له انه قادر على معاودة الإنجاب لأنه " صاغ سليم " كما يؤكدون، فأين كانت علامات السلامة تتخفى؟

كان الحاج إبراهيم بالقطع يتحير فى أمرها وأمر نفسه لأنه لم يعاود الإنجاب منها اسوة بأولاد عمه وإخوته من نفس السلالة، ورغم أن " سعيدة " أم المنصور لجأت لمن يكتبون لها الأحجبة أو يعملون لها تحويطات لتحميها من أى عمل ضار أو يقيمون حفلات الزار والذّكر ليفك اى عمل مكتوب لكنها فقدت الأمل تماما، وربما كانت مشاويرها الطويلة دونما نتائج إيجابية بحساباتها تسمح له أن يرتكب مثل هذه الزيجة، مبررا لنفسه ذلك ما دام يملك القدرة بشهادة كل الحكماء على معاودة المحاولة ليرى لنفسه خلفة لم يوفق فى إنجابها من بنت عمه، وشوقه لخلفة جديدة كان يدعوه لأن يحاول معها فتتمنع وتتعلل بأشياء لم يتوصل لتفسير أسبابها، ولأنه كلما اقترب منها تتمنع يأسا أو برودا أو بسبب عادة لم تتوقعها فى هذا الوقت، واحيانا كانت تتباعد عنه يأسا أو برودا كامنا موروثا من بيئة علمتها التعفف الذى كان يدمى قلبه من الداخل، وكان لا يملك اكثر من تذكيرها فى كل مناسبة لا يتم فيها اللقاء بينهما بأنها حلاله وأنه زوجها وأب لابنهما الوحيد، وأن قبولها ورضاها الفطرى سيكون كفيلا بتكرار الحمل حسبما يدّعى سيكون مؤكدا، ولأن الأطباء نصحوه بأن يعاود ويعاود محاولاته بشرط أن تكون هى راضية، لكنها كانت تسمع مثل هذا الكلام الفاضح وتتشكك فى اقوال هذا الطبيب الذى أوهمه بذلك والذى اخترع إمكانيات وجوده فى تلك السنوات، لعلها لم تمنحه الفرحة بحساباتها، مثلما حرمت روحها منها كما كانت تتصورها وتتمناها، وحالة بأن تتحقق أمنيتهما المشتركة ولكن بأدب لكن سنوات الجدب طالت وطالت لدرجة أنها التمست له الأعذار وبررت بينها وبين نفسها أن يتزوج من تليق به ولا يشعر الناس بأنه تاه وتوه اهله وناسه لكن الأمور لم تسعفه أو تساعده لتحقيق مثل هذه الأمنيات البسيطة والممكنة

ولعله فكر عدة مرات أن يتزوج واحدة من بنات العائلة، لكنهم كانوا يعترضون على الفكرة لأنه زوج لأفضل واحدة من بنات العائلة على كل المستويات، كانوا يتساءلون ساخرين فى حضوره عمن تجرؤ من بنات العائلة أن تدخل دارها ضرة لتنغص حياتها وتضعها فى خانة الزوجة القديمة؟ ثم كيف تحتمل أى بنت فى عمر ابنها أن تعاشر رجلا شاب شعره وصار فى عمر الأب أو العم؟ وكانت كلها تبريرات لحالات الرفض المغلف، لكنها غير منطوقه لتأكيد تقديرهم وإكبارهم لها وله وهم يذكّرون بعضهم البعض بمحاسنه، فيطلبون من المولى أن يحرس له المنصور ويمنحه العمر الطويل أو يغيروا الموضوع أحيانا ويطالبونه بتزويج ابنه لكى يعوضه ويملأ عليه الدار بخلفته، ويذكرونه بمثل قائل بأن " أعز الولد ولد الولد " يشعر أنه انكسر تماما لأنه عجز عن مؤاخاة المنصور الغالى ببنت ولو كانت كسيحة أو ولد معتوه كما يقول ساخرا منهم ومنها ومن نفسه بمرارة، وكل امنياته كانت تبدو له غير ممكنة أو مستحيلة، ولعلها كانت نقطة ضعفه التى استثمرها أهل الغندورة ودخلوا منها إلى حصنه عن طريق بنت لعوب ومغرية، كانت واعية بالدور والهدف فى هذا المشوار الذى قطعته لتحقيق هيمنتها عليه فهل كان " الغندور " وأمه جوابا على سؤال طاف بخيال الكل لكنه لم يتأكد إلا يوم مولده؟ ربما انعكست الآية وقالوا كلاما عن تلك التى عاشرها بعقد زواج بعد أن طافت ولفت ومارست ولعبت بكل من كان يصادفها أو يتودد لها، تعطيه نفسها وتاخذ الثمن الخفى الذى لا يجعلها بحسابات اى نفر قابلة للعطاء بأجر كأى ساقطة

●●●

لو رجعنا للوراء قليلا فسوف نرى الغندورة تدخل باب الدار بثوب زفافها وتنحنى لتمسك بيد السيت سعيدة ام المنصور لتقبل ظهر كفها بخضوع كناية عن التبعية الكاملة:

– أنا يا ست الكل ح اكون خدامتك، تؤمرينى وانفذ طلباتك، وقدام الناس دى كلها، وقدام ربنا قبل الكل، مش طالبه غير إنك تسامحينى، وتعتبرينى خدامتك ولا بنتك

– خلاص يا غندوره، خلاص بقى

– يا ست هانم، اعتبرينى ضيفه عندك، ومعاش دارك ح يبقى ف إيديكى، واللقمه اللى ح تعمليها ح يبقى فيها البركه، يعنى كلّنا ح ناكل من عمايل ايديكى

– أنا عرفت يا غندوره، إنتى عجبتى الراجل بتاعنا ليه؟

– يا ست سعيده دا إنتى بدر منور ، وأنا ما أساويش حاجه جنبك، والحاج إن كان فتح لى بابه، يبقى برضاكى، عايزاكى ترضى عنى سايقه عليكى النبى

– ما هو كتب كتابك وخلاص، والحلال ما حدش يقدر يحرّمه، ويحق له يتجوز ف الحلال، واحده وإتنين وثلاثه غيري

على هذا النحو كانت بداية " الغندورة " ودخولها بيت رجل مثل الحاج إبراهيم بشبه موافقة أو مسامحة من أم المنصور، وتخفيفا للوجع على قلب الست " سعيدة " شكلا أمام ناسها على الأقل، لأنها موافقة مسنودة على قلة الحيلة وتاريخ ممدود طالت فيه المعاشرة الحسنة بينها وبين ابن عمها برغم أن الثمرة رغم طول العشرة لم تعطهما غير المنصور الذى كبر وصار وحيدا، بلا أخ أو اخت كما كانت تتمنى والمنصور يتمنى ، لكن الأمنيات لا تتحقق بيسر رغم الصبر الذى يطول فيتحول إلى عبء لا يحتمل، ولعل الشهور الأولى مرت بسلام فى الدار، والأدب الذى تعاملت به الغندورة لم يكن مخفيا ولا مشكوكا فى أنه سوف يستمر طوال السنوات، ربما تحاملت الست سعيدة راضية وقابلة لهذه الزيجة رغم ما أشيع قبلها وبعدها من

حكايات فيها حقائق ومزايدات وأكاذيب مخلوطة يصعب فرزها وتصنيفها، ولعلها شعرت ببعض الطمأنة وتوهمت أنها أحست بالسعادة على نحو ما لأن الغندورة ظلت تحترمها وتوقرها ولم تخطئ خلال تلك الفترة التى عاشتها فى الدار إلا فى يوم السبوع، لكنها كانت فى واقع الأمر " بداية محبوكة ومسبوكة ببراعة وخبرة فطرية مخزونة للوصول إلى هدف بعينه "، وقد تحقق لها الوصول لهدفها قبل ميلاد " الغندور " لكنها كانت هفوات تمر مرور الكرام دائما، وبالتسامح يريح نفسه ويحملها من الصبر ما يفوق قدراته أمام نفسه أو امام خصمه لو انفتح الموضوع لعتاب بينهما فى بعض الأحيان

•••

ولأن الخطايا العابرة قابلة للسماح والعفو من المجنى عليهم، وتفاصيل الواقع فى أركان الدار التى تبدّلت تماما بعد أن ولدت " الغندورة " طفلها " الغندور " بعد دخلتها بأربعة شهور أو أقل قليلا، حسبوها وجمعوها وضربوها وعجزوا عن تبريرها دونما تأكيد أنها حملته قبل عقد القران بأربعة شهور، وولدته فى خامس شهر من عقد القران مكتمل النمو تماما، فهو ابن حرام على نحو ما، وقد راجعوا زمنه الذى تعاملت خلاله مع الحاج إبراهيم فى الخفاء قبل العلن الذى اعترفوا به ولو أضفنا الشهرين بحسابات عقله فسوف يكون الحمل قد حدث قبل اول لقاء بينهما بشهر مثلا ليكون الولد ابن خمسة شهور أو أقل قليلا، لكنه لم يكن مالكا لوعيه أو قدرته على الحساب ومراجعة التفاصيل على النحو الدقيق فلو جمعنا وطرحنا وقسمنا وضربنا بعقله مثلا فإن النتائج لن تتوافق معه لأنه بعد أن شاف الطفل يتحرك أمامه ويصرخ، تبدل وعدل تفكيره أو رمى عقله، وكانت أم الغندور تشير إلى الطفل وتقول للحاج إن الولد يطالبها بإرضاعه من لبن المسمار المخزون بثدييها ومن اجل توصيل رضعة الطفل كانت تقول له بدلال ودلع:

– ما تبصش الناحيه دى، انا ح ارضّع ابنك

تقولها ولا تتردد ثم تسارع بكشف صدرها تماما لإرضاعه أمام الكل ليسكت، يهتز نصف صدرها العارى امام كل من لا يليق ان تكشف عريها أمامهم، عرى لا يجوز لهم رؤيته بحساباتهم أو كما تعلموا وصدقوا، وقد يهدأ الطفل ويشعر أنه نال حقه على مرأى من كل من يعبرون غير عارف عن تلك الفوارق شيئا لأنه ببساطة طفل، ولا يحق لأحد أن يحرمه من الحق المشروع فى ثدى امه، لكن الفوارق بين الحلال والحرام الذى يتمسك به كبار السن لا تخصه، كان الأمر اخطر من التفكير فى منعه من حقه أو رضاعته من ثدى امه وهو غير عارف بما يدور حوله، ولأن سهمها نفذ فى قلبه بالفعل، وقد توارت آثار فضيحتها فى العلن لكنها بانت بعد الخفاء قبل حفل " السبوع " لمولود جديد أصرّت أمه أن تسميه إسما غير مسبوق فى الكفر كله، اسم مستنسخ من اسمها لأنه طلع من بطنها، فوافقها الرجل على الإسم الذى اختارته بحماس لتسميه " الغندور " ابن " الغندوره " وبالصدفة غير المرتبة جاء على وزن " المنصور " ولم يمانع الرجل وقد وافقها أن تعمل حفل " سبوعه " بصحن الدار مثلما طلبت بفرح وأن يكون الحفل على الملأ، وبعد شراء الإبريق وتحضير الغربال وكنس ورش وسط الدار دعت " الداية " التى ولدتها لتحمله وتلف به قبل أن تضعه فى سريره الصغير مرتديا ثياب الفرحة اللائقة ومن حول عنقه مسنودا على صدره وبطول بدنه عقود من خرز وعقود أخرى من حبات فول مبلول وحوله ورود وزهور وعيدان نعناع، وبعيدا عنه بمسافة " راكية نار " تتوهج نيران " قوالحها " والبخور ينحط فوقها فيتوهج ويطقطق ويبعث الدخان المعطر بالمسك والريحان وتلك النباتات التى تنشر عندما تحترق روائحها المنعشة فتبعث نشوة لمن يشمها أو يعبر من أمام الدار، ودعت الغندورة كل اهل

الكفر للحضور وقد اشترت المئات من أكياس الحمص والحلوى من ارقى الأصناف لتوزيعها على الأطفال مع عقود الفول المبلول قبلها بيومين، ليكون طريًا لو فكر طفل أن يأكل منه عدة حبات ليسدّ جوعه أو يستطعمه، وكانت تطلب ممن جاءوا أن يذهبوا ليجلبوا مزيدا من العيال ليكون سبوع المولود وأمه غير مسبوق أبدا

لكن أم المنصور غادرت الدار يومها والمنصور يرافقها ليكون لها ونيسا لمشوارها لبيت أبيها لتتجنب الفرجة على مشهد لا يسر عدوا ولا حبيبا " كما قالت، وفى ظهيرة ذلك اليوم تمدّدت تحت ظل الجميزة الكبيرة الكائنة بمدار الساقية وقد تناولا قبلها وجبة الغداء بنفوس مصدودة وصفتها " سد خانة " أو صد خانة " قبل أن تتمدّد تحت ظل الجميزة حتى غروب الشمس، وبعد أن اكمل المنصور عمله لملم أدواته ووضعها على حجر أمه التى اركبها الحمار بحرص، وتوجها لدار خاله "برهان " ليتناولا عشاءهما، وربما بعد صلاة العشاء بساعتين توجه معها للدار، ودون كلام أو سلام على الرجل الجالس فوق دكة النورج واضعا المولود على حجره ليتأمل تقاطيعه بنشوة زائدة، عبرت سعيدة أولا ثم همت أن تصعد درجات السلم، ومشغولا به أو متظاهرا بالانشغال به عنهم تماما، وكأنهما خيالان أو ظلّان عابران وأم المولود تجلس بجواره متحفزة ومتربصه، قبل أن تهمهم وتغمغم وتزوم مستفزة فى وجهها وقد رجعت دارها بعد مغادرتها بقصد الفرار من حضور المناسبة وكان من الواجب أن تحضرها بحساباتها وربما بحساباته أيضا، وبكل غلّها الكامن فجّرت سؤالها لأم المنصور:

– خبر إيه يا أم منصور؟ هربانه ومانعه روحك ومانعه إبنك كمان يشوف سبوع أخوه ليه؟ هو العيل الغلبان ده، بينه وبينكم تار؟

– ما تلمى لسانك يا بنت الشلبيه

- وإن ما لميتش لسانى، ح تعملى لى إيه يعنى؟

- ح اضربك بالمداس إللى ف رجلى، على راسك يا واطيه

- بالمداس؟ شاهد يا حاج؟

- والحاج ماله يا بنت السلاله الواطيه؟

- حوش عنى يا حاج

- بتطولى لسانك؟ طيب، خدى بقى

وبالفعل خلعت فردة مداسها وأفلحت فى ضربها به عدة مرات على أم رأسها فسقطت على الأرض، وانكتم نفسها تماما وقام الحاج إبراهيم من جلسته محتويا الطفل بين يديه، ومتلفتا حوله قبل أن يناوله لأم المنصور التى أخذته مغيّبة تماما وعاجزة عن الاستمرار واقفة، فحطّت فردة المداس على الأرض ولبستها فى قدمها وجلست على أول درجة للسلم والطفل يصرخ بين يديها، ولا تعرف كيف تسكته أو تتخلص منه، هزهزته عدة مرات فكفّ صوته عن الصراخ، وكان المنصور ينظر لأبيه ويبدو عاجزا عن النطق بأى كلمه، قامت أم الطفل وبمساعدة الرجل لها توجهت إليها لتختطفه منها بعنف وهى تصرخ فيها وتتهمها وهى تندب:

- عاوزه تموتيه؟ كاتمه على نفسه عشان تموتيه؟

- مش ح ارد عليكى، ابعدى العيل ده عنى، ولا ناوليه لأبوه، اللى جايبه منك ف الحرام، ونجس بيه دارنا، هو

إحنا ناقصينك يا سلاله واطيه؟

- كتر خيرك يا أميره يا بنت الأمرا، بس اللى بتقولى عليه ابن حرام ده، إسمه " الغندور " ابن الحاج إبراهيم عوف، أخو المنصور ابنك واسمه شايل اسم ابوه، وراسه براسه

– دا كلامك انتى، بس لا هو مننا ولا يخصنا، ياللا يا منصور، لم لى هدومى م الدولاب، أنا مش ح أبات ف الدار دى

وقف الرجل الجالس فوق دكة النورج وصرخ فيها مهددا وآمرا:

– لو طلعتى م الدار من غير اذنى، لا ح تبقى مراتى، ولا ح تبقى على ذمتى بعد النهارده

– وماله؟ طلقنى يا حاج إبراهيم، طلقنى، بس أنا مش ح اقعد ويّاها تحت سقف واحد، بكفايه نجاسه بقى

قالت عبارتها الأخيرة وتناولت ملابسها الملمومة بتعجل من يد المنصور المغيب عن الوعى تماما، لكنه كان يسير بجوارها صامتا، وعندما تحركت لتخرج وقف الحاج إبراهيم أمامها ليمنعها بالقوة، لكنها أزاحته بخفة وعناد وعبرت عتبة بابها المفتوح بين الأهالى والجيران وقد تجمعوا للفرجة دون جرأة على عبور العتبة، لم يكن امام المنصور غير اختيار وحيد بأن يصحبها ويحمل صرة ملابسها، والمصمصات تخرج من الشفاه مع الهمهمات والغمغمات معترضة دون كلام مسموع للرجل، كأنها رد فعل مسموح به بحساباتهم حرصا وتقديرا له، وبجرأة تقدمت أم المولود لتسكّ الباب فى كل الوجوه بلا كلمة أو إشارة تفسر سلوكها غير قلة الأصل والسلالة الواطية كما باحت بالهمسات كل الأصوات، كان الرجل يسمع ولا يرد على عبارات تنتقدها وهو لا يميّز صوت قائلها أو يتجاهلها ولا يجرؤ على فتح الباب ليواجههم ويلعنهم دفاعا عن زوجة أنجبت له طفلا طال اشتياقه لخلفته، ولا بد أن عبارات مماثلة عنها قيلت على ألسنة الكبار والصغار من بنات وصبية حتى منتصف الليل، وهو صامت حائر وقد غزاه شيطان زنديق ركب دماغه ووسوس له أن يخرس الألسنة بتخليص أم المنصور ويبعث ورقة طلاقها على يد محضر، ليفسد حياتها تماما وينغص عليها بعد أن جرؤت يومها وطلبت

طلاقها بلسانها أمام كل من كانوا بداخل الدار بجسارة لم تمتلكها امرأة بهذه الجسارة خلال سنوات عاشها وعاشر الكبار من أهله وغير اهله، فهل كان يتساند على تصرفاتهم ليسمح لروحه بما سمح به الشرع بمثنى وثلاث ورباع وما ملكت أيمانهم كما فعل أكابر السلالة قبله دون إعتراض من أى امرأة؟ أو أى احتجاجات منطوقة من الحريم القدامى؟ وهل فكر وجهز نفسه لتطليقها فى أقرب وقت لائق بعد أن تهدأ الأمور؟

●●●

سوف نرجع قليلا إلى الوراء ونستعيد ما جرى فى حفل سبوع الطفل، وكيف أن أولاد عوف كلهم لم يستجيبوا أو يسمحوا لطفل منهم بدخول الدار فى ذلك اليوم، وعلى العكس تماما جاء ناسها بالعشرات وأطفالهم يتزاحمون ويهللون ويرقصون بنشوة مفتعلة، يمسكون بشموع اشعلوها فى وضح النهار وعملوا دائرة ليرددوا الغنوة المألوفة فى مثل هذه المناسبة، وكأطفال لا يعروفون ما كانت تحمله قلوب شاخت من سخف الأحداث كانوا يرددون بآلية كلمات نفس الأغنيات التى تقال فى هذه المناسبة:

حالاقاتك برجالاتك، حلقه دهب ف ودانانك

ويا رب يا ربنا تكبر وتبقى قدناوتروح المدرسة زينا

يكررونها عشرات المرات بلا كلل ولا ملل، والشموع موقدة فى نهار مشرق شمسه صاحية تبعث اشعتها للوجوه فينز منها عرق ويجففونه بأكمامهم وذيول جلابيبهم نسوة ورجال وأطفال وأكياس الحمص والحلوى تتناثر رميا لأعلى فيلقفها من يلقفها قبل أن تسقط على الأرض، يناولها لطفل أو لطفلة والرجل جالس على دكة النورج وكأن الأمر لا يعنيه أو كأنه حدث عابر يتفرج عليه، لأن سؤالا كان يدور بخياله: وقد فسر الناس ميلاده المتعجل بشكوك تصل لوصف أبيه انه يشبه السرسناوى " غبيطا عبيطا " مركونا على دكة نورج للفرجة، ونظرات الشكوك فيه تتحول لحقيقة أنه صار أمثولة تثير الشفقة والتشفى وبعض الشماتة

●●●

صار الحاج إبراهيم يسئ التعامل مع المنصور الذى يعمل فى الغيط طوال الوقت، يتحين الفرص ليمسك عليه غلطة لنفر مأجور فيحولها لخطيئة ليس لها حل حتى ولو كانت غبيط " رطش " أو "سباخ" محمول على الحمار مال قليلا وسقط غبيطه على الأرض، فى الدار أو سكة الغيط الممدودة، أو وصول ماء سقايته لتركيب غيط جار عبرته مياه الرى وهو فى غفلة بينما يسقى ارضه متحركا بين الساقية التى يديرها نفر بأجرة وهو وحيد يتابع مسار المياه فى غيطهم، وهى أمور تحدث كثيرا وعلاجها سهل يسير فى الأوقات العادية، لكنها كانت تتحول عند الحاج إبراهيم إلى خيبة فى شغل الغيطان، تدعمه الغندورة بشهادتها عن شكايات جارهم فى الأرض يتشكى من المنصور ويقول انه سيسبب فى " تبوير " أرضه أو فساد محصوله الذى هو مصدر رزقه وقوت عياله بسبب الغفلة أو الكسل فيتحامل على نفسه ويسعى للشاكى ليرضيه فيهوّن الآخر عليه الأمر ويبوح له أنه قال ما قاله من غير قصد أو شكاية لا سمح الله، وربما يحذره من تلك الملاعيب التى تبرع فيها زوجات الآباء، فكان يكتم فى نفسه ولا يحدث أحدا فى الأمر، وبعد الرجوع من شقاء النهار يتناول شبه وجبة عشاء ثم يقبل يديه ظهرا لبطن ويتباعد عن الطبلية دون أن يسمع من أبيه عباره تفتح النفس لو كانت مصدودة، فيقوم ويخرج من المندرة ليغسل يديه ويتجه لفراشه، ويحاور نفسه بمرارة أو يغلبه النوم فينام، وربما يسمع آذان الفجر من زاوية اولاد عوف فيقوم ويتوضأ بماء " الطلمبة "ويتوجه لدخول الزاوية الكائنة أمام دارهم لصلاة الفجر حاضرا، يحمل الفأس والمناقر والشراشر وسلة الغداء التى يضعها فى غبيط الحمار، جبنا قديما أو جديدا ولفتا أو خيارا مخللا مع ارغفة من الخبز الجاف أو الطرى بحسب الأحوال، وربما يتذكّر فى

المشوار الممدود أن يزور امه فى دارها أو دار أبيها كما كانت تقول وتتباهى، لأنها مفتوحة لا تزال ومستورة بخيرها وتكفيها، تشبعها وتغنيها عن العوز والحاجة لعون من أحد وزوجات أخوتها تتطوعن أحيانا بكل حياء وخجل لتقديم أى خدمات لها، لأنها لا تقدم ما يليق بها، وما يليق بها كان بحساباتهن أكل ملوك وأميرات لأنها بنت الأصول وحفيدة من كان يملك نصف زمام الكفر فى زمنه، لكنه كان سخيا يجود بما يتوافق مع توصيفهم له بأنه أكرم الكرماء وقلبه أبيض من الحليب، وكانوا يتناسون ويغفرون ما شاع عنه بسبب تفريطه فى عشرات الأفدنة وهى ميراثه لعمل الخير بحساباته، ويتعاطفون معه لحسن نواياه مع من كانوا يطلبون المساعدة وبينهم خصومات قديمة لكنهم كانوا يستغلون كرمه، متشاكين أو مستجيرين وهم يثقون فى نسيانه لخصومة كانت بينهم خلال أزمنة قديمة أو قريبة، وحتى لو كانوا من اولاد الخصوم كان يخرجهم من عوز طارئ كتكاليف دفن ميت أو تجهيز عروس كبرت وطلبوها من أهلها الذين يعجزون عن سترها، وقد صار بحسن نواياه آفة لم يستطع أحد أن ينتزعها منه، أو يجرؤ فى محاورته ليزرع الوعى فى عقله ويمنعه من التفريط فى أملاكه أو مردودها لغير من يستحقها ومن يستحقها، ولم يكن هناك مخرج لهم غير موته الذى جاءه على غير توقع أو على مهل، فعزرائيل عليه السلام وقد كان مكلفا بأن يقبض روحه جاءه وهو نائم على ظهره والمصحف المفتوح على صدره، عيناه مفتوحتان رغم انه لا يتنفس أو يسمع صوتا ليرد النداءات، أوينتبه للصرخات التى كانت تتوالى مفجوعة بخسارته ونهاية عمره، وتم تغسيله وتكفينه ودفنه فى مشهد ممدود لم ير الناس مثيلا له من سكان الكفر أو الناحية بأسرها قبلها أو بعدها رغم مرور السنوات

●●●

هامش (٣)

" لعل المصادفات شكلت لكيانى السارح يفراغ الأفق الممدود تجديدا لأمنية وجودى حيا لمشاركتكم فى دنياكم، وإمكانية إمتلاكه لمسكن لائق يستطيع أن ينفق عليه بإيراد مناسب ليتخطى حالته فى مراحل سابقة لشغله يوما بيوم، وليستر نفسه من العرى أو الجوع ويدفع إيجارا لمسكن ليتوارى فيه البدن المكدود ويغفوا ليرتاح وكانت قمر حلما مبهجا بكل حسابات الرجل الذى كنت اطمح أن أكون ابنه الطالع من صلبه، متعاطفا معه ومتعاطفا معها على نحو لا يمكن انكاره أو التقليل منه، ولأنها كانت ايضا فى الذاكرة أمّا لى أو قمرا ثابتا ابديا لا يغيب ولا يصل إليه المحاق، جميلة بحساباته وحساباتى فى الازمنة التالية بشعر ناعم وذهبى طويل، وبتقاطيع فاتنة آسرة والعينان خضراوان لم أر لهما شبيها فى كل اركان الدنيا أيام كنت طيفا حرا لا يحدد طواف أحد بعدما كنت أشعر أن احتمالات وجودى محفوفة بمخاطر بلا حصر ليتمسك بها وليتخطى الحواجز والمعوقات الموروثة ولا يخذلنى، فيكون أقوى من ناسه وقدراتهم على تعويقه أو منع حريته فى تحقيق أفكاره، ولولا ما قام به فى تلك المرحلة الحرجة التى يتحول فيها الطيف لمشروع كيان لم يكن مؤكدا وجوده ما جئت وساعتها لن أصل لغايتى باكتمال العلاقة بينهما كى أصبح حقيقة مؤكدة تملك حق الحوار معكم لأنهم لو هزموه ما تحققت أنا أبدا، فهل كنت أنا فى صف خصوم أهلى وناسى بالتبعية؟ وتحقيق أمنياته التى توافقت مع رغبتى أن اتحقق وأنال حظى من الدنيا الفانية لو لم يكن أقوى من الولاء لناسه فربما أتجاسر وأبوح بأننى وافقته عندما فكر فى الرجوع لبلده بعد أن صار قادرا على دفع التكاليف لينفذ غرضه ويرتبط بقمر بمشهد معلن وبدون رضاهم أو غصبا عنهم فى تقديراتهم جميعا، ولأن جدتى كانت أكثر

الخاسرين فى المشوار الممدود أكثر من غيرها فقد كان من اللازم أن يحصل هو على موافقتها ومباركتها قبلهم لأنها تركت لهم الدار وانفصلت عن زوجها وابن عمها بعد سعيها المتواصل لتحقيق أمنيتها لتحمل طفلا ينضاف للسلالة مع ابنها الوحيد أخا يؤنسه ويؤاخيه بعد أن منحها المولى المنصور ففرحت به، ولكن الحمل لم يتكرر رغم سعيهما المتكرر المتواصل بدون جدوى، وبكل الحسابات صارت جريحة بداخلها وخارجها بسلوك امرأة قليلة الحياء من عائلة الخصوم، جاءت لتمتلك الرجل وتحكم إرادته ثم أرضه على حساب ابنه الوحيد وزوجته بنت عمه، لحساب الغرباء الذين دفعوها كوباء اصاب الدار التى لم تحتمل أن تعيش فيها أو تتنفس من نفس هوائها، وهى من هى بحسابات الكل وقد كان أبوها كبير العائلة قبلهم جميعا، لكن زوجها لم يعمل بأصله أو يحميها من الدخول فى مقارنات مع البنت الخليعة التى رفعت برقع الحياء امام الناس وقالت مؤكدة أنها عشقته لتبدأ هيمنتها على عقله، ولأن اسمه كان يجلجل بعلامات قدرته لرهبة خصومه وانتهى أمره بتحويل سيرته إلى حكاية يخجلون منها، وبحسابات من ارتبطت بهم وعاملتهم من أهلها فازت بحريتها لأنها تركت داره بعزيمتها وصممت على خلاصها، فخلصها أو استجاب لرغبتها وأراحها لأنها كانت اكبر من قبول أن تكون ضرة لواحدة من سلالة خصومهم القدامى، كانت كل هذه الأفكار تدور فى دماغ المنصور وهو يرى العقبات اكثر من، الممكنات وقلبه الذى يهوى دون وعى أو حكمة وباندفاع يتشابه مع إندفاع الأب دون مأزق يتشابه مع خطيئته بزواجه من " الغندورة " حسبما رأى الكل وهو الزوج والأب، لكن الخطأ الذى لا يغتفر صار يؤدى لمواجع أصابت الطيف السارح بالفراغ غير المحكوم بلا منطق ولا يقين، ولأننى كنت لا أزال تائها فى مرحلة الطواف غير المأمون أتمنى أن أصير طفلا

لهما وأكبر ثم أزحف وأقوم وأمشى وأتعلم وأكبر وأقرأ ما كتبوه فى تواريخ البشر ويتأكد لى أن الخطايا خطايا، وأن الخير خير فى نهايات المطافات، لكن إرادتنا ككيانات قابلة للوجود ليست ملكا لنا، وهل اختار واحد من البشر وطنه أو زمنه أو أهله فى أى طرف من اطراف هذه الدنيا البراح؟ أم انها مصادفات مرصودة أو مرتبة بقدرات من خلق لنا الدنيا بأسرها لنعيش فيها ومنح الرب الخالق لعقولنا البشرية حيزا متواضعا من العلم والمعرفة نعجز عن تفسيره طالما هو فوق قدراتنا، وببعض الإرادة المتاحة له يمكنه تسيير اموره وأمور محيطه، وأنا أحدثكم على هذا النحو لتغفروا لمن خالفوكم فى الشدائد أو فى بعض الأمور العارضة ما بدا لكم خطايا وسوء سلوك بحساباتكم عنهم لأن نصيبهم الغلاب وهو المكتوب لهم رغم السعى والدوران فى كل الأماكن والتعايش بكل الأوقات، هو قدر صانع للأسرات بمعنى من المعانى وهو صانع للأوطان أيضا وعابر للبحار والمحيطات الممدودة بلا حدود وهو حامى حمى الأنهار، وربما يحدثنى بعضكم عن ارادة البشر وأنا من انصار ارادة البشر، لكنها إرادة هشة فى نهاية المطاف فى الوجود السرمدى الممدود دونما حدود، مزحوما بملايين النجوم والمجموعات الشمسية التى تحتاج إلى آلاف السنين للوصول إليها بسرعة الضوء، فكم هو ضعيف هذا الكيان البشرى رغم الإرادة التى جعلتنى اواصل حوارى معكم بعد زيادة مواجعه فى القلب وفى الأطراف وهى بالقطع تعوّقنى وتضيّق حيز أمنياتى فى مواصلة الحياة "

" لقد بحت لكم أننى كطيف كنت سببا للخطيئة الكبرى التى تورط فيها مدفوعا فى مسار خاطيء بكل الحسابات، ربما لأن الرغبة فى الحياة آفة تتحول فيها الروح إلى هدف للمكابدات يمنحها اب لابن أو أم لبنت أو ولد، وهذه المسارات تمضى على هذا النحو لو تفكرنا وتأملنا ورصدنا ما كان

قابلا للتحقق وما لم يكن قابلا على أى نحو أن يتأكد أو أن يكون، لكننى لم استشعر تلك المخاوف التى صادفت وجودى نفسه، ربما لو بحت لروحى لتمنعت عن الدخول فى المنزلق العسير وقد وقعت أنا فيه ووقع ابى وهو " المنصور ابن عوف " الذى انتسب إليه بمشاعرى وخلايا دمى وذاكرتى مع محاولاتى أن اتواصل معكم وأنا الغريب عنكم لكن شيئا مشتركا يجمعنا قطعا، فالمشوار البشرى والبنايات والكلمات وخلايا الدم وميراثنا المشترك الذى تأكدنا من خلال الغرباء بأننا كنا بؤرة كشفه وتسجيل كلماته وصناعة تماثيله مع الرسوم والتوابيت الساكنة والواثقة من رجوعها لتكمل مشاويرها رغم كل المعوقات والعداوات نواصل مشاويرنا، ولعلها تكون وسيلة التواصل قبل الوجود وبعد الوجود، والقاسم المشترك بيننا هو هذه الإنسانية التى تدعونا لأن نتلاقى ونختلف أو نتفق لكننا فى نهاية المطاف نبوح، والبوح هو العزاء المؤكد الذى يعوضنا عن الخسارة ويوهمنا بحصولنا على ما قد يتبدى لنا تربحا وهميا بلا دلالات "

•••

كان الحاج إبراهيم يشعر بعزلته خلال المرحلة التالية لخروج أم المنصور من الدار غضبانة وتوهم أنها استدرجت ابنها ليقيم معها مدة طالت بحساباته، لأنه فى حالة غياب المنصور كان من اللازم عليه متابعة أعمال ارضه بنفسه ولأن لجوء المنصور لمشاركة امه بعيدا عنه نبع من إحساسه أنها ضحية تحتاج لمساعدته، ربما ليعمل فى حقلها احيانا ويعود ليرقد قريبا منها، شاعرا انه مسئول عنها بشكل مباشر، يتعشى معها بعد عودته من شغل الغيط ويتمدد ليرتاح فيخطفه النوم، لعل الوقت كان يمر عليه بدون تدبير، لكنه كان يفيق لنفسه فى منتصف الليل مثلا، ويتردد فى الذهاب لدار أبيه تحاشيا للخلافات التى يمكن أن تحدث أو عبارات يمكن أن يسمعها

منه وهو غضبان، والرجل يشعر بأنه خسر ابنه لأنه راح ليعيش مع أمه كما كان أقاربه يحدثونه ويثيرون مشاعره بلا قصد، فيسبه ويلعنه ويلعن خاله ويلعن أمه وكل اهله فيمصمصون الشفاه أسفا على حالته وقد صار يشعر بمقاطعة الكل له، كانت اياما عصيبة على الرجل وزوجته وهى بنت عمه الغضبانة وأم ابنه الأكبر بعد دخول الغندورة لداره، ولم يكن يشعر بغير الفقدان لما كان قد اعتاده من اهتمامها به فى طعامه والعناية بثيابه مغسولة ومكوية تزود هيبته والمنصور يرعى أرضه ويجهد نفسه وهو يتابع ما تجود به، ويقارنه بمحصول ارض أعمامه أو ارض خاله متباهيا بنفسه احيانا، لكن الحاج إبراهيم وسط ا نخراطه فى تلك الأفكار بدا له أنه رأى وجه المنصور خارجا من تركيب فى وسط الارض بلا مقدمات، فتأمله وفى خلفيته نبات الذرة وهز رأسه مستنكرا ما كان يراه، وسأله مستطلعا بسخرية:

- بتعمل ايه هنا يا منصور

- كنت بأشوف الزرعة عايزه تتسقى ولا لأ

- هى دى مش أرض خالك برهان؟

- إيوه يا آبا، ارض خالى برهان، بس ارض امى معاه، وأنا با اطل ع الغيط كله

- وأرض أبوك يا منصور

- أرض ابويا مالها يا آبا؟

- يعنى عايزنى أأجر لها نفر، ولا نفرين يا منصور؟

- أنا مش متأخر عن أرضك يا آبا، بس إنت ما طلبتنيش، وأنا ما أقدرش أتأخر عنك ف حاجه

- ح اشحتك من امك يا منصور؟

- يا آبا إنت تؤمرنى، ومن إيدك دى،،، لإيدك دى

- الليله دى ح تبات ف الدار
- حاضر يا آبا
- وإبقى هات امك معاك
- ح اقول لها يا آبا، ح اقول لها
- با أقول لك تجيبها معاك، هى صغيره للعمايل دى؟

قال عبارته الأخيرة وسار فى طريقه، والمنصور حائر تماما ما بين رغبتين، طاعة الأب وتأدية واجبه نحوه وتعاطفه مع امه وهى ضحية لغريبة دخلت الدار وقلبت ميزانها، ولعله تصابر حتى وصل إلى دار امه بعد صلاة المغرب، وعندما وضعت الطعام امامه نظر اليها وتنهد ثم باح لها:

- أنا شفت ابويا النهارده قبل صلاة الضهر، ف الغيط
- وماله يا منصور يا ابنى
- عايزنى ارجع البيت
- وماله؟ ما ترجع، ما هو بيت ابوك يا منصور
- وعايزك ترجعى إنتى كمان
- أنا مرتاحه هنا اليومين دول، قوله، يسيبنى ف حالى
- يا أمه...
- خبر إيه يا منصور يا ابنى؟
- خلاص يا أمه، براحتك، يعنى اروح له لوحدى؟
- إنت عايز حد يسندك وإنت رايح له؟ عجايب

قام المنصور من جلسته وتحرك فى البراح امامها دون تعليق على ما قالته، تحير تماما لكنه لم يجد امامه غير صمتها المعاند، فهز رأسه وتحرك متوجها نحو باب الدار ليفتحه ويخرج تاركا لها عبارة مودعة لكنها قلقة ومكتومة:

- أشوف وشك بخير يا أمه

- بالسلامه يا ضنايا

ولعله وهو يخرج ويمشى وحيدا لمح " قمر " الواقفة امام باب دارها، هز لها رأسه وبدا له أنها لم تستجب، فاوهم نفسه بأنها " الغندورة " ومضى متسارع الخطوات حتى وصل إلى الدار ودفع بوابتها ودخل، كان الأب فى نفس مكانه على دكة النورج حاملا " الغندور " بين يديه، لكن الحاج ابراهيم سأله وهو ينظر خلفه:

- ما جبتش امك وياك ليه؟

- قلتلها، وقالت لى بعد يومين

- براحتها، يومين بقى ولا اسبوعين، براحتها

فى فراشه تمدّد مغلوبا على امره وعاجزا عن الوصول لحل لما كان يراه كابوسا بلا مخرج ولا حل

●●●

لعل زيارات المنصور لأمه كانت دواء وغذاء فى نفس الوقت لأنه بعد رحيلها لدار أبيها لم يشعر بالشبع من طبيخ زوجة ابيه، وقد تحولت الدار إلى مأوى للغرباء من أهلها، يفترشون اركانها ويشاركونهم فى الوجبات والرجل يتسامح مع اهل زوجته الجديدة، حتى لو تجاوز احدهم تصرفات الضيف وتحول برغم وجود الرجل إلى صاحب دار كذاب بعشم مفتعل من أجل خاطرها، وهى أم طفله الذى كان ينمو ويكبر ويزداد سمنة إلى حد أن المنصور كان يشعر أحيانا أنه يحمله بعسر وهو ابن ستة أو سبعة شهور لا تزيد، والرجل المغيّب تماما لا يلاحظ نحول المنصور أو صفرة وجهه البادية عليه، وقد وصّفتها زوجته بعلة أو مرض لا شفاء منه ولا علاج، وأضافت أن استئجار نفر للقيام بعمله سيكون اكثر فائدة، ليرتاح ويستعيد قوته وصحته

بتغذيته من خير الدار، ولتبرئ ذمتها أمام جمع ملموم من ناسها حول طبلية العشاء فى ليلة موسم دست فيه ارزا وذبحت بطا، طلبت من الرجل أن يكشف عليه فى الوحدة الصحية بالمجان فى المركز، لكن الموضوع تاه بالكلام عن براعتها فى الطبخ والتحمير، ولم ينفتح الموضوع ليلتها بينهم، وقالت متشكية فى يوم الخبيز لحريم جئن لمساعدتها وتبطيط الأرغفة أنها قالت لأبيه ولم يهتم به لأنه فى نهاية المطاف إبنه، وربما لأنه من صلبه والشقيق الأكبر لابنها الذى صار بؤرة اهتمامه، لكنه لم ينشغل بابنه الأكبر رغم ما يقال عن أصول يفخرون بها، لكن الكلام كما يقولون فى البندر " لا يدفعون عنه فلوس جمرك "، وفعلها واحد من اخواله الذى اخذه بسيارة اجرة لطبيب مشهور، كتب له الدواء واشتراه الخال من مال امه كما قال له، وكان بقاءه فى دار أبيه أيامها عبئا لا يحتمله فقضى فترة العلاج مع أمه وبين أهله وناسه الذين دأبوا على رعايته ومتابعة حالته حتى تم شفاءه وعادت له مقدرته على الحركة والمشى

لكنه عاد لبيت ابيه وقد تبدل تماما، كان يشعر أنه صاحب دار اغترب فيها وصار يعترض على ما يقدم إليه من طعام لا يحبه أو لا يكفيه، فترضخ أحيانا وتنفذ مطلبه على مضض وكأنها تمنحه من ميراثها الشرعى لقمة عيشه، أو تتجاهله وتكون شحيحة تماما معه كأى زوجة أب كما يشيعون عن زوجات الآباء فى كفرهم وكل الناحية، لم تهتم بغير الرجل الذى تدفئه وتسلب وعيه تماما وقد منحته أمنية لم ينلها إلا بعد أن عاشرها وعقد قرانه عليها، وكان المنصور يتابع المفاسد التى كان يراها ويرصدها بوعيه ومشاعره وبحساباته التى تعلمها فى الكتاب، كتوزيع معاش الدار أو حبوبها المخزونة من أيام حصادها تدسها لأهلها تسريبا ونهبا ومنحاً فى الخفاء والعلن، وبعد جمع القطن وكبسه فى " شوالات الخيش" التى يحسب

اوزانها وأعدادها ويكتشف أن بعضها يتسرب لناسها سلبا بأنصاف الليالى، بلا حس أو نفس مسموع إلا لمن يترصد ما يدور حوله، ومحاسبة تجار المحاصيل وقد صارت تتولاها وتغالط أبيه فى الأثمان والأوزان وبدلال تناوله مبالغ اقل مما حصلت عليه، وتائها يلاعب " الغندور " بنشوة وكأنه جدّده واطال عمره وعزمه، وربما أنساه كل شئ وصار يصدقها فى أى شئ، وعندما باح " المنصور " لأبيه ببعض ما شاهده بعينيه هز رأسه ومط بوزه وكانه يسمع اكذوبة أو عبارة عابرة لا تخصه ولا تعنيه، لكن الأمور لم تسر على هواها كما كانت تتوهم، لأن الوعى والتربص بالخصوم حماية للذات وللحقيقة، ولعل هذه الفكرة هيمنت عليه تماما

فعندما التقى المنصور بالصدفة بتاجر القطن الذى اشترى المحصول تفكر وتجاسر ثم دعاه راجيا أن يأتى اليهم فى الدار، وطلب منه أن يقول لأبيه وزن قطنهم الذى اشتراه ودفع ثمنه، بسعره المدفوع " للغندورة " وأضاف ليطمئنه أنه سيرسل مرسالا يخبره أنها خارج الدار، وحتى لا تكون حاضرة وجاهزة للمعارضة، وفهم التاجر مقصده ثم هز راسه عارفا أن مواجهتها بالحقيقة سيكون بداية لصراعه مع ناسها ولمنع التعامل معهم، ولم تطل الأيام لأنها ذهبت لتحضر ولادة اختها، فأرسل المنصور للتاجر مرسالا فجاء ليسلم على الحاج إبراهيم ويعبر له عن اشواقه قبل أن يفاتحه فى اى موضوع، ثم طلب لنفسه شايا يعمله المنصور الذى دخل صحن الدار، وهمس تاجر القطن للرجل بأنه يخاف الله ولا يخشى فى الحق لومة لائم وباح متطوعا بأنه اشترى محصول قطنهم فى هذا الموسم بعد أن تشكك أنه أقل مما كان يشتريه من دارهم كل عام، وعاتبا قال للحاج بعشم:

– عاوزك تسامحنى يا حاج

– اسامحك دا إيه ، دا إحنا عشرة قديمه يا راجل

– بس انا عايز أسألك يا حاج ، تبيع نص قطنك لتاجر غيرى ليه؟ دا إحنا عشرة عمر

– أنا ما بعتش لحد قطن، انت جيت ووزنت وشلت ودفعت، إنت بتقول كده ليه يا معلم فرحات؟

– عشان أنا خدت اللى خدته ولقيت البغاشى بتاع العزبه بيحمل شيلة قطن من دار نسايبك

– وهما بيزرعوا قطن؟ ولا لهم حتى فى تجارته؟

– ما لهمش ، بس كلام اتحاسب عنه يوم القيامه ، القطن اللى كان شايله يخصكم

وساد صمت ثم جاء المنصور بأكواب الشاى وجلس امامهما، والمعلم فرحات ينظر اليه مدققا كأنه اكتشف براعته وحرصه على كشف ملاعيبهم وقد شاعت عنهم حكايات تؤكد انهم دخلوا الدار ليستبيحوا كل شئ

وربما استعاد الحاج إبراهيم ما كان يدخل داره فى امثال تلك المواسم من محصول وراجع نفسه متشككا أن ما يقرب من نصف الأوزان التى اعتادها محصولا لنفس الأرض، فهل تسرب مسلوبا من داره وهو فى غفلة، أو أن المنصور أهمل زراعته هذا العام؟ وركز نظراته على وجهه قبل أن يسأله:

– خبر إيه يا منصور؟ هى الأرض دى مش ارض ابوك؟ ولا إنت مشغول بغيط خالك وارض امك اللى ف عبه؟

– أنا يا حاج ما خلصتش كلامى وياك، لو عايز تحاسب ابنك حاسبه براحتك، بس الحكايه مش كده

– ماشى يا معلم فرحات، ماشى، ح اكلمه بعدين، بتقول انك ما خلصتش كلامك، قول، عايز تقول ايه؟

– عايز اقول الحقيقه، ح تسمح لى اقولها من غير ما تزعل

– قول على راحتك، ح ازعل ليه؟

– أنا شلت تمانيه وعشرين قنطارا، ودفعت للست عشرين جنيه وربع ف القنطار

– كلام إيه ده، عشرين ولا تمانيه وعشرين؟

– الورقه معايا ياحاج، مكتوبه، تمانيه وعشرين قنطار ونص

– حلو قوى، ودفعت كام بقى؟

– سعر السوق اللى ماشى، واحد وعشرين جنيه وربع، ما تحسب الحسبه يا سى منصور

– هو أنا لو حسبتها ح يوافق على الحسبه؟ أبويا ما بقاش طايقنى لا ف سما ولا ف أرض

– انكتم انت، انكتم خالص ، امال ازاى بنت المراكيب قالت لى انهم عشرين قنطاراً ، والقنطار اتحسب بخمستاشر؟

– إسألها يا حاج، وأنا مستعد اقول الكلام ده قدامها

– سيب الحساب المكتوب ف الورقه مع ابويا، وهو يحاسبها

– خلاص خليها معاك يا حاج، عشان تعرف تحاسبها

– كتر خيرك ، دا أنا مستأمنها بنت المراكيب دى ، ما تقوم تشترى قزازة كاكولا للمعلم فرحات

– تحت امرك يا حاج، أنا قلت لك عشان اخلص ذمتى قدام ربنا، وربنا ع المفترى، بس امانه عليك ما تجيب سيرتى ولا تقول إنى أديت لك ورقه الحساب دى

– خبر إيه يا معلم فرحات؟ دا إنت نورت لى السكه قدامى، يبقى جزاتك، أتسبب لك ف الضرر؟ منصور اللى كتبها

رجع المنصور وفى يمينه زجاجة المشروب، سعيدا رغم ان سعادته منقوصه لم تكتمل، لأن رغبته فى كشف المخازى التى كانت تدور حوله وأمامه فى صحوه ومنامه، فالقمح المخزون يتسلل ويتم نقله مع كيزان الذرة وعبوات الحلبة والطيور التى يلملمها اطفال من اهل " الغندورة من وسط الدار فيسمع اصواتها ، حماما وبطا ودجاجا يتطاير بلا أجنحة تختلط أصواتها المستجيرة وهى تودع صحن الدار محمولة بجلبابٍ مرفوع، لعله كان يتخوف من المواجهة ويكتفى بتخزين المعلومات عن كل شئ يضيع

•••

عندما باح المنصور لأمه بما جرى ركبها عفريت متهور لا يوقفه جن مصور فقامت متعجلة ولبست الجلباب والطرحة والمداس ثم طلبت منه أن يأتى بحمار خاله المرسى، ركبته ليوصلها لدار أبيه فسحبه المنصور فرحا وقلقا فى ذات الوقت لأنه كان يسمع أن هذا المعاش معاشه، وهذه الأموال امواله باعتباره وريثا شرعيا وحيدا قبل وجود " الغندور " ومنكرة احقية امه الغندورة فى شبر من الميراث لأنهم لو حكّموا شرع الله وشريعته، فسوف يفسرون كل ماجرى عند زواجها منه احتيالا ونصبا والرجل فاقد لنصف وعيه بسبب أشواقه الممدودة للخلفة، وكأنه الليثى الجزار الذى كان يملك ارضا ودارا بسكة البندر، وكان كارها لكل الناس لأنه لم ينجب بعد عشر زيجات متتابعة بلا خلفة، وهو قدره المكتوب ولا يملك أى واحد من عباد الله المقدرة على تغييره، بعكس الحاج إبراهيم تماما لأنه أنجب المنصور فى الحلال ونفى عقمه بكل المعايير، وكان المنصور يسمع كلام أمه همسا لا يسمعه غيره، ولم يكن يملك غير شوقه لمرافقتها ومشاهدتها عند لقائها بابيه بعد غضبتها وخروجها باختيارها لكنها ذهبت للدار باختيارها، ربما احتجاجا واعتراضا على سلوكيات لم يفسرها بغير رغبتها فى منع السرقة

والنهب والخطف الحرام من معاش الدار، ولأن كل شئ كان معلوما بشهادات قالها بعض الناس فى الخفاء عن تلك الوافدة التى سكنت الدار لتنهب ملك الرجل وميراث ابنها الذى يتسلل لمن لا يستحقونه، عندما أتى المنصور ليخبرها بما حدث، كان يؤكد لها ما تسرب اليها من أقاويل بعض الجيران والأهالى عن كل ما كان يجرى فى بيتها الذى هجرته بكل الحسابات وبيت ابن عمها وزوجها وابنها، ولعلها طوال سنوات العشرة معه لم تغضب مرة ولا تركت داره قبل دخول الغندورة بهدف خرابها لصالح ناسها الذين سلطوها عليه، كانت الغندورة عند ناسها مطرودة بعد أن كشف الرجل ملاعيبها ومعها الغندور الذى لم تتركه ولأن المنصور لم يكن يراه أو يسمع صوته فى الدار الخالية تماما، فلا يسمعان غير صوت انفاس الرجل الذى كان ينهج من أثر عراك أو خلاف يصوت عال على نحو لم يحدث أبدا حوّل كلامه لحشرجات عندما دخلت سعيدة رحب بها واقفا وأشار لها لترتاح من المشوار والمنصور يتسلل إلى زريبة المواشى ليربط الحمار أو يتباعد عنها وعنه، وكانت بجواره والصمت يبدو ثقيلا عليهما لأن المخزون كان يتزاحم ولا يخرج، ربما لأن أهم الموضوعات لم يكن واضحا له أو لها، وعندما بدأت كلامها عما سمعته هدأها وجلس بجوارها بشوق، لأنها كما قال بنت عمه الشقيق فى نهاية المطاف وما زالت زوجته شرعا يحق له أن يطالبها بالبقاء فى داره ودارها التى لا يصح أن تغادرها ابدا، ولأنها عادت بنفسها كان يحدثها واثقا أن عودتها له صلحا وستبقى للحياة معه وهى حلاله بموجب الشرع والأصول، لعله كان يتدفق معها فى الحوار المتودد لها ليرضيها وتستجيب وتبقى بدارها عارفا أنها جاءت إليه بنفسها خوفا عليه، لعله تمنى لو كان يملك القدرة على إسكات الألسنة التى برع بعضها فى تحويل سيرتهما إلى لبانة يتشدقون بها، وكانه يؤكد لنفسه أن

سقطته كانت غلطة يلزم أن يتخلص منها قريبا وأن يكتفى بأم المنصور وهى امرأة وفية صابرة متحاملة، ولأنه ما زال راغبا فيها كابنة عم قبل أن تكون زوجتة بنت الأصول، ولعلها شعرت بصدقه واستعادت عشرته وقد طالت فهزت رأسها موافقة على سؤاله بأن تبقى فترد بتقاطيع الوجه والعينين دون كلمات، ويشعر بالفرحة تتجدد وينادى على المنصور ليأمره بتودد:

- تروح دار سيدك، وتلم هدوم امّك، وتجيبها، إحنا خلاص اتصالحنا، عشان ترتاح، مش كده يا أم المنصور؟

- أروح يا آبا

- ح تجيب علبه المصاغ بتاعتى ، تلاقيها فوق الدولاب، و ح تلاقى علبة الفلوس إللى إنت عارفها، تجيبها معاك

رمح متباعدا متسارعا ليدخل زريبة المواشى ويسحب الحمار من مربطه ويعدل " البردعه " ثم يركبه وخرج من الدار، وإبراهيم يقول لها بعد أن تنهد وهو يتابع حركته المستجيبة:

- ربنا يخليه لنا، ما تيجى نمدد شويه، على ما يرجع م المشوار

- نمدد؟

هامش (٤)

كان الحاج إبراهيم فى تلك الليلة يشعر بسعادة طفل، ربما عبر لأم المنصور عن اشواقه لحضنها ودفء الفراش بجوارها فبدا عليها الخجل الموروث، لكنها كانت ليلة مبهجة بحساباتهما، لأنه عاد كما كان ابن عمها الحنون الوفى الذى اكتشف ملاعيب الزوجة الجديدة بعد أن سمع ما قيل عنها كزوجة جميلة وصبية وأم لطفل صغير يعشقه لكنه كان يفكر بعد أن انكشفت ملاعيبها الخسيسة، ربما تيقن فى تلك الأمسية ان " الغندورة " كانت مدفوعة إليه دفعا ليعشقها ويعاشرها حليلة وهبت نفسها بحيلة مدبرة

من ناسها ليصلوا لما وصلوا إليه، وقد دخلت الدار وقلبت موزينها بتسرّيب ما كان يتاح لها أن تناله، كانت تجربته تتجلى له بكل تفاصيلها فيصل لفكرة شبه مؤكدة بأنها لا تليق به وأن الغندور ليس ابنه لأنه كان محمولا فى بطنها قبل أن يعاشرها بشهرين تقريبا لانه عقد عليها قرانه ثم ولدته فى الشهر الرابع مكتمل النمو وقالوا إنه ابن سبعة شهور لا تزيد، فهل كان مغيبا أم انه كان يتأمل تفاصيل الأحداث ونتائج الخدعة التى تورط فيها بشهادة شهود لم يتشكك فى حساباتهم ولا تفسيراتهم، ولم تكن حلالا له كما حاول أن يقنع نفسه، لكن ثمرتها توافقت مع اشواقه التى عاشها متمنيا خلفة تأتى من صلبه لتثبت قدراته لأن المسألة المأمولة لم تتكرر بعد المنصور، ودارت بذاكرته كل التفاصيل وتأكد من صدق الشائعات، وربما كان تودده لأم المنصور ليستعيد ثقتها فيه وهى بنت عمه التى صار يطمئنها بأنها أغلى من كل حريم الدنيا، وقال لها أيضا أن صلحهما جدّد ما راح منهما فى تلك الأيام التى غابت عنه وتركته يعانى من اليتم، لأنه عاد طفلا يحتاج حنان امه ودفء حضنها، وقد تحقق له فى تلك الليلة صلحاً معها، وطالبها بأن تسامحه مؤكدا أنه سيتخلص من بنت شلبى فى اقرب وقت ممكن وأنه سوف يأخذ منها الطفل بالقوة أو بالقانون قبل ان يحين موعد ضمه لأبيه ليرعاه، وهو مالك يستطيع أن ينفق عليه بينما هى معدمة وأهلها على باب الله

لكن أم المنصور لم تصدق كل ما قاله، ولا سلّمت بينها وبين روحها بأنه صادق معها تماما، طلبت بحياء أن يفرش لها المقعد الخالى بسطح الدار لتسكنه معزولة ومتباعدة عن معاشرة بنت الغرباء لو عادت لداره بالولد الصغير وهو يحمل اسمه ويستحق رعايته لأنه ابنه الصغير أمام الناس، بل طلبت أيضا ألا يفرض عليها معاشرة الغندورة غصبا أو التعامل معها،

مؤكدة انها عادت للدار لتحميها من النهب والسلب، ولكيلا تنفلت اعصابها مرة أخرى وتعاركها مرة اخرى ، فوافقها واستغرب من ثقتها رغم ما قاله بأنه لن يعيدها إلى داره مرة أخرى، لأنها كما قالت له أم طفل منسوب إليه امام الدنيا كلها ولا جدوى من الإنكار، ولعله من داخله استحسن فكرتها وقال مداعبا لها أنها ستصبح فوق سطح الدار قريبة من الرب الخالق، تصلى له فى اوقات الصلاة وتدعوا فى الخفاء على ضرتها بقطع عيشها، أو تدعو لها بالهداية لتحمى الدار وتتعلم الأمانة بحسب ما يتمناه، وليتأكد لها أنها عادت كما كانت ست دارها فقد استعادت مكانتها فى تسيير دارها،وقد قال لها متوددا أن طلبها بسيط ومفيد ولا يحتاج منها لأكثر من بعض الصبر، وطمأنها مؤكدا أنه إذا حدث ما توقعته أو تخيلته بعودة ضرتها للدار، فستكون لها خادمة كأول شرط وأنه لولا الولد ما فكر فى إعادتها أبدا، بعدما ثبت أنها نهبت وسلبت معاش داره وخانت الأمانة عندما سلمها مسئولية كل شئ بحسن نية، وابتسم قبل أن يقول مستكينا ربما ومواسيا نفسه فى همومه وقدره المكتوب وهو يتنهد:

– إللى قبلنا قالوا إيه؟ قالوا ع الأصل دوّر، بس إنتى اللى فاضله لى م الدنيا

علّقت على ما سمعته وهى تهز رأسها وقد تأكد لها أن ظنونها فيه تأكدت رغم كلامه المعسول، وتظاهره بأنه أفاق من كابوس، ربما قرر أن يعيدها برضاه برغم ملاعيب ناسها واهلها:

– أهلها بعتوا لى مراسيل عشان أرجعها الدار

– ما هى حلالك يا أبو المنصور، وأبو الغندور

– شايفاها حلالى يا أم المنصور؟

– اللى ما يشوف م الغربال يا ابو منصور

– ما تفضيها سيرة بقى يا بنت عمى، فضيها سيره، حلالى دا إيه؟ إنتى إللى حلالى

•••

لكن الأمور فى الدار لم تتوافق مع الوعود التى قطعها الرجل على نفسه وتوافقت مع ظنون بنت عمه وأم ابنه البكرى منصور، وكانت البداية عندما توسط أهلها وأعادوها بليل، متعهدين له بأن تكف عن تلك العطايا التى باحوا أنها كانت تمنحها لهم احيانا لفك ازمة أو حل مشكلة، مؤكدين له انهم فى عوز دائم وأنها لم تقدم مثل هذه المعونات لأهلها إلا لأنها وفيه لمن خلفوها وصارت لهم ابنة تعرف أحوالهم تحاول مساعدتهم، كانت " الغندورة " صامتة لا تتكلم ولا تعلق ورأسها المحنى يثير تعاطف من يسمع كلامهم، فهى تطل على الأرض تحت قدميها وهى تجلس متربعة عليها وفوق حجرها المغدور الذى راح فى النعاس والحاج إبراهيم يوشك أن يأمرها بإيقاظه ليطمئن عليه لكنه يخجل من نفسه فيتردد ولا يطلب وعيناه حائرتان بينه وبين أم المنصور ووجه الغندرة الجالسة، بعد أن اكملوا كلامهم تحركت الغندورة ورفعت ابنها على كتفها، وتناولت يد الحاج إبراهيم اليمنى وقبلتها ثم رفعتها إلى جبهتها عدة مرات، وعدلت الطفل الذى صحا من نومه ليكون مكشوفا لأبيه الذى تحسس جبهته بحنو بالغ وابتسم له ولها، وكان اهلها يتبادلون النظرات باطمئنان، وكأن ما شافوه علامة اتفقوا عليها هى وناسها الذين التفتوا لأبيها جميعا ليتقدم ويزغد صدرها بخفة وهو يوبخها مستنكرا قبل أن يوجه كلامه للحاج إبراهيم:

– ح تنعدلى يا بنت المراكيب؟ و ح تعمل لك اللى يرضيك يا حاج، إحنا جينا نستسمحك، وعارفين إنك ح تسامحها

– اسامحها؟ مش لما تبطل عمايلها الخيبانه؟ وتعقل؟

– خلاص بقى يا حاج، هى ح تقدر تعمل حاجه من وراك؟ دا إحنا عرفناها الحقيقة، دى لازم تبقى خدامتك وخدامة الست، حمد الله على سلامتها ، سمعتى يا غندوره؟

قالها أكبرهم قبل أن يمدوا أياديهم بالتتابع للسلام على يد الحاج الذى كان يشيعهم بنظراته دون أن يتحرك من مكانه وهم يسلمون عليه ويخرجوا من باب الدار فى صمت متفق عليه وساد الصمت بعد أن غابوا جميعا عن عينيها وعينيه وعيون الحاضرين، فأغلقت باب الدار وراءهم ليشكل فاصلا يحجبهم وتحركت ناحيته باسمة ومرة أخرى تناولت يده وقربتها من فمها وقبلتها بسخونة عدة قبلات، ثم فتحت صدرها بيدها فانكشف وانستر فى دقيقة، لكنها اخرجت من بين الثديين مصحفا صغيرا وضعته على عينيها المسبلتين، ثم تلفت لكل الحاضرين بالتتابع لتشهدهم على ما تنوى أن تفعله ويرضيهم:

– أحلف لكوا ع المصحف ده ما احط ايدى ع المعاش تانى، بس أنا عايزاك تسامحنى وتصالحنى يا حاج؟

– أصالحك يا غندوره؟ بعد كل اللى عملتيه؟ إزاى؟

– بس أنا عايزه اصالحك، وعايزه اقولك كلمتين بينى وبينك، بس بعد إذن الحاجه، ح تكسفنى؟ انا ح أدخل المندرة، وأرضع الغندور

نظر اليها ونظر لأم المنصور و" الغندورة " تحمل طفلها الذى يبكى بحرقة، لكنها تتحرك نحو أم المنصور باستكانة خالصة:

– ح توصينى ع الست يا حاج؟ دى ست البلد بحالها، إيدك يا ست الكل، ابوسها وأحطها على راسى كمان

– خلاص يا غندوره، خشى رضعى ابنك

– ح أرضعه وآجى اقعد تحت رجليكى

- خشى رضعيه عشان يسكت

دخلت الغندورة باب المندرة فتحير الحاج إبراهيم وتلفت حوله، وساد الصمت بعد سكوت الطفل عن البكاء مؤكدا لهما أنه ينال رضعته، جلس الحاج على دكة النورج مجاورا لأم المنصور ساكتا وعاجزا عن التعبير عن مشاعره، لكن صمته لم يطل وهو يسمع نداء " الغندورة "

- يا حاج ، الغندور عايز يقولك كلمتين، بعد إذن الست

- قوم شوفها عايزه إيه؟

- ح تكون عايزه ايه يعنى؟

- أنا ح أطلع فوق

وقامت أم المنصور بالفعل وسمع صوت مداسها وهى تطلع سلالم الدار، فدفع باب المندرة ورآها، وقد خلعت ثوبها وألقته على طرف الكنبه ليكتمل عريها، كان يخطو اول خطوة نحوها بعد أن أغلق باب المندرة ويحرك الترباس ليسمع همساتها والذراعين مفتوحين على اتساعهما، كانت تحتويه فتبدو له أنعم من الحرير، بارعة فى المناغشة والمداعبة لتثيره بجرأة وجسارة واشتياق كامن كان يتفجر، ولعله فى تلك الظهيرة لم يفكر بعقله أو بوعيه بل كان مدفوعا ومستجيبا لرغبته على نحو غير مسبوق، وهى تحفزه وتعده بولد آخر غير المغدور، تطالبه بأن يختار اسمه وكأنه تجسّد وتحقق بعد أن كان حلما عتيقا طاف بخياله عمرا، ومفكرا وهو فى قمة النشوة فى اسم لائق عبر اللحظات الخاطفة، ربما بعد أن انهى مهمته تمدّد على الكنبة العتيقة، وتسارعت نبضات قلبه بفرحة من غير وجع، وربما أدان نفسه لأنه طردها من داره زمنا بدا له أنه طال وحرم نفسه من وجودها

لعله قارنها بأم المنصور التى لا تملك جرأتها لأن الحياء يهيمن عليها ميراثا لم ينمح أبدا، والحياء الفطرى الموروث المؤكد بوصايا وصلتها من

أمها وخالاتها وحريم العائلة وقد اتفقوا عليه ومارسوا ما يؤكده، لكن الرغبة سيطرت على مشاعره غصبا عنه فى هذه السن وقد تخطى الخمسين بعدة سنوات، وربما استطاع ان يحبس نزواته سنوات وسنوات مع أم المنصور وكان متحاملا على نفسه وهو يحاول أن يقنع شريكة عمره وبنت عمه أن ما يتمناه حلال ومباح بكل الحسابات، وكانت أحيانا تتهمه بالتهور والخروج عن المألوف فى سلوكه وكلماته أو تتمنع وتحبس رغبتها الكامنة تأدبا بحساباتها وبرودا بحساباته، لعله لام نفسه عدة مرات على امتداد السنوات لأنه لم يفكر فى الزواج مرة اخرى وهى على ذمته، وما دام الشرع يسمح له بمثنى وثلاث ورباع مع ما ملكت أيمانه، ولأن أكابر السلالة بأسرها من قبله فعلوا ذلك دونما اعتراضات أو احتجاجات من كل الحريم القدامى، ولأن الأمر كان شائعا ومبررا وممكنا فى الأزمنة السابقة فكيف تبدل؟ لعل الزمن كان مختلفا عن زمنه لكنه لم ينمح أو يتحول إلى خطيئة بحسب الشرع السائد والمحفوظ فى ذاكرة الكل، على هذا النحو كان يفكر ويرى أن ما تقدمه الغندورة مباح ومتاح ويتطلب منه السماح

هامش (٥)

"سأدس أنفى وأطلب منكم ومن أبى أن يسمح لى أن أرافقه فى مشواره لدار امه، وكان يركب الحمار ويتعجله راضيا تماما عن كل ما رآه وسمعه بين أبيه وأمه فى حوار مطمئن بين طرفين عاشا طوال عمرهما وبينهما طمأنة لا يتسرب اليها أى شكوك، كان يعرف أنها مالكة للدار التى تتوجه إليها بلا شريك لأنها حسبما كان الكل يقول ويروى خلّصت ذمّتها تماما أمام الله وأمام الناس، ودفعت لكل أخ نصيبه بحسب تقدير الرجل الطيب المتخصص فى معرفة اثمان البيوت القديمة بلا مجاملة لطرف، وبحياده مقابل الرزق الذى يجود به البائع أو المشترى طوعا دون أن يطلب أجرا أو

يراجع ما كان يتناوله قبل أن يدسه بجيبه، داعيا لمن أعطاه أو رافضا يعناد وجدية أن يأخذ ممن يرى أن حالته تحتاج للعون، وقد سلمت الحاجة سعيدة مفتاح دارها للحاج برهان وهو الأخ الأكبر وصاحب دار تفصلها عن دارها بناية صغيرة كانت فى الزمن السابق دكانا لتخزين الحبوب اللازمة لغذاء ناسهم وناس غرباء عندما كان يعمل معلما فى مدرسة إبتدائية تابعة للأزهر بالبندر، فتحولت الدار لمخزن كيماوى أغلقوه لتصبح حيزا خاليا إلا من العناكب والفئران والقطط الضالة، وكان الدكان على هذا النحو جالبا للزواحف والوساخات التى ربما تسرح وتزحف للدارين المجاورتين من ناحية اليمين واليسار، ولم يكن لديه مفر غير التخلص من آثار أى كيانات تزحف نحو دارها المسكوكة وقد تحولت إلى مسئولية أو عبء موسمى، من اللازم بحسابات الحاج فرحان أن يأمر عياله بفتحها كل مدة لكى يزيلوا ما قد يكون رمادا سقط وتراكم ويحتاج التنظيف من مخلفات العناكب والفئران من أى نوع، وربما لأنها سلمته ميراثها من الأرض ليزرعها ويناولها إيجارها بانتظام كل عام ثم كف عن ذلك لظروف طارئة لم يفتعلها أبدا، لكنها كانت مطالب تواجهه بالفعل غصبا عنه، مثل تزويج البنات أو لمصاريف الولدين الذين يدرسان بجامعة القاهرة ويسكنان بمدينتها الجامعية، ربما قال لنفسه بأن سداده لإيجار ارضها لا بد أن يتم فى اقرب وقت تسمح فيه ظروفه، ويوم باح لها بخجل عن احواله تبسّمت له وقالت إنها ليست بحاجة لإيجار أرضها منه لأنها مستورة، ولأنها أخته والفوارق بينهما لا وجود لها ولأن السماح بين الأخوة ميراث اولاد الأصول فقد كان يكفيها أنه سدد إيجار الأرض وأكثر مقدما بشهادة الكل فى اوقات الشدة العابرة اذا واجهتها، ولأنه لم يفرط فى تأدية اى واجب لصالحها فى كل المناسبات، ولأنه تولى تجهيزها وكسوتها تمهيدا لزواجها كما صرف على

فرحها من ماله، ونقطها بما يليق باسمه وأصله ومركزه فى أى مناسبة لها، كميلاد الولد والزيارات فى الأعياد والمواسم المتتابعة بما تشمله من خير داره الذى ينضاف لخير دارها فى بيت رجلها، وكان طفلها المولود يكبر يوما بعد يوم وعاما بعد عام ويلزم أن ينال عيديته من خاله الحاج برهان فتسعده أكثر من أى عيديه يأخذها من قريب أو من غريب، والرجل يتطوع ليسدد دينا لقريب أو يجامل من جامله، حتى عندما صار المنصور وحيدها شابا ثم رجلا كان يناوله ما يليق بسنه من المال فى تلك المناسيبة معابثا له وهو يراه مترددا:

– ح تقوللى كبرت؟ وماله، بس ح تكبر على خالك؟ خد عيديتك يا راجل، ح تنكسف من خالك؟

وفى الأعياد يقدم لها كسوتها أو يقدم لها مقطع قماش من الصوف الإنجليزى يفصله الحاج إبراهيم جلبابا أو عباءة تليق به بعد عودته من زيارة حج، يطوف بالكعبة المباركة ثم يزور المصطفى لقراءة الفاتحة على روحه ثم يصلى فى مقامه لهداية ناسه وزيادة خيرهم وخلفتهم، وكانت تلك الذكريات تتوالى متسارعة فى عقل ابى وهو يخطو اول خطوة، داخلا دارا ألفها وصحى للدنيا ليدخل ابواب حجراتها ويعبر عتبتها فى طفولته الأولى، يلعب بما يجده ظلطة أو " شخشيخة " أو مشّاية، أو يركب ظهر الحمار مسنودا على ذراع أو كتف ولد أكبر منه، لعله تذكر وجبات كبد الأرانب التى كانت تربيها داخل الدار قبل رحيل ابيها أو عودتها لدار إبراهيم قبل أن يصير حاجا مثل ابيها، وسأل نفسه كيف مرت السنوات بهذه السرعة ثم صار حسبما يقولون عنه رجلا؟ وطافت بخياله صورة "قمر" فهز رأسه متسائلا بينه وبين نفسه إن كان من الممكن أن يتزوجها؟

قام ليلم الثياب من دولابها ويضع علبة المصاغ ملفوفة بثوبها فى السلة، ولعل صندوق نقودها أغراه أو دعاه ليفتحه، ثم يرى عشرات الجنيهات والجنيهات وأنصافها وأرباعها ورقا ملونا والريالات الفضية وانصاف وأرباع ريالات مع أنصاف الفرنكات مسدسة أو مدورة، تلفت حوله وكأن جمعا من الناس يراه ويعتب عليه لأنه يفتح صندوق الأم، لكنه تأكد أنه وحيد داخل دار أمه يتفرج على مدخراتها، ومطمئنا عليها أغلقه وأحكم إغلاقه وتأكد أن الصندوق لن يبوح لها بأنه انفتح بيد المنصور أو شاف محتوياته على مهل وحسبها ثم تنهد وربت بيده على خشب الصندوق الصغير، وفكر كيف أن امه تحتفظ بتلك الأموال التى لم يحسبها أو يحصيها قبلا، ومعاندا نفسه أو رافضا أن يصبح جاسوسا على مال أمه التى احتفظت به لمطالب الحياة وكلها من مردود ميراثها من أبيها أرضا يزرعها الحاج برهان، وجده الكبير والد أمه مثل خاله برهان، الذى خلّص ذمته وسدد ما كان يرجئه لها حقوقا حسبها عن سنوات تعيش فيها بدار زوجها،لكنه أعاد لها مالها لتعيش فى دارها أيام الغضب بمالها كما باحت للمنصور، يسعى وعزيمته تقوى ويطمئن قلبه، ويركب حماره وقد عاد مسرعا ليقدم علبة المصاغ،ملفوفة فى ثوب بين ثيابها وصندوقها الذى ركنته بجوارها ثم مدت يدها وفتحته وناولته للحاج إبراهيم:

– الحاج برهان دفع إيجاره المتأخر أول ما وصلت الدار

– كان فاكر انى ح افوتك؟ وتفوتينى؟ دا قلبه ابيض

– يعنى كان يسيبنى اعيش على حساب مين؟

– على حساب جوزك يا غاليه، يا أم المنصور، خللى الفلوس دى معاكى،

– هو أنا وانت مش واحد؟

كان المنصور يشعر بالحيرة فقام من مكانه وتحرك فى صحن الدار ثم صعد إلى السطح، شاعرا بالخجل ممزوجا بفرحة تمناها وتخيلها، وربما تخيل نفسه أبا لطفل يأتى ليرعاه ويتباهى به، يطعمه ويحدثه ويحكى له كل تفاصيل الحياة قبل أن يولد فى الدنيا البراح غير المحدود، بحلوها ومرّها كما كان يحسّها أو يحاول تفسيرها، فيشعر بالعجز ويتركها للمولى جل جلاله "

لكنكم تعرفتم كما عرفت على الموازين التى انقلبت معاييرها دون مقدمات، فالغندورة التى عادت لتشاركهم الحياة مرة أخرى ، وأم المنصور التى عاودت التباعد عنها حفاظا على عزتها وكرامتها والحاج تائه فى دوامة تواصل بدنه مع من تدربت زمنا وتعلمت كيف تأسر مشاعر أمثاله وتفقده توازنه رغم التاريخ الحافل بالعطاء والزهو، هل كانت غريزة الرجل لها كل هذه القدرة لتبدل مساره؟ ربما، كنت أشعر بالمرارة طيفا لم يتأكد وجوده لكننى كنت اتحسس خطواتى وأقرأ ما كان يطوف بخيال " المنصور " أبى المحتمل وهو يعيش ازمته بلا حلم فى الخروج غير الخروج الغصب، لكنه يتعرض للطرد بلا مبررات "

●●●

كانت عودة الغندورة للدار بداية زمن جديد، لأنها اثبتت قدرتها على التحكم فى الدار لصالحها متلما تحكمت فى الرجل الذى تاه وتوهم أنه يعيش زمنه كما تمناه طوال عمره لأنه لم يحقق امنيته كما كان يتمناها إلا بعد دخوله فى علاقة مع الغندورة التى كانت تبرع فى اختطافه حتى من نفسه، فترتدى ثيابا مثيرة لم يسبق له ان رآها أو تخيلها بينما تناغشه وتلاعبه أو تدعوه ليعاود محاولاته ليشعر باكتمال النشوه حتى لو تكاسل أو تراجع، كانت تبتسم وتمنحه قبلة محبوكة تحرك فيه الساكن فيشعر برجولته

وقد تجددت وتأكدت بعد أن عاش بينه وبين نفسه زمنا تاهت فيه ومنه لزمن طال، ربما فكر أن الأمر من اوله لآخره كان عجزا اصابه واستسلم له، ثم شرع فى مقاومته بعزيمة ورغبة فجرتها تلك الصبية التى أكدت سلامته، كان يندفع مستجيبا لدعوتها لمرات عديدة، ولو حاول أن يتجاهلها ملوما على نفسه أو متخوفا من الموت المفاجئ الذى يصيب امثاله لكنها كانت تشاكسة بلا خجل ويستجيب لها احيانا على مضض أو غصبا بفعل حركاتها وخبرتها التى أكدت أنها ليست عشقا ولا عفوية كما قالتها عدة مرات، لكنها أكدت انه فى نهاية المطاف كيان طيّع لها تستطيع أن تسيره حسب رغبتها بينما تسعى لتوهمه أنها عشقته وتسببت فى إعادته لشبابه ليكون قادرا على اشباعها وتأكيد فحولته لأنه يستجيب لها وقتما تشاء، وينسى تفكيره فى محاسبتها على ولادة الغندور قبل ميعاده مثل أى مولود مكتمل التكوين أو ناقص التكوين صار يتسمى باسمه ولا يعرف الحقيقة فيرجئ المواجهة، أويتناسى يائسا من جدوى التأكد من السقطة الكبرى التى قد تؤكد له عقمه أو فحولته وهو فى نهاية المطاف خاسر أو موهوم بأنه لم يخسر شيئا، كاذبا على نفسه قبل أن يكذب على ناسه ومن هم من الغرباء الذين صاروا من بطانته بتدابيرها

●●●

" وحيدا كان يتفكر ويستعيد ما كان فى صحوته التى تتساوى مع الغفلة، لعل الرجل فى بداية المطاف كان يحفز نفسه إلى يوم تتاح له الفرصة لسؤالها عمن وضع بذرة طفل لا يشبه عيال اهله متذكرا أنها جاءته فى ظهيرة يوم عند رأس غيطه ودخلت زريبة المواشى، هل رفعت طرف ثوبها ثم شرعت فى لملمة عناقيد العنب وقد نزلت من التكعيبة، أو حبات من بلح " زغلول " ساقطة من النخيل، وعندما تنحنح معلنا لها وجوده لم تلتفت

له وظلت تلملم حبات البلح وعناقيد العنب، ثم رفعت ذيل جلبابها لأعلى على غير توقع ووضعته بين اسنانها، وقد بدت أمامه إمرأة عارية تماما سقطت من الفراغ لتؤنسه فى تلك الظهيرة الساخنة، وكان وحيدا يكابد سخونة الشمس وكان يحاول أن يتغلب عليها بظل الأشجار والنخيل، لكنها بخضرة العينين وبروز النهدين وبياض البشرة كانت تبدو له ملاكا هبطت من السماء، أو ملكة لم يقم بتتويجها من يعملون فى قصرها وقد فرت بعد طول النعاس وقامت خلسة، ثم ذهبت لتجمع الثمار التى اشتاقت لجمعها بيديها من حديقة قصرها المفتوح على الزراعات والحدائق:

- إنتى بنت مين يا أميره؟
- بنت شحاته السرسناوى
- بتاع السريس، عارفه، بقى انتى بنته؟
- وأنا ح اكدب عليك ليه؟ هو العنب ده بتاعكم؟
- لأ، دا بتاع جارنا ف الغيط، ودى الزريبه بتاعته
- هى ما فيهاش بهايم ليه؟
- ما هو خدها ورجع البلد، ما تقعدى
- والحاجات اللى ف حجرى؟
- خليها على حجرك، وارتاحى
- ربنا يخليك ويبارك فيك، عايزه أقلع الجلابيه دى، اقلعها؟
- بخاطرك
- الدنيا حر نار
- صحيح، بس ح تقلعى قدامى؟ مش مكسوفه؟
- ح انكسف من أيه؟ إنت اللى باين عليك مكسوف منى

قالتها وخلعت الجلباب بحذر ولفلفت اطرافه على محتوياته من العنب والبلح الملموم، وقد أدهش الحاج إبراهيم أن الجلباب كان غطاءها الوحيد الذى يسترها ولا ترتدى تحته أى شئ، والعرى المكتمل يكشف التفاصيل ويجملها ويجلب وسوسات الشياطين، لكنه بسمل وحوقل وزام ثم همس لها:

- أجيب لك قميص تلبسيه

- الدنيا حر ، إنت مكسوف منى؟

- مش حكاية كسوف

- تعالى اقعد جنبى، انا زى بنتك

- طيب استنى دقيقه، ح ابص ع الخلق اللى بره

تلفت حواليه وتردد ثم اقترب منها وربت على كتفها ثم نزلت راحته على ظهرها، ورآها تتمدد فى مربع الظل وتتعلق به بشدة، رفع عباءته المركونة عند طرف المدخل ثم فرشها فى حيز اكثر عزلة، وأشار لها لترتاح عليها فاستجابت وتمدّدت وأشارت له ليقترب منها فاقترب على مهل وسألها:

- إنتى عايزه إيه؟

- عايزاك إنت

- دا إنتى اصغر م المنصور

- مش عايز له أخ؟ كل الناس بتقول كده، عايز له أخ؟

- غريبه، وانتى ايه اللى عرفك، عايز له أخ

لعله اندفع على نحو مفاجئ ونسى الناس ونسى باب الزريبة المطل على الغيطان، ولعله كان يرى اشباحا تتحرك متباعدة أو تتجه ناحية الزريبة من بعيد، لكنه استطاع أن يتناسى كل شئ لأن البنت كانت انثى مكتملة بلا موانع أو معوقات، طريقها مفتوح وسلوكها محفز ومحرض وصوتها داع ودافع ليواصل مشواره فواصل واعطى وقام وقامت ملفوفة بطرف عباءته،

كانت ساعة غروب لم تكتمل إلا عندما توافقت مع صوت المؤذن بزاوية الكفر الكائن فى الناحية الأخرى من كفرهم وقد كانت الترعة تفصله عنه "حوض" الارض المسمى باسم اولاد عوف، كان الحمار هناك مربوطا عند مدار الساقية ففكه وسحبه وأفرغ محتويات جلبابها من بلح وعنب فى الغبيط الخالى تماما وأمرها بأن ترتديه فطاوعته، وربما حرصا عليها قال لها أيضا:

- إسبقينى عشان ما حدش يشوفنا ماشيين مع بعض
- ما تخليهم يشوفونا، إنت بتخاف؟
- وبعدين، اسمعى الكلام
- والبلح والعنب؟
- ح يوصلوا لك لحد باب الدار، إبقى إستنينى ع الباب "

●●●

لكن الغندورة اكدت قدرتها على التحكم فى تفكير الرجل لأبعد الحدود بعد عودتها من الغضبة التى حسبوها نهاية المطاف لكنها كانت بداية لتمكنها على نحو غير مسبوق، كان بينه وبين نفسه وأمام اهله يحاول إبعادها عن خانة الاتهام بتخطى الموانع معاندا الكل مثلما عاند نفسه حتى عندما تأكد أن المولود لم يكن يخصه لو حسب الزمن الذى تعرف عليها فيه وكيف واصل مشواره معها مفترضا انه سيحقق حلمه، واثقا انها استغلت داره واسمه لكنها ولدت له طفلا قبل كل توقعاته التى لم تخطر على خياله، ولعله اقرّ واعترف أن ما صار إليه حاله بحساباته كان تعويضا عن كل ما خسره بفعلها رغم انه صالحها بعدأن تأكد من عدم أمانتها مع كل ما طالته يديها وسرّيته لناسها نهبا مؤكدا لماله أو معاش داره لأن الكلام صار شائعا بينهم، لكنه كان بحساته عن نفسه مطالبا بقبول تلك الخسائر العابرة،

وكأنما كان من اللازم أن يبدل افكاره لأن بعض اكابر العائلة كانوا ينفقون بحمق ويدفعون اثمانا لمتع عابرة فى موالد الأولياء بالكثير مما يملكون وبأثمان باهظة تلبية لرغبة خاطفة غير مبررة ومحكومة بمنطقه أو منطق أمثاله من الشباب أيامها، وقد دفعها اكابرهم سلفا ولاحقا

وكان المنصور قد تحول فى تلك المرحلة إلى هدف تترصده الغندورة، وتبرع فى تحريض الحاج إبراهيم ضده وقد تدفعه دفعا ليحاسبه على لمسة منه بقصد أو بغير قصد باحت بها لأبيه سرا، وبدلالها المفتعل تحتضن ظهر الرجل محمية به وهى تتهدده:

– أنا بأقول لك قدام الحاج تبعد عنى ، شوف واحده تجوز لك وإحنا نجوزك، مش ح اقولك اكتر من كده

– هو عمل إيه يا أم الغندور؟ ما تقولى اللى عمله

– الغندور اخوك يا منصور

– إنتى بتقولى الكلام ده ليه؟ أنا كلمتك ولا جيت جنبك؟

– ما تنكتم يا منصور، انا عايز أعرف منها، انت عملت إيه؟

– خلاص يا حاج خلاص ، يمكن إتهيألى انه غمز لى بعينه، ولا اتسند على كتفى وهو معدى بنقلة الرطش امبارح

– إمشى غور من قدامى ، غور، مش عايز اشوف وشك

ويخرج المنصور مكسورا ومغلوبا على امره بأكذوبة محبوكة لا يعرف كيف يكشف خباياها وهو يتحاشى الدخول معها فى صراع مباشر فى وجود ابيه، وإذا تشكى لأمه من تلك الأكاذيب محاولا أن يستعين برأيها ليخرج من دائرة تلك الاتهامات الباطلة فتتأمله باستغراب ولا تعلق، وقد تواجهها إذا كانت موجودة فى المكان أو سمعت حوارها مع الرجل بأذنيها، لكنه كان يصعد درجات السلم ويتجه نحو مقعدها بسطح الدار ليشكو لها

مما حدث له فتسمع الكلام وتهز رأسها حائرة دون رد، تتمزق بين رغبتين: أن تنصف ابنها وتواجه الرجل أو تبصّره بالفخاخ المنصوبة حوله وهو فى غفلته يسمع ولا يرد، أو أن تعاركها وتضربها بالمداس مرة اخرى وتطردها من الدار، لكنها كانت تعرف زيادة سيطرتها على عقل الرجل فتتحامل وتنصح المنصور بالتباعد عنها بقدر الإمكان، كانت حربا باردة بكل الحسابات تدور فى جنبات الدار، لأن الرجل غارق فى الجب الغويط يتصوره عشقا ودلالا سعى ليحصل عليه طوال عمره ولم يحصل عليه إلا بعد أن التقى بالغندورة، على عكس أم المنصور التى تشعر الهزيمة وتندم لأنها عادت للدار موهومة بأنها سوف تحمى زوجها وابنها من النهب والسلب عيانا بيانا، اما مسألة اتهام المنصور بأنه يناغشها أو بغازلها فلم تكن جاهلة لتعرف كم هو باطل ومحبوك وادعاء زائف ممن لا تعرف الخجل ابدا، وبدا لها أن تلك المشاكل المتجددة التى لم تخطر على بالها أو باله صارت كابوسا متحركا يهيمن على الرجل ويستفزه ولا يتيح له أن يكون واعيا ليحمى نفسه ويحافظ على ابنه أو على نفسه، يتحول إلى كيان معترض على ابنه وعلى الحاجة سعيدة أيضا، والعماء مهيمن عليه ووجهها المكشوف خالع لكل براقع الحياء

والغندورة تشعر أنها فى طريقها لتحقيق غايتها بطرد المنصور من الدار، ربما كانت تتمنى لو تخلصت من امه ايضا فى أقرب وقت ممكن لتخلوا لها الدار تماما لتنفرد بالرجل الذى كانت تؤكد له أنها لم تعشق غيره، ولم تستجب لوسوسات شيطانها أبدا أو لدعوات المنصور الذى كبر واكتملت رجولته ويلزم تزويجه لأنه صار يغازلها وتحاشيا لما هو اخطر كان الرجل يسمع ويهز رأسه وينفى من دماغه اى دفاع مباشر أو غير مباشر عن مشاكسات المنصور المغلفة بكلام له اكثر من معنى يقوله للغندورة،

فتفسره وتبوح به للحاج لخوفها من السقوط فى الخطيئة معه غصبا عنها وهو شاب عفى كما يقول عن نفسه ساخرا من كبار السن، تنصح الرجل وهو ملتحم بها تماما وناسيا كل ما يحيط به بأن يزوج الولد ليحميه ويحميها ويحمى شرفه من وسوسة الشياطين الساكنة فى ادمغة الشاب، ومن يدرى لعلها أم المنصور التى كانت تدفعه دفعا ليفعل أو يشرع فى الفعل الحرام لتصل لغايتها وتطردها من الدار مرة أخرى، لكن الغندورة كانت تستشعر ما يدور حولها من مشاعر الكراهية فتنصح الحاج أن ينسى ماقالته عن المنصور وأن يرجئ مفاتحة ابنه فى اقوالها أو محاولة معرفة مقصده من كلامه غير المفهوم معها حتى لا يظلمه، وتبرر التأجيل انها سوف تتأكد بنفسها فى الأيام التالية من أغراضه الخفية أو عدم قصده شيئا معيبا معها والصبر طيب، فيتبدل الرجل من داخله ويشعر انه قد يفقد لحظات متعته الحلال فى حوارات لا فائدة منها

يداعبها وتستجيب ويتحول الأمر إلى مزيد من السيطرة عليه، ومرة اخرى تعده بخلفة من صلبه لطفل يشبه الغندور بعد عام أو عامين فى أسوأ الأحوال، يتنهد ويندم على السنوات الضائعة بلا خلفة ويتشكى لها من ام المنصور التى تنقصها جرأة الغندورة فى تعاملها مع الرجل، وقد كبست على أنفاسه زمنا طال وطال بلا ثمرة وهو " صاغ سليم " كما يقول الدكاترة، فتهون عليه وتحاول أن تنسيه ما كان وأن تزرع بقلبه أملا جديدا فى مستقبل الأيام، ويشعر بالنشوة ويبدو له انه بتجدد ويعود كما كان شابا عفيا مرغوبا، فتؤكد له انه لا يزال كما يقولون عنه سيد الرجال فى كل شئ وتعيد على مسامعه ما قالته امام اهلها واهله أمام مأمور المركز ومدير المديرية، فيضحك ويصدقها ويحلم بزحمة فى الدار من خلفته وخلفة خلفته، ولعله فى ذات الوقت كان يشعر بالندم على ما فاته رافضا تلك الفكرة التى

صدقها عن أصل عريق تتستر به أم المنصور، مضافا إليها تلك الأصالة وسيّر الأكابر الذين قلّدهم حسب ما كان يراهم ينزلون بضربات الشماريخ فوق رأس كبارهم ليرهبوا الصغار من اولاد الخصوم وكلها علامات للفروسية، ولعله كان يتذكر البنادق والرصاص الذى يقضى على حياة اى فارس فى دقائق يلفظ فيها انفاسه، ولأن الدنيا دوارة كما كانوا يقولون فى الأزمنة القديمة أو ازمنة الغفلة، كان يسرح فى البعيد فتعيده إلى دنياها وتطوف به فى عوالمها وأمنياتها فيتوه معها ويدخل سراديب الحكايات التى تسلب المشاعر وتحوم بها فى المداخل والمخارج لحياة البشر بكل تنوعاتها وتشابهاتها

•••

هامش (٦)

سأحدثكم عن حكاية قديمة اختزنها المنصور فى ذاكرته، وقد رأى الغندورة تسير وحيدة وخلفها والده ماشيا وراء حمارهم على غير عادته ولأنه كان موهوما تخيلها " قمر" فاقترب منه وسأله:

– ماشى ليه يا آبا؟ ما تركب الحمار وأنا اسحبه لحد الدار بيك، الناس ح تقول علينا ايه؟

– حد يستجرى يقول علينا حاجه يا وله؟ يقولوا إيه؟

– هو الغبيط ده فيه أيه يا آبا؟

– فيه اللى فيه، امش غور من قدامى

– مغيّر سكتك ليه يا آبا؟ إنت ح تروّح لوحدك يا آبا؟

– وإنت ح تسندنى؟ قلت لك غور من قدامى

– خلاص يا آبا، انا ح اسبقك ع الدار

– بالسلامه.... بتتلفت على إيه؟

كان المنصور تأمل ملامح الغندورة ورأى وجهها شبيها لوجه قمر التى جاءت لتجمع عناقيد العنب صبية منذ ثلاث أو اربع سنوات قبل أن يكتمل عودها وتصير انثى، ويومها تغير مسار الغندورة واختلف ودخلت زقاقا ضيقا على مهل والحاج يسعى خلف حماره مشيا ليدخل الزقاق والمنصور حائر يدارى نفسه كيلا يراه أحد، لكن وقوفه بدا له حمقا لأنه سيلفت انظار العابرين ويسألونه عن وقفته فى منطقة لا تخصه، فتسحب من المكان وذهب إلى دارهم، وتحيّر إن كان يحق له أن يحدث امه أو يدارى عنها ما رآه، وعندما سألته عن أبيه جاوبها بعد تردد:

– أصل انا رحت الغيط من وسط "التراكيب"،ح تلاقيه راجع م السكة الزراعية

هزت رأسها ولم تعلق عليه، وربما فكرت فى طبيخها الساخن الذى جهزته للرجل، متمنيه أن يعود قبل أن يبرد وهو عاشق للأكل الساخن،وقد حاولت ان ترضيه وتخفف عنه ما كان يبدو لها هما ثقيلا لا يبوح لها بأسبابه رغم انها تود أن تشاركه فى معرفته ومحاولة رفعه والخلاص منه

فى صباح اليوم التالى راح المنصور للمنطقة الفاصلة ما بين البنايات العتيقة والجديدة، ورأى قمر وقد تحولت لصورة مكررة من تلك التى دخلت الزقاق الضيق، وأشار لها بيده، وربما لم يتأكد أنها رأته أو ردت على اشارته فسأل نفسه لماذا يملك الشلبية كل هذا الجمال؟ برغم أنهم فى نهاية المطاف سلالة وافدة مجهولة الجذور؟ لكنه خرج من المقارنات وتفكر فى أمر نفسه وامكانياته ليفتح لها بيتا ويصير زوجا وابا لأطفال مثل اولاد عمه وهم فى مثل عمره، يسأل نفسه عن الأسباب ولا يجد تفسيرا أو ردا، ولعل سكوت الأب وعدم تفكيره فى الرد عليه بينما لو حدث أمه فى الأمر لنال جوابا يرضيه، ولعل المنصور سأل نفسه عن أسباب صمته أو عدم جسارته

على طرح سؤاله الحرج على والده لكنه لم يجرؤ على مفاتحته أبدا، وسوف أحاول أن استعيد مربع النسيان كى أزحزح هذه الحقائق بديلا عن السعى وراء الشكل دون المحتوى.

●●●

كانت الفروق بين الزمنين اللذين عاشهما الحاج إبراهيم عبئا لا يحتمل لأنه كابد خلالهما من آفتين لا علاقة بينهما زودتا مواجعه، أولاهما مرحلة حياته التى بدت له عسيرة قاسية وهو بين أهله وناسه، فقد وهبتهم الحياة ما كانوا يتمنونه وأكثر لسلالة عريقة تعتز بكثرة عيالها وصلابة الخلفة مع الحيز المملوك "حوضا " كاملا من الأراضى الزراعية الموروثة الذى يتسمى باسمهم رغم تفريط البعض منهم فى أجزاء منها غفلة أو عوزا طارئا لم يكابدوه أبدا، كانت آفته الأولى تتجلى له فى عدم تكرار خلفته بعد " المنصور " مع حلمه المشروع المدعوم بسعيه المتواصل ومحاولاته المتكررة عند الأطباء دون جدوى،ومتحاملا على نفسه فكر أن يبوح برغبته فى طلب واحدة من بنات العائلة تكون زوجة أخرى، لكن المنصور الذى أصبح رجلا بحساباتهم جميعا كان أمامهم ولو زوجه فسوف يجلب له خلفة كافية حسبما قالوا ايامها مؤكدين انه سيعوض ما فاته بخلفة تملأ داره بأحفاده، يذكرونه أنه كبير الفرع ولا يحق له أن يتشكى قائلا فى لحظات يأسه أن فرعهم مال بهم برغم انه سيبقى ثابتا شامخا لا تنزاح دعائمه، بل تتسلل إلى عقله لتوسوس له أن المنصور لن يفعلها وسوف يرث نفس الآفة ليؤكد بوار الفرع كله، ولعل تردده عن التفكير فى تزويج المنصور كان خوفا من تأكيد ظنونه بعقم فرعهم كله، ولو تأكد وصار واقعا بعد أن يزوجه وينتظر مع الناس خلفته بلا جدوى، فساعتها يتأكد له ولهم انه ورث نفس الآفة عنه، وربما تتوارى علامات الشماتة فيهم زمنا ثم تظهر على وجوهم فى جلساتهم

التى تطول حول دكة النورج وهم يتحدثون بقصد أو بغير قصد عن السلاله العريقة فيدور عقله فى المتاهات، وباحثا عن مخرج لازمته وقد طالت ولم يعرف لها حلا شافيا وكأنها علّة تأكدت وقد تخطى الخمسين من عمره، ووصل المنصور لنصف عمره بالتمام والكمال، وربما يتذكر أنه تأخر فى خلفته لست سنوات متواصلة دونما علامة أو إشارة تبشره بحمل زوجته وبنت عمه بحسابات من عاصروهم، ولإبراء ساحته وإخراجه من دائرة الشك راحوا يبحثون عن العلة عند سعيدة فدوخوها عند كتبة بالتحويطات والأحجبة وحفلات " الزار " برغم أن ذلك لم يسفر عن شئ مفيد، ولأن سنوات خصوبتها بحساباتهم كانت تتناقص وتقترب من منطقة اللاجدوى أو انعدام الأمل فى أى عطاء جديد، بدا له أن الاستسلام للحالة حلا، لكن الكامن فى الأمنيات ظل يحوم فى خيال الرجل طيفا يتمناه وكأنه لم يجرب الأبوة ابدا

لكن الزمن الثانى والأكثر سخفا هو تلك السقطة التى احس بها وكابد مع نفسه قبل ان يواجه سخط اهله وناسه على فعلته، وربما كان الأمر عنادا دفعه دفعا للموافقة على عقد قرانه عليها وقد ظهرت علامات الحمل واضحة، وكانت الشكاوى المكتوبة باسم مدير المديرية ومأمور المركز وجهات غيرها بالحكومة تدل على ترتيبات مبيته له فى جلسة الصلح المدبرة من مدير مديرية ومأمور المركز وأكابر الناحية وحدث ما حدث وسمع ما قالوه على لسانها امام الكل، وقد كان من الممكن أن يطلب طبيبا شرعيا ليكشف عليها ويكتب ما يراه حقيقة لا يعرفها غير الرب الخالق لمن وهبه الرب علمه ونور بصيرته؟ كان ممكنا ان يفعلها بلا خوف أو قلق من النتيجة المتوقعة، لكنه تردّد وراجع نفسه وقبل أن ينفذ وصية مدير المديرية وبعقد عليها قرانه، ولعلها كانت من اصعب اللحظات التى عاشها بين اختيارين احلاهما

مر، ربما كان اختيارا خاطئا اعتبره قدرا مكتوبا له و " الماعون " التي إرتاب فيها تأتيه لتقدم ما يمكن أن يكون خلفة مكتوبة باسمه، جاءته بصدفة مؤكدة، فالحامل للبذرة المنسوبة إليه كانت تتأكد عند تلك البنت الجسورة التي زرعت أمله الوهمي مرة اخرى في دنياه الزائلة برغم الأمنيات التي ظلت تتزاحم في خياله ولا تتحقق، هل كان اسيرا لمصير تعس حسبما كان يسمع الهمسات أو يرى النظرات التي صنفته في خانة أنصاف العجزة بحساباتهم على الأقل، هل يمكن أن يتواطأ الإنسان حتى ولو كان مصابا بعاهة تؤكد العجز أو العاهة التي تجلب له بحساباته عارا فحاول أن ينكره وينفيه تماما عن نفسه بلا جدوى، فهل يمكن لمثل هذا الإنسان ان يتواطأ على نفسه كما فعل الحاج إبراهيم؟ موهوما بأنه عاش مأزقا لا مخرج منه بغير " قشة " رآها فصار يسبح ليتعلق بها لينجو من الغرق؟ واعياً أنها مجرد قشة لا نفع منها وبلا قدرة على الإنقاذ، فهل يمكن أننا ظلمنا الرجل ورددنا اكاذيب خصومه؟ تختلط الأمور في العقول دونما شكوك، ولو اختلفت عقولنا في بعض أمورنا البسيطة فيلزم أن نراجع انفسنا، ومن الممكن أن نقبل خلافاتنا مع الآخر في الأمور الأخطر التي ربما لم تخطر على بالنا أبدا

وقد بدّل الرجل سلوكياته بتعنت وعناد فصارت ردود افعاله غير متوافقة مع المتوقع منه بحسابات الكل، لعله لم يفكر أبدا في افتعال الصراع مع أم المنصور التي تباعدت باختيارها عنه وعنها، معزولة باختيارها دون أن يفكر في عزلها احد، لكنها اعتزلت كل ما كان يبدو لها مشاركة في امور كانت تخصها وما عادت تخصها وهي في دارها شكلا وقد تنازلت عن إدارة معاش الدار، أراحت نفسها بجساباتها لأنها كانت تعرف كل التفاصيل بخبراتها، وربما تشككت الغندورة أن المنصور يراقبها في بعض الحالات

وأنه تحول إلى عينين كاشفتين ترقبان كل التفاصيل لما يدور حوله فى دارهم، ليتستخلص ويرصد ما يمكن ان يكون انحرافا أو خروجا عن الخطوط المستقيمة التى لا يلتفت إليها الحاج ابراهيم المشغول بالغندور وكأن الدنيا من حوله صارت أكثر امنا وأكثر متعة والغندورة تزرع بقلبه الأمنيات فى مزيد من الأبناء والخلفة فيواصل أحلامه أكثر ويلاعب الغندور طوال الوقت المتاح، وكأن وقته منحة تلقاها من العمر الذى بدا له أنه تجدد وطال من اجل الغندور والغندورة، ومعتمدا على المنصور ليدير كل شئون الزراعة وجنى المحاصيل أو سقايتها وتجهيز الأرض لوضع البذرة تمهيدا لطلوع ثمارها على النحو المتميز، فيعطى للأرض جهده ويكيد الغندورة لو نال اعجاب الرجل أو تباهى به امامها أو أمام زائر من اهله بما أنجزه

لكن الغندورة لم تكن خصما هينا بعد أن سيطرت بخبرتها على مشاعر الرجل وتأكدت أنه يغار عليها فى المناسبات العابرة حتى لو كانت حوارا مع غريب عابر أو بائع متجول يعرض بضاعته تحاول ان تخفض سعرها ببسمة أو بهمسة، فكان يعتب عليها بكلمات غاضبة وربما يزيحها ويأمرها بعدم الكلام مرة اخرى مع الغرباء، وصولا لجيرانه وبعض أقاربه من الشباب وربما كان فى الأمسيات يعتب عليها ويعاود تحذيرها وتذكيرها بأنها زوجته ومحسوبة على اسمه فيلزم عليها ان تحافظ على هيبته، يطالبها بأن تخجل من أى تصرف يضعها فى خانة الشك ولو من بعيد، فتطاوعه وتتأسف له وربما تقبل يده لأنه يحميها ويسترها ويأويها فيزيد إعجابه بها، ويرى أن طاعتها درع لحمايتها وحمايته من المخاطر التى يتخوف من حدوثها حسبما كان يقال له مباشرة أو غمزا ولمزا، ولعله استراح لطاعتها وطلب منها ان تبوح له بأى عبارة تتعرض لها من الجيران أو الأقارب، صغيرهم أو كبيرهم فتهز رأسها علامة الطاعة الكاملة وتعاود تقبيل كفه الممدود وهى محنية له،

ويربت عليها ويغفر لها ما كان يحوم حولها من سوء السمعة غير مدرك ما يدور فى عقلها من تدابير تمكنها من الهيمنة على الدار بعد أن تخليها عن المنصور وأمه، وكى يتحول الغندور إلى بؤرة اهتمامه الوحيدة بترتيباتها التى كانت تدبرها وتسترشد بأهلها وقد صاروا اكثر جرأة وتوددا للرجل الذى كان يرحب بهم من اجلها

•••

بدأت الغندورة فى زراعة الشكايات المغلفة بشكوكها المتكررة من بعض افعال المنصور وكلماته التى لم تتمكن من تفسيرها ولا تصنيفها بغير الإرتياب فى أغراضه، وقد كانت ترسم للرجل صورة خصم لم يتوقعه يسعى لتأكيد فسادها لينتزعها من دارهم مرة أخرى، كان يتسمع باهتمام زائد ويحاول أن يترجم الكلمات التي تقولها، ومستفزا يلعنه ويلعن صنفه ويعدها بأن يفاتحه ويحاسبه على ما قاله إذا كانت للكلمات معان أخرى، فترجوه بألا يفعل إلا بعد أن تتأكد بنفسها انه كرر الكلمات أو الإشارات أو اللمسات، وقد يتظاهر بأنها حدثت غصبا عنه لكنها لم تصدقه، وربما دسّت فى خيال الرجل أن للحاجة دور فى تحريض المنصور على افعاله لافساد العلاقة بين أبيه وبينها مرة أخرى بهدف طردها من الدار، لكنها تعيش فيها من اجل الرجل ولتكمل تربية ابنه الغندور الذى صار يكبر ويبشرها برجل لم تنجبه ولادة فى الكفر كله، يتحول المنصور بلا مقدمات لمنافس لا يؤتمن يحاول اختراق حدوده لأنه يتجاسر ويحاول أن يخون الأب أو ينغص عليها وعليه، فيشعر بالغيرة عليها ويعشقها أكثر، وربما يستعيد ما اشاعه الكل عنها بأنها كيان طيع وسهل، ولو افلح معها أو حتى تأكد أنه افلح فإن المنصور يمكن أن يبعدها عنه بعد أن منحها اسمه ومنحته طفلا تمناه بكل مشاعره، يتوه الرجل ثم يسأل نفسه إن كان مقبولا بحساباته أن يواجه

رجل ابنه أو يفاتحه فى تلك الأمور عنها وكأنه يعترف أنه يشعر بالغيرة عليها من ابنه، لكنه يكتم الكلمات ويمنع نفسه من مواجهته بها علنا ويختزنها بعسر رغم شكوكه، وقبل أن يتأكد أنها حقيقة تؤكدها الغندورة كما قالت له أكثر من مرة، لتكون المواجهة تهديدا بطرده وتحذيرا مباشرا له ومبررا يليق بما ارتكبه من إثم فى حق أبيه إن كان قد ارتكبه، وهو بطمع فيمن لا يحق له ان يطمع فيها حسب الشرع والأصول، والرجل يتحامل على نفسه ويؤجل رغبته فى النطق بتلك الكلمات المخزونة فى دائرة شكوكه التى زرعتها الغندورة ضده، لكن الرجل استبدلها بمواجهة المنصور بكلام يمكن أن ينطق به يكون متاحا ومعبرا عن حالته فى عمله وعنايته بزراعته، وربما يتصيد للمنصور غلطة أو خطأ فى متابعة خصوبة ارضه أو قلة اهتماماته بمواشيه، فيسبه ويلعنه وينغص حياته، ويتهمه بالخيبة أو عدم القدرة على رعاية الأرض، وقد يتهمه بأنه سيتسبب فى نقص محصولهم ومعاش الدار الذى كان محورا لشكاوى زوجة ابيه متناسية تماما ما كانت تسلبه قى سابق الأيام وقد تسبب مرة فى طردها من الدار زمنا، يمكننا ان نقول إن الرجل تاه وعيه، أو استبدل خصومته مع زوجته بنت الغرباء بخصومته مع ابنه ولم ينس أمه التى كفت عن نزول وسط الدار عمدا بعكس ما قالوه مسبقا يوم صلح الغريبة، وكأنما انطمست كل الوعود وتحولت لمعكوسها تماما

ولعل الغندورة وسوست له بأن يهدد المنصور بالطرد من داره، وعندما زادت تهديداته عن قدرته على الاحتمال سأله مستنكرا:

– هى بقت لبانه ف بقك يا آبا؟ عايز تطردنى ليه؟

– إنت عارف وأنا عارف ، وأم الغندور عارفه

– عارفين إيه؟ أنا ح افوت لكو الدار، بس عايز أعرف ليه؟

- قوليله، ولا أقوله آنى؟

أطرقت بحياء مفتعل وحملت الطفل الجالس بجوار ابيه ورمحت متباعدة، دخلت المندرة وأغلقت بابها وراءها فامعن الرجل فى وجه المنصور باستغفراب قبل أن يفاجئه بالسؤال الحرج:

- طمعان ف مرات ابوك يا واطى

- أنا يا أبا؟

- امال خيالك، بتتحكحك فيها ليه؟

- أتحكحك فيها ازاى يا آبا؟

- إنت ح تناطحنى ف الكلام يا منصور؟

- ما عاش اللى يناطحك يا آبا

- عايز منها إيه، وبتقول لها كلام فارغ ليه؟

- ما تنده عليها يا آبا، خليها تقول قدامى

- إنت تخرس خالص

- ح أخرس يا آبا

- وغور من قدامى دلوقت

- أنا ح اغور م الدار دى على طول يا آبا

قالها وصعد درجات السلم متعجلا، لملم بعض ثيابه ونزل بها، وقف أمامه مستكينا ثم هز رأسه وباح بيأس تام:

- ح أسيب لك الدار يا آبا، عشان ترتاح منى

- وناوى تغضب عند مين من إخوالك؟

- مش ح اغضب عند حد يا آبا، ورزقى على الله

خرجت أم الغندور حاملة طفلها، ناولته لأبيه وتعلقت بالمنصور وراحت تهزه بغل كامن وتسأله باستنكار:

– عايز تفضحنى يا منصور؟ عايز تفضح مرات ابوك، عايزهم يقولوا عليّا إيه تانى؟ يقولوا خليت ابوك يطردك م الدار؟

– ماسكه فيا كده ليه؟

– عشان تقعد ف دار أبوك ، بكفايه فضايح، هو اللى انت عملته شويه، بس انا مسامحاك، يمكن ما كنتش تقصد، يمكن ما كانش يقصد يا حاج

كانت الحاجة سعيدة قد نزلت وجلست على سلم الدار تتأمل صامتة ولا تشارك بكلمة أو إشارة كأن الأمر لا يخصها بينما الرجل فى حالة غياب وتوهان فى ابنه الذى اتهمته زوجة ابيه بالخروج على المألوف معها، وإعلان مسامحته ورجاءها لأبيه أن يعفو عنه حتى لا تنتشر فضيحة جديدة، والمنصور يشير لأمه ليطمئنها:

– ما تقلقيش عليا يا أمه، ما تقلقيش

– ح تروح على فين يا ابنى؟

– رايح مصر يامّه، مصر براح و ح تساعنى

– إستنى وصلنى ف سكتك؟

– يوصلك على فين انتى راخره؟

– ح أقعد ف دارى، واسيبها لكم مخضره يا إبراهيم

قالت عبارتها الأخيرة وهى تنهض واقفة وتصعد درجات السلم، والحاج ابراهيم حائر وتائه ربما لأنه تأكد من اندفاعه ضد المنصور بمثل ما شعر بعجزه عن الرد على بنت عمه وزوجته التى أعلنت أنها ستغادر الدار، وقبل ان يفيق لنفسه سمع حفيف ثوبها نازلة درجات السلم فى يدها صرة ملابس تناولها للمنصور ساكتة دون كلام وقد توجه متعجلا إلى باب الدار المفتوح دون أن يلتفت لأحد، كانت أمه خلفه صامتة دون أن يعترضها أحد وبحساباتها كان هذا الخروج بلا رجعة ، وتنهد الحاج ابراهيم قبل أن

يخطو نحو باب الدار ويسرع بخطواته ليصل إليها ويمسك بها ويهزها هزا عنيفا:

– إنتى طالعه ليه؟ حد مسّك بكلمه؟ ارجعى الدار

– مش ح ارجع يا إبراهيم

– يعنى ايه يا سعيده؟

– سيب إيدى يا راجل

– براحتك يا أم المنصور

وتراخت قبضته وابتلع ريقه ثم أسبل عينيه وبدا لها انها رأت فيهما مشروعا لدمعتين تتأبيان على النزول، وبخطوتين للوراء اقترب من باب الدار ودخل صامتا وجلس على دكة النورج فوضعت الغندورة الطفل على حجره، لكنه ازاحه برفق ولكن بحسم، فتراجعت، وتباعدت، وشعر بمرارة الوحدة داخله لكنه لم يكن جاهزا لأن يخطو خطوة للأمام ليبحث عن حل، لعله فكر فى الخروج من الدار ليبحث عن المنصور ويعيده ولو بالقوة، لكنه تردد ولام نفسه على التفكير على هذا النحو فى اواخر سنوات العمر

●●●

عند باب دارها ناولها صرة الملابس ساكتا فاستغربت وسألته وهى تتناول الصرة وترميها بجوار قدمها اليمنى:

– بقى كده يا منصور؟ مش عايز تدخل دارى؟

– مش عايز ارجع دار ابويا، وخايف ييجى ويرجعنى بالعافيه

– يعنى ح تسافر بصحيح يا منصور؟

– أيوه يا أمه، ح اسافر الليله

فهزت رأسها وفتحت الصرة ثم اخرجت الصندوق وفتحته بيديها، وتناولت مبلغا ملفوفا على نفسه فى دائرة تملأ الكف، وقالت:

- طيب، خد دول، الغربة ما لهاش أمان
- كتر خيرك يا أمه، معايا فلوس
- خد من امك، وابقى رجعهم لما ربنا يفرجها عليك
- أنا ح اتصرف يا أمه، مش عايز
- خد يا منصور، خد من امك
- كتر خيرك يا امه، كتر خيرك

مد يده وامسك بيدها الممدودة نحوه بأوراق نقديه قدمتها له فأخذها ولفها ليقبلها عدة قبلات على ظهر كفها متماسكا وعاجزا عن الكلام، وبخطوات متعجلة كان يتباعد عنها وصورته تنكمش وتصل لحيز ضئيل يصعب عليها متابعته، وكان الشيخ برهان يقف قبالتها مستغربا لثبات نظرتها نحو الفراغ بحساباته:

- خطوه عزيزة

قالها فالتفتت إليه وعاودت تركيز نظراتها على المكان الذى لم يعد يظهر فيه أى أثر للمنصور، فتنهدت ثم تراجعت للوراء خطوات حتى عبرت عتبة الدار، وقالت لبرهان بحياد:

- إزيك يا برهان؟
- كويس، أمال كنتى بتبصى على ايه؟ دا السكة فاضيه
- المنصور ابنى كان ماليها،، ولما بعد ما بقيتش شايفاه
- والمنصور رايح فين دلوقت؟
- بيقول انه رايح مصر
- مصر؟ ورايح مصر يعمل إيه؟ دا ابوه ح يزعل ، هو فيه حد غيره ح يراعى الأرض؟
- أبوه طرده يا برهان

– طرده؟ بتقولى طرده؟ إزاى؟

متمهلة وصلت لباب المندرة فدخلتها ووضعت صرة الملابس فوق الكنبة وكان برهان متحيرا متخوفا أن يسألها إن كانت غضبت ولّت ثيابها أو يلوذ بالصمت لتقول ما هو مخبوء، لكنها جلست ثم هزت رأسها وباحت برغبتها فى أن يساعدها مع رجال العائلة الكبار من اولاد العم ومن الغرباء ليخلصوها من الحاج إبراهيم، بدا مدهوشا ومنزعجا لما سمعه، لكنها عاودت كلامها وطالبته بأن يكتفى بما قالته وأن يؤجل استفساره للقاء آخر فهز رأسه وخرج من باب الدار وسحبه خلفه، لعلها شعرت بارتياح وتنهدت ثم قامت لتضع صرة الثياب فى دولابها، لعلها شعرت بالجوع دون أن تفكر فى وجبة عشاء يصعب الحصول عليها إلا بطلبها ولم تكن تعرف أو تريد التغلب على جوعها، ومتحاملة على نفسها طلعت درجات السلم وتمددت على السرير وربما نامت وقتا لم تحسبه وربما لم يطاوعها النوم حتى سمعت طرقات بابها المتواصلة، فقامت من مرقدها ونزلت السلم وفتحت الباب لترى أصغر بنات برهان واقفة، على رأسها سلة صغيرة عليها غطاء من القماش وكانت تبتسم لها ببراءة وتشير للسلة التى يلزم أن تنزلها من فوق رأسها، فتناولتها أم المنصور ووضعتها على الأرض وهى تشير لها:

– تعالى، إنتى شايله السبت ده ليه؟ ومودياه لمين؟

– ليكى يا عمتى، اخواتى كانوا نايمين، وامى كانت عايزه تجيبه لك، قلت لها، أنا ح اعرف أوديه عشان اشوفك

– شاطره يا سعيده، ما هو انتى إسمك على إسمى

– ح تخلينى أبات معاكى بقى؟

●●●

هامش (٧)

فى يوم رحيله كانت قمر تطل من النافذة كعادتها فرأته متعجلا ومطرقا ينظر إلى الأرض، لم يلتفت كعادته بحثا عنها مثل كل عبور خاطف، ربما أشار بكفه وكأنه يذكرها بعناقيد العنب التى جمعها منذ سنوات ونقلها لدارها دون أن يأخذ ثمنه، وكم فكرت وتحيرت ثم سألت نفسها إن كان يحق لها أن تغضب لأنه عبر أمام باب دارهم ولم يرفع عينيه ليراها بمثل ما كان يفعل كلما عبر؟ وقالت لنفسها إنه حر فى نفسه لكنها احست أن خطواته لم تميز الأرض غير المستوية تحت قدميه، وتمنت لو تمكنت أن تحذره بصوتها من سقوطه، ولعلنى شعرت بدقات قلبها القلقة المتسارعة دونما مبررات افهمها، لكنها صارت بعد ذلك علامة لى أو إشارة لأشاركها القلق أو الفرح أو الغضب أو الحزن أو بأى رد فعل يتلاءم مع ما رأته أو أحست به ومس مشاعرها، كنت فى ذلك الوقت طيفا حائرا فى البراح الممدود بين القاهرة التى توجه اليها، والكفر الذى كانت تعيش فيه مع ناسها من تلك السلالة التى تنتسب لها، وقد اشتهرت بجمال شعرها الذهبى الناعم مع العينين النادرتين بخضرتهما الصافية المتألقة

لابد أنها سمعت حكايات الغندورة التى دبرت علاقتها بالرجل، فتزوجها خوفا أو حرصا أو علاجا لمشكلة طالبه مأمور المركز ومدير المديرية بحلها وقد سرحت الحكايات وتطايرت اخبارها فوصلت لأرض البرارى البعيدة، ولعلها من داخلها كانت لا ترتاح لتلك " الغندورة " ولا تقبل حتى أن تسمع سيرتها، لعلها كانت تصدق المثل القائل " اللى من دمك يا يهمّك،، يا يزود همّك " فكانت تختار أن تتباعد عن زيادة همومها لأنها من السلالة الوافدة، وربما كانت محط أنظار كثرة من شباب ينتسبون لناسها لكنها لم تكن قانعة بأن تتعامل معهم لأسباب متنوعة أهمها ضيق ذات اليد، أو الثراء المفاجئ مجهول الأسباب كما كان ابوها يقول لها فى ساعات الحوار

المفتوح عن أمنيات وأحلام مخبوءة بقلب البنى آدم، لكن المنصور كان يسكن ذاكرتها مرتبطا بالغندورة وحكايتها مع الحاج ابراهيم والد المنصور. ولأن سيرة الرجل كانت فى خيال الكل صورة مغايرة لمن هم فى مثل سنه، وميراثه كان مطمعا لمن يسعى ليحصل على أى شئ بأى طريقة، وربما لأن أصابع اليد الواحدة لا تتساوى طولا وسمكا، كان المنصور بحساباتها ضحية للغندورة فيستدر تعاطفها معه رغم انه لا ينتمى لأولاد شلبى.

●●●

على نحو سريع تبدل كل شئ حول الرجل وهو يجلس متحاملا على نفسه ليسمع عبارات اللوم والعتاب المتتابعة بعشم الكبار من ناسه لأن بنت عمه وأم ابنه الوحيد هانت عليه كما هان ابنه عليه، كان يختزن الردود على استفساراتهم ويستعيد ما جرى يوم خرجت من الدار ويتخيلها وقد لملمت ثيابها واشياءها الخاصة فى صرة سلمتها للمنصور وخرجت أمامه، وكان عليه أن يكابر أو يرضخ لمطالبهم لكنه ركب دماغه وعاند مشاعره بينما يعلن أنها خرجت من الدار من غير اذنه، وأن المسألة كانت لا تخصها لكنها ادخلت نفسها طرفا فى صراع لايخصها:

– هو المنصور مش ابنى يا ناس، الاقيه مخالفنى ومعارض كل كلمه أقولها له؟ وأسكت؟

– ما تسكتش، بس ما تطردوش م الدار، هو راح فين؟

– أنا ما طردتوش غير لما رد بكلام ما يصحش يتقال قدام أبوه، إنتو ح تصغرونى على كبر؟

– إحنا ما لناش دعوه بابنك يا حاج ابرهيم

– أمال جايين بربطة المعلم تكلمونى ف إيه؟

– أختنا ليها اهل يترد عليهم لو غلطت، بس باين عليك نسيت، وزى ما دخلنا بالمعروف، ح نخرج بالمعروف

– هى اللى باعتاكم؟ طلاق بالتلاته ما تدخل الدار بعد كده، ومش ح اطلق، خليها قاعده ف وسطكم زى قرد قطع

– إنت بتخوفنا يا إبراهيم؟ دى آخرة صبرنا عليك؟

– لا بخوفكم ولا تخوفونى، شيل دا من دا، يرتاح دا من دا، مش إنتو إللى قلتوا كده، فرجونى بقى ح تعملوا ايه؟

– بنقول تطلقها، وتبعد روحك، وتبعّدنا معاك عن الفضايح

– ألف سلامه يا رجاله ، نورتم

قالها بعد أن نهض واقفا وكأنه يطردهم من داره بقدرة وغضب، قاموا وهم خمس قامات تتساوى مع قامته دون أن يعلقوا على ما قاله وتحركوا خارجين من المندرة نحو باب الدار فسمع صوته وهو ينسك بعنف، تحفز غضبا وأوشك أن يسب ويلعن من أغلق الباب على هذا النحو،لكنه لم ينطق حرفا وجلس مكانه تائها ومحبوسا فى الحيز الذى بحوطه بأربعة جدران شعر بأنها تزحف ناحيته على مهل، لعله فر من المكان أو فر من نفسه باحثا عن الحيز البراح ليحتويه ويتوه فيه فخرج وتوجه للسكة الزراعية وسار رافعا جبينه متعاليا وجاهزا للعراك لو صادفه خصم أو خصوم من القدامى أو المحدثين، ربما كان وقت الغروب بداية المشوار لكن النهاية كانت فى فجر اليوم التالى وهو يسمع صوت المؤذن صافيا وداعيا عباد الله للصلاة وهى خير من النوم، فلبى النداء وصلى بينهم فجر يوم جديد، وقد إندهش كل من شافوه داخلا مسجد الكفر التحتانى، لأنهم لم يعتادوا رؤيته أبدا فى صلاة الفجر، ولعلهم دعوا له بالهداية وقبول الصلاة من المولى جل جلاله

●●●

خلت الدار عليه مع الغندور والغندورة وقد سكت بابها فعزلته عن ناسه وأهله وانفردت به، كانت تناغشه لو أحست أنه سكت أو سرح بخياله بعيدا، وكان يستجيب ويتناسى ما جرى له أحيانا فى حضنها، عارفا أنها لعبة حمقاء يمارسها برغم انتقادات اهله لحسابها وحدها، وقد فاتت الأيام والأسابيع والشهور دونما حس أو خبر عن المنصور، وربما راجع الرجل نفسه وعاتبها على تهوره معه واندفاعه كما باح لروحه قبل أن يحوم اهله وناسه حوله من جديد، يشعر أنه اندفع غصبا عنه ويعاملهم على استحياء لكنهم يهوّنون عليه الأمر كله، بل إن بعضهم يتطوع بأن يسعى للصلح بينهم جميعا وإعادة المياه لمجاريها بداية من أم المنصور، فكان يهز رأسه متمنيا مستجيبا، عندما حدثوها رفضت وسخرت منهم وذكرتهم بابنه الذى رماه فى الغربة بلا سند ولا مدد ولا رعاية من أحد، وطالبتهم بالحاح أن يخلصوها منه فاعترض بعضهم ووافق بعضهم على الفكرة، كادت العائلة الكبيرة تصل لحالة انقسام لم تحدث فى تاريخها، لأنها كانت المرة الأولى التى تطالب فيها امرأة الطلاق من زوجها، وهو ابن عمها فى نهاية المطاف مضافا إلى ذلك انه أب لابنهما الوحيد، وصحيح انه طرده من داره وتركه ليعيش مغتربا وانقطعت اخباره عن الجميع، لكن اعادته ممكنة لو خلصت النوايا وتسامح البعض مع البعض

كان الرجل أيامها يشعر بالمرارة لكنه لم يبح لأحد منهم كلما التقى بواحد ممن توسطوا لإعادتها، ولو الح احدهم بما سمعه منها ولو كان بشكل مختصر ينقلب حاله ويسب ويلعن الدنيا التى ضاقت حوله وصار يشعر باكتمال وحدته مع النسيم السارى الذى يعريه فيشعر بالخجل، يتوعدهم ويجتر بخياله فكرة إعادتها إليه بالقوة فى بيت الطاعة كما يقولون ثم يشعر بالسخف من فكرة أن يعيش حياته معها غصبا عنها وربما يفكر

فى كيفية إعادة ابنه المنصور إليه، ولا يقتنع بعودته للحياة مع زوجة أبيه التى اتهمته بمحاولات معاكستها عدة مرات كانت تنفيها بعدها لتبرد ناره ربما، وكأن الغندورة كتبت له سحرا عند ابرع وأشهر من كتبوا أعمالا تسلب العزيمه وتقلل القدرات أو تدارى الوعى بما يفيده أو يضره حسبما اشاعوا، ربما تأكدوا من ذلك بما كان يبدو عليه من فتور يعقبه نشاط متزايد، ولأنه لم يعد يطالبهم بإعادة ام المنصور ولا عاد يهددهم أنه سيعيدها بحكم الطاعة والقوة، وكانوا يستغربون سلوكه عندما يفتح أيهم سيرتها، فيشير بيده ليسكت من فتح الحوار لو بدا له انه يستطلع رأيه فى اقوال سابقة قالها، فصاروا يتحاشون ما يمكن أن يفهم انه محاولة لصلح أو استشكاف رغبته فى العودة لاهله وناسه خوفا من لجوئه للقضاء وسكة المحاكم فيفتضح امرهم أو تتحول سيرتهم إلى توصيفات لا تليق بماضيهم وحسن سمعتهم فى المركز وكل البلدان المجاورة

لابد أنه انكسر وتاه زمنا ما بين رغبتين متناقضتين تتركزان فى شخصيتين تنتميان لزمنين مختلفين، لكن انكساره لم يطل كثيرا لأن الغندورة كانت تلاعب طفلها وتدعوه للضحك فيضحك ويخفف عنه الوجع ويولّد صحوة أمله وهو يرى عينا طفله الخضراوين على نحو نادر، فيحتويه ويناغيه ويناغشه ويحكى حكايات تليق بعمره، يصحبه أحيانا وهو ذاهب لحقله، وحسبما كانت امه تقول يبعده عن حسد العيون الحسادة، فيداريه عن عيون يراها قادرة على الحسد، بينما الطفل ينمو ويمشى ويرمح ويتجاسر لينزل الترعه ويسبح فى وجود ابيه أمامه عند شط الترعة ليحميه لو احس أنه عجز عن مقاومة الأمواج فى ايام الفيضان

●●●

هامش (٨)

تتبدل الأحوال فتتغير النفوس والأفكار الثابتة أحيانا، أو تتماسك وتبقى صامدة لتتخطى المعوقات والأزمات التى تغير المسار، وفى الغربة يتأقلم الإنسان أو يتحامل على نفسه مكرها لأن كل شئ مباح، كالجوع والعرى وعدم الرقاد بارتياح فى القاهرة خلال الأربعينيات، وقد قصدها المنصور دون سواها رغم أنه لم يكن يعرف عنوانا لواحد من سكانها غير الشناوى ابن الشرشابى زميله من أيام المدرسة، والذى غابت اخباره تماما بعد أن ترك المدرسة قبل المنصور بعام، لكنه رآه بعد سنوات طالت فى البندر صدفه فتبادلا الأشواق والذكريات، وقد حدثه الشناوى عن احواله بزهو كعادته وشغله بمخبز بلدى بحى السيدة زينب، وباح له انه كان ينام داخل المخبز ويشعر بالدفء حتى أكرمه الله وأستأجر حجرة قريبة من المخبز، وكان المنصور يهز له رأسه راغبا فى وداعه لأن القطار الذى ينتظره جالسا معه على المقهى المقابل للمحطة يصلها فى الثانية عشر والشناوى المشحون بحكايات عن حياته فى مصر المحروسة وناسها يتواصل بلا توقف، والمنصور يشعر أن الوقت كان يمضى والحكايات لا تنتهى ولا يملك غير مقاطعته ليعتذر ويعبر عن قلقه، لأن والده كلفه لأول مرة أن يبيع عجل جاموس، وباعه وكان يتخوف من ضياع ثمنه أو أن يكون السعره اقل من تقديرات أبيه، فانتبه الشناوى وتعاطف معه وهز رأسه موافقا أن يتركه وحيدا، لينتظر قطاره بشرط أن يزوره فى اى مرة يذهب فيها للقاهرة، وكتب عنوانه على ورقة صغيرة استعارها من تلميذ عابر، واصر أن يحتفظ بها المنصور بجيب البطاقه حتى لا تضيع أو تتوه، ولو زار القاهرة فلا بد أن يلتقى به ضيفا ليرد بعض ما قدمه إليه ايام الدراسة من مساعدات،فى امتحانات الشهر أو حمايته من مدرس الحساب الذى كان يضرب من يخطيء فى جدول الضرب، فأخذ عنوانه ووعده بالزيارة، وحاسب عامل

المقهى على المشروبات التى طلبوها وسلم عليه وانصرف، لكن الذاكرة تستعيد ما يبدو أحيانا مخرجا من مأزق، هل كان عنوان الشناوى الذى ظل بجيبه زمنا لم يحسبه وحدثت فيه أشياء لم يكن يتوقعها أو يتخيلها مثلا؟ على هذا النحو تذكره وقرأه وهو فى مأزق عسير كان يلزم أن يجد له منه مخرجا.

•••

كان عنوان الشناوى فى تلك الظروف اكثر ضمانا من عناوين ابناء العم ممن يعملون فى المدارس أو الوظائف العامة، ربما لأنه تخوف أن يكون لقاءه مع احدهم أو لجوءه إليه سوف يتحول دليلا يسهل لأبيه الوصول إليه، لكنه لم يحتفظ بعنوان واحد منهم بغير قصد لأنهم يأتون كل خميس ويسهرون الليل ويشاركون الكل فى صلاة الجمعة، وقد يشترى احدهم ما يطلبه أى واحد من العائلة مثل ثوب قماش أو ساعة جيب أو جلباب جاهز أو علبة أقلام ملونة أو رصاص أو كراريس بالجملة لتأخذها أم إسماعيل شاكرة لمن ساعدها وجلب لها مطلبها وتدفع ثمنها تدعى لأنه يساهم فى تربية اليتامى وييسر لها سبيل الرزق بديلا عن سفرها إلى طنطا لشراء ما يحتاجه العيال من طلبات ايام الدراسة، وتبيعها بأرخص من مكتبة البندر فتكسب قليلا، لكنه يرضيها ويساعدها على تربية عيالها، ولعل المنصور ليلتها كان قد قرر لمن سيتوجه فى تلك المدينة البراح ، لأن عنوان الشناوى معه وكان الشناوى اكثر أمنا يومها تخوفا من تدخل أولاد عمه واهله من محاولاتهم أن يتدخلوا ليعود لناسه ويصالح أباه، وربما لا يملك معهم أن يعترض أو يمتنع، كان الشناوى اكثر ضمانا من هذه الناحية فرتب نفسه أن يسكن معه ويدفع له نصف اجرة الحجرة ليكون شريكه فيها، على هذا النحو قرر بعد أن أخرج عنوانه المركون بخلفية بطاقته الشخصية وكأنه

دليل لايجوز أن يفقده، وصحيح أن معاشرة الشناوى اصعب من معاشرة ابناء العم ، لكنه كان فى المربع المنسى الذى لا يعرف مكانه احد وقد وصل إليه بالفعل فرحب به واخذه بالأحضان، وطلب منه أن يخرج معه ليعرف مكان المخبز القريب الذى يعمل فيه وقد حان موعد ورديته، فطاوعه المنصور وذهبا للمخبز فأجلسه على مقعد، وبدأ فى حمل أقفاص الجريد المرصوص عليها الخبز بسرعة، كان يذهب ويعود باسما أو يطلب له شايا مخصوصا من عمل الخباز، فيشرب ويحس بالطعم ويهز رأسه تقديرا ثم يشكر الرجل ويشكر الشناوى، وقد كان يحكى حكاياته فى فترات انتظار ارغفة الخبز التى تخرج من فتحة الفرن وتوضع على القفص المعمول من الجريد وكان الكل يبتسمون له ويسألونه لو كان ممكنا أن يفعل مثل الشناوى؟ فيهز راسه ويفكر قبل أن يسأل عن كيفية معرفة عناوين من يتسلمون الخبز فيضحك محمد افندى الجالس خلف المكتب الصغير والذى يتولى محاسبتهم عن كل نقلة خبز تخرج من باب المخبز

يومان متتاليان وهو يجلس بجوار محمد افندى عند باب المخبز، ضيفا يتأمل ما يدور أمامه وحوله وفى اليوم الثالث غاب نفر ممن يحملون الخبز ويوصلونه للزبائن، وببساطة أشار محمد أفندى للمنصور باسما ليقوم ويحمل الاقفاص ويوصلها للزبائن مع الشناوى، وبلا تردد قام ليحمل اول قفص على رأسه ويسير به بحرص وراء صاحبه، ناسيا اصله وفصله وميراثه الضائع وابيه الذى طرده وأجبره أن يعتمد على نفسه، وليبقى مستورا أمام نفسه وأمام كل من يراه، ولم تكن الخريطة التى يتحرك فيها بأقفاص الخبز براحا مفتوحا كما توهم فى اول الأمر بل كانت حيزا محدودا يمكن التعرف عليه بيسر بعد يومين أو ثلاثة بينما يتعقب صاحبه الشناوى، وكان سهلا عليه أن يتعرف على كل الزبائن

كانت بدايته أن يقوم بتوصيل رغيف الخبز الذى يحمله على ام رأسه ويمشى مشاوير تطول أو تقصر لكنه كان يفلح فى نقل ما يحمله لمن يطلبه، وربما كانوا فى المخبز يداعبونه ويحدثونه عن الفروق بين نقل الخبز للزبائن وري الأرض بالساقية، فيضحك ويسايرهم ويمتدح عملهم، لأنهم فى مخبزهم يطعمون الكل ويملأون البطون بالقروش القليلة فيضحكو ويطلبون منه الجلوس ليرتاح فى بعض الأوقات، فيجلس وهو راض عن نفسه وعنهم ويشاركهم الحوارات ويتلاحم معهم وينال مودتهم

لكن الشناوى كان يحكى لهم أحيانا بزهو عن اصله وفصله وناسه الذين يملكون زمام الأرض حول قريتهم والقرى المجاورة، يحسب لهم ما يراه ميراثا خالصا للمنصور فى ارض أبيه فيسمعو الكلام ويتبادلوا النظرات مع محمد أفندى الذى يتنهد ولا يعلق، يوافقهم على ما يؤكدوه بأن أولاد الأصول لا تنقص قيمتهم مهما واجهتهم المصاعب ما داموا يعملون بشرف من أجل لقمة العيش، يتوافق معهم ويرتاح بجوار محمد أفندى الذى لا يتكلم، مهموما وساكتا يحاول أن ينصحه بنسيان ما يقوله الشناوى عن ظروفه التى استجدت وتبدلت، ويشرح له كيف انه لم يكن لديه اختيار غير العمل، مهونا عليه مهنته وقد تعلمها من يحترفها لأنها لا تحتاج إلا للتوازن ليحفاظ على النقلة التى يحملها فوق رأسه أو بين يديه، وأنه كان يقوم بها لمدة عامين بشهادة الكل، ويتمنى له أن يجلس مكانه لو تحققت امنيته وعادت ارضه، كان محمد افندى يأتنس بوجوده ويحكى له حكاية لا تتشابه مع حكايته لأن عمه وضع يديه على أرض ابيه بعد رحيله عن الدنيا، وكان فى الثالثة عشر من عمره، لكن العم تزوج أمه وسيطر على اراضيهم، وظلت كما كانت حقلا واحدا مشتركا بين يديه، فزوجة المرحوم فى عصمته بموافقتها وابنه يعيش معهما، لكنه لم ينجح فى المدرسة عاما فعاقبه

وأخرجه من المدرسة وكلفه بأن يعمل فى الغيط لكنه لم يحتمل ولم يكن امامه غير الهرب من قسوته لبيوت الأقارب، لكن عمه كان يعيده ويعاقبه بالضرب ويكلفه بأن يقوم باعمال لم يجربها لا يحتملها فيطرده ويتوعده بحرمانه من ميراث أبيه وأمه، على هذا النحو كان محمد أفندى يحكى للمنصور عن المصاعب التى واجهته لكنه يتماسك ويتمنى ان يرتاح ويستعيد ما هو حق منهوب فى ذمة عمه، ولعله فى حواراته مع المنصور كان يستكشف الفروق بينهما مع مناطق التشابه ، وبحسب قول محمد افندى كان المنصور مختلفا عنه، ربما لأنه كان يعشق أعمال الفلاح فى الحقل رغم انه تعلم فى طفولته وصباه فى كتّاب الشيخ محمود كما قال لهم الشناوى، ودخل المدرسة الابتدائية وخرج منها بعد أن وصل للسنة الرابعة الابتدائية، لكن والده اخرجه قبل أن يحصل على الابتدائية لأن شغله فى غيط الأب البراح ومتابعة المحاصيل كانت بحسابات الأب تحتاج لوجوده بين الأنفار ليتابعهم بأسمائهم المكتوبة مع أجورهم المدفوعة، وأن يعرفها ويكتبها فى مواسم الجمع والسقاية وحراثة الأرض ونقاوة الزراعات وانتزاع النباتات الطفيلية قد تندس بين عيدانها أو تقلل ما هو متوقع من المحصول السليم فكان يستأجر لها اطفالا يقتلعونها ويحمى زراعته بمبالغ متواضعة ومكافآت عينيه كثمار البلح أو العنب فى مواسمها ليرضى الأطفال ويحببهم فى التعاون معه، ربما كان الحوار العابر مع ابن صاحب المخبز الذى كان يأتى لمحمد أفندى ليعرفه على الإيراد كل ليلة وسيلة تقارب معهم بلا غرض لأنه كان يحكى لهم حكايات عن حياته أيضا بغير قصد

•••

لكنهم بعد شهرين من حمل الخبز وتوصيله طالبوه بأن يجلس وراء المكتب الصغير الذى يخص محمد أفندى، وقالوا بفرح إنه سيعود لبلده

ويستعيد أرضه بعد أن كسب قضية الميراث من عمه وراح ليتسلمها، جلس المنصور مكانه بعد أن ودّعه مهنئا لأنه نال حقه، جلس وراء المكتب الصغير يحسب ويسجل الحمولات التى يحملها احد العمال ويخرج بها من باب المخبز، ويحاسبه بالقرش والمليم وأثمان ما قام بحمله وتوصيله، وفى المساء يسلم الإيراد للحاج محمدين أو ابنه الذى يبتسم لأن المنصور لم يخطئ فى الحساب فيمنحه أجرة اليوم فى نهاية الوردية مقابل جهده وعرقه

كان المنصور يبدو مكسبا للمخبز بكل المعانى لأنه لو نقص خباز أو عامل فى المعجن أو أحد عمال التوصيل كان يدبّر بديله بأسرع وقت ممكن كيلا يتوقف دولاب العمل بالمخبز، ولعلها كانت وظيفة مطمئنة له أو بداية موفقة لصالحه فى غربته، لكن الثبات فى تلك الأعمال ليس مستديما أو سهلا لأن واحدا من ابناء أخ المعلم محمدين تعرض للفصل من مصنع نسيج يدوى بعد سنوات من العمل، وكان عليه أن يبحث عن عمل بعد أن ترك مصنعه غصبا حسبما قال أمامه على نحو يثير الشفقة، ولأن ابن الأخ كان ابا لأطفال وزوجة تدير بيته طلب منهم أن يحمل اقفاص الخبز كى يوصلها لمن يطلبها كأى عامل، ولعل المنصور تفكر فى الأمر يوما واحدا وجهّز نفسه لينسحب من مكانه باختياره تأدبا، وقائلا لابن المعلم أنه لن يستطيع الجلوس وراء المكتب ويدير المخبز وابن عمه يحمل قفص الخبز لتوصيله لمن يطلبه وهو ضحية الفصل من عمله، وربما نال تقدير وحب المعلم وابنه وابن أخيه لأنه تنازل عن مكتبه وبدل مهنته ليعمل بالمقهى المجاور، ليحمل طلبات الزبائن من داخل المقهى للمحلات المجاورة ومن بينها المخبز، ومرورا بتلك المقاعد والترابيزات المفروشة على الرصيف برغم ما كان يحدث احيانا من هجمات رجال البلدية، عندما يحملون مقاعد المقهى وترابيزاته على عربة النقل لتوصيلها لمكاتب البلدية، وإذا لم يتمكن من

التفاهم معهم ليعيدوا فرش الرصيف بنفس المقاعد والترابيزات الصغيرة فإن صاحب المقهى يشير له فى صمت بيده وبتكشيرة على وجهه وهو يأمره:

– مكسوف اقولك، ما تجيش بكره؟

– قول براحتك، انا حاولت اراضيهم ما عرفتش

– الكلامده ما يلزمنيش، لازم تتعلم

– خلاص يا معلم، مش ح آجى بكره

يترك المكان ويتوكل على الله راضيا بنصيبه وطالبا رزقه المكتوب فى مقهى آخر أو مخبز وربما وقف أمام ورشة ميكانيكى سيارات ليسأل الأسطى إن كان يحتاج لصبى يقوم بأى عمل يسند إليه؟ فيطالبه بنقل عجلة أو يجلب له " كوريك " أو شاكوش أو بنسة أو مفك، أو اى شئ يحتاج إليه فيجلبه ويتأمله الرجل ويهز رأسه موافقا ثم ينهض ويتأمله ويهزه عدة هزات ليختبر قوة احتماله ويهز رأسه موافقا:

– يوميتك عندى خمسه صاغ، ولو اتشطرت ح ازودك قرش ولا قرشين، قلت إيه؟

– وماله يا عم الأسطى، أنا من ايدك دى لأيدك دى

فيتحول لصبى ميكانيكى لعدة شهور ثم لصبى نجار أو جزمجى أو ترزى أو أى مهنة تكفل له لقمة عيشه، وإيجار الحجرة التى يسكنها بشارع خيرت بالسيدة زينب بنصف جنيه بالتمام والكمال كل شهر، صارت مسئوليته وحده وقد سافر الشناوى إلى دمياط ليعمل فى اشغال الموبيليا، ولعله استرشد بطريقة الشناوى فى تجريب كل عمل، وربما كان فى حواره معه يتعلم كثيرا عن تلك المهن اليدوية التى لا تحتاج لأكثر من تدقيق النظر وسرعة التعلم، ولعله حكى له عن خبرات لم يتخيلها تعلمها فى أيام معدودة، ومارسها بلا تدبير مسبق أو ترتيب أو حتى تذمر

لكن المنصور لم يملك الجسارة التى اكتسبها زميله القديم حسب حكاياته، لكنه علمه الجرأة ليجرب فتعلم النجارة والحدادة خطفا، وعندما وافق صاحب محل لصناعة الأحذية أن يعمل معه شكره وحاول أن يكون مفيدا ومطيعا لأنه لم يكن يملك أن يختار بحسب رغبته، وهو بلا مهنة ولا حرفة ولا شهادة تتيح له العمل بأجر ومشواره مفتوح لكل الاحتمالات، وبجوار المحل المخصص لصناعة الأحذية ساعاتى عجوز كان يتمنى أن يتعرف على مهنته، فيتفرج على الساعات ويشجع نفسه ثم يدخل ليسأل الرجل العجوز عن انواع الساعات لأنه ينوى أن يشترى ساعة جيب لأبيه، فيبتسم له الرجل العجوز ويسأله عن صناعة الأحذية، فيبوح له بأنه يعمل فيها غصبا عنه ولا يفكر فى مواصلة العمل فى تلك المهنة فيهز الرجل رأسه وينصحه بالصبر، لكن تكرار زيارة المنصور للرجل أو الدخول معه فى حوارات عابرة بينما ينتظر فتح محل صناعة الأحذية جعله يتعاطف معه ويميل لمحاولة مساعدته لو استطاع، فسأله مرة إن كان يستطيع أن يقوم بتوصيل ساعة أصلحها لصاحبها فى عنوان سكنه، فهز رأسه مهونا الأمر على الرجل وعلى نفسه ووعده بأن يوصلها لأى عنوان مكتوب لو اراد، وهز الرجل رأسه وابتسم ثم ذكره أنه من اللازم أن يحب المهنة التى يتعلمها، ولعل حوارا دار بينهما بعد ذلك فقرر خلاله المنصور أن يترك صناعة الأحذيه تماما وتطوع أن يوفر لصاحب محل الأحذية بديلا، فنظر إليه وهز رأسه وطمأنه أن الصبية فى صناعة الأحذية يتواجدون فى كل مكان، ولعله كان يسخر منه ويخفى سخريته لأن مهنة الساعاتى عسيرة على أمثاله وهو فلاح، لكنه لم يبح بفكرته وهز رأسه قائلا له:

– بس تبقى تصبح علينا، قبل ما تدخل دكان عمك " عزام "

– كتر ألف خيرك، يعنى مش زعلان منى؟

– و أنا ح أزعل منك ليه؟ الصبيان على قفا من يشيل

– ربنا يجبر بخاطرك، انا كنت مكسوف منك

–، أنا ح أبقى اوصى الحاج عزام عليك

•••

كان قبول الحاج عزّام وجوده صبيا يقضى المشاوير فى منطقة السيدة زينب والحلمية الجديدة والقلعة فرصة ليتعرف على تلك الأحياء وناسها، ولأن الساعاتى العجوز كان يتمتع بسمعة جيدة لدقته وبراعته وأمانته فى التعامل مع الزبائن، فقد كان قدوة لمن يعمل معه، ربما لم يستخدم صبية يتعلمون منه المهنة لأسباب تخصه لم يبح لآحد بها، لكن المنصور كان بحساباته فلاحا بسيطا وأمينا يمكن أن يثق فيه لأنه اعطاه مفتاح الدكان ليفتحه قبل أن يأتى متمهلا من بيته فكان المنصور ينظفه ويرتبه ولعله تعامل مع المكان بكل أمانة وكأنه يخصه على نحو ما، يتصور أيام حياته فى دار أبيه ويعمل فى حقله مرتاحا وباذلا كل جهده ليكون محصولها محسوبا ضمن افضل المحاصيل فى الكفر وجيران الكفر، فهل تحول الحقل الذى حرم من خيراته إلى دكان الساعاتى؟ ومثلما كان يحافظ على خير الغيطان ليرفع رأس ابيه كان يفعلها بفطرته التى تربى عليها فى المخبز الذى حمل خبزه ليوزعه على من يطلبه، ومكتبه الذى تعامل معه وكأنه أمانة حتى جاء الوقت وسلمه لصاحب النصيب، كما كانت الأمانة صفته الغلابة بورش الحدادة والنجارة والمخابز والمقاهى حسبما كان يستطيع، لعله أحسها مضاعفة فى محل العم عزام، فكان يتجاسر احيانا ويقلد الرجل العجوز ويمسك مفكا صغيرا ليفتح قلب الساعة، ثم يحرك المفك ويضغط به على مسمار بارز فتتحرك عقاربها، يتأكد له انه اصلحها بالصدفة وصاحب الدكان ينظر إليه بمودة ويربت بيده فوق كتفه راضيا، وينصحه بتشغيل

دماغه وأن يتأمل الساعة وعقاربها وتروسها قبل أن يشرع فى الفك أو الربط، ربما تعلم هذه المهنة بسرعة لأنها بدت له سهلة وقد كان يحصل منها على رزق يكفيه ليسدد إيجار مسكنه ويجدّد ثيابه لتتوافق مع من يتعامل معهم من أفندية ومعلمين يخبئون ساعاتهم بجيوبهم، أو يحملونها فى معاصم اياديهم اليسرى وكلها ثمينة وأصاحبها يأتون إليه ويسألونه عن سبب غياب صاحب الدكان، أو عن أجر اصلاح الساعة فيتفق معهم على الأجر بوعيه، ويتمنى أن يرضى صاحب الدكان عندما يعود، وقد فعلها أكثر من مرة وأرضاه فى غالبية اتفاقاته، فكرر له شكره عشرات المرات قبل أن يعترف أن الخير زاد على يديه، ثم يقول له باسما وكأنه يمنحه جواز مروره للمهنة النادرة:

- إنت يا منصور ح تتفق مع الزباين ع الأجرة م النهارده

- بس أنا يا معلم عزام، خايف أغلط وأنا با أتفق مره، وأزعلك

- ما تخافش، حتى لو أنا موجود، ح اقول للزبون يتفق معاك، وح اقول للزباين إن إنت شريكى كمان

- شريكك حته واحده؟ ربنا يجبر بخاطرك

- إنت عارف إنى ما عنديش عيال، ح اقول لهم انك ابن اخويا

- ربنا يجبر بخاطرك بصحيح ، ويوعدك بزيارة النبى

- إيوه يا منصور، حطيت إيدك ع الجرح ، دا أنا نفسى أزوره، وأملس على شباكه، واقرا له الفاتحه وأصلى ف الكعبه

- ربنا ينولك اللى ف بالك يا معلم عزام، إنت علمتنى حاجات، عمرى ما كنت ح اتعلمها

يسكت الرجل ويهز رأسه عدة هزات ويبدو على ملامحة شعاع لم يشهده على وجهه من قبل، فيسرح بخياله ليستعيد ما فاته أو بعض ما فاته، أيامها

كانت زيارة ابيه وأمه للكعبة المشرفة وقبر النبى المرسل علامة الصلاحية ورضى الرب عليهم، وربما كان الحج عند بعض الناس حيلة وغلافا يدارى خطاياهم أو ستارا يستبيحون به ما ينهبوه بالحرام أو بالاحتيال والكذب المقرون بكل الأيمانات المغلظة بنبينا المرسل والأنبياء الذين سبقوه وبعض من زاروا قبر المصطفى عليه السلام لنيل البركة يختلفون عمن كانوا يحلفون بالمصحف الشريف الذين يحتفظون به ليقسموا عليه زورا ودون حياء، لكن الأسطى عزام كان رجلا مؤمنا بفطرته دون إدعاء ولا خداع لتحقيق مصلحته، ولعله توافق مع المنصور تمام الإتفاق دون كلام معسول معلن ووحيدا كان يعيش مع نفسه بلا زوج ولا خلفه، وعندما رحلت ونيسته وشريكته فى الحياة بدت له الدنيا فانية لا أمان لها، وربما تأكد من فناء الدنيا وغدرها بعد رحيلها، وأحس بالوحدة كما كان يبوح للمنصور مؤكدا له أنه لم يبح بمثل هذا الكلام لأحد ، لعله وجد فى المنصور شابا طيعا واعيا وقادرا على العطاء للغرباء بأمانة وبلا مطامع، فكيف يكون ضحية لأب طاوع نزواته وتزوج طمعا فى المزيد من الخلفة كما سمع الحكاية؟ بكل ما تحتويه من التفاصيل التى باح بها المنصور تلبية لرجاء المعلم عزام نفسه فى ساعات الفراغ أو حتى العمل الخفيف:

- إحكى لى يا منصـــور يا ابنى، احكى وسلّينى، وارحم روحك م الكتمان، كتمان المواجع بيتعب القلب، والبوح شفا

- ح أحكى لك يا حاج عزام

- بس ما تخبيش عنى حاجه، واللّا ح تنكسف منى؟

- احكى لك وأنا حاسس انك أب لخلفه، ربنا ح يسعدك بيها، ف الجنه بأمر الله

وقد تحول الأمر إلى ونس مفتقد لطرفين، باح كلاهما بالمخبوء والمعلن، وفى صباح شتوى جاء المنصور سيرا على قدميه رغم المطر المتساقط، كان ينتفض وهو يدخل الدكان ويشكو من برودة الجو فتأملة عزام مليّا

وقبل أن يجلس المنصور ويفتح درج الإيراد لإصلاح الساعات وبيعها، أو ما دفع ثمنا لساعة رغب صاحبها فى أن يبيعها لأسباب لم يبح بها خجلاً على استحياءٍ لكنه اشتراها من الرجل ودفع له ما رآه لائقا دون استغلال لحالته ودونما مطامع، كان عزام جالسا وراء درج المكتب المفتوح يعبث بأوراق ليتأملها، فحسبها المنصور مراجعة من الرجل لإيراد المحل، لكن الرجل أخرجها وفردها أمام عينيه ليقرأها أو يراجعها والمنصور صامت حتى ناولها له وهو يهز راسه، فقرأ ما هو مكتوب امامه بدهشة، لأن الأوراق كانت عقدا لبيع المحل للمنصور حسبما قرأ المكتوب، وتائها وهو يثق تماما فى عجزه عن تسديد عشر معشار المبلغ المكتوب ثمنا للدكان، فتنهد آسفا وهو يناول العقد للرجل، واثقا من عجزه التام عن دفع الثمن المكتوب أو حتى الوعد بأن يدفعه، لأن أبيه لن يساعده مهما حاول، وراح يتنهد مرة أخرى يأسا وقد ناول العقد للرجل:

- يا ريتنى كنت اقدر، يا ريتنى، ما إنت عارف كل حاجه
- مظبوط، عارف كل حاجه
- لما إنت عارف يا حاج كل حاجه،،، وعارف،،،
- عارف يا منصور يا ابنى، عشان كده كتبته باسمك
- لما حضرتك عارف، يبقى ح اسدد تمنه منين؟
- ما هو العقد قدامك، وثابت فيه إن التمن مدفوع
- ازاى يعنى، مدفوع امتى؟ ومين اللى دفعه؟
- أنا ح أسافر الحجاز، عشان ازور النبى

- ربنا يبارك لك، بس سفرك للحجاز ماله، ببياعة الدكان؟

- وأنا ح ألاقى حد يتآمن عليه غيرك؟ ولو رجعت يبقى نقطع العقد، ولو ربنا افتكرنى، يبقى بتاعك برضاى وبموافقتى

- ح ترجع بالسلامه، واللى يحصل ف غيابك ح اكتبه بالمليم

- الأعمار بيد الله يا ابنى، خد العقد وخليه معاك بقي

مد المنصور يده ليأخذ عقد ملكية دكان الرجل خجلانا وعاجزا حتى عن التعبير عن مشاعره، وعازما بينه وبين نفسه أن يحافظ على الدكان وإيراده طوال فترة غياب الحاج عزام، وشاكرا للرجل من كل قلبه لثقته الكاملة فيه، ولعله كان فى تلك الأيام التى تلت قراءته لعقد البيع المحطوط فى نفس درج المكتب يشعر أنه أب نادر الوجود، ولم تطل الأيام وسافر الرجل فعلا لتأدية الفريضة، والمنصور الذى رافقه مودعا يحسب الأيام واشتياقه لرؤية الحاج " عزام "وعودته ليعطيه السبحة التى وعده بشرائها له من هناك لم تصل إليه ولا عاد الحاج عزام ليقدمها له، وقالوا إن الرجل توفاه المولى فى طوافه بين الصفا والمروى فحملوه، وفى ارض الحجاز دفنوه بحسب وصيته بدفنه هناك، فاستحق رحمة الرب الخالق الرازق لعباده الصالحين

•••

هامش (٩)

كان المنصور يحمل بذاكرته معظم تفاصيل حياته فى الكفر، أمنياته ومواجعه ومشاعره متداخلة ما بين اعتياده للحياة التى كان يراها ارتياحا وزهوا موروثا لم يخطر فى خياله أن يتباعد عنه، وأيام القلق التى عاشها غريبا فى بيته مع الأب والأم بعد أن جاءت الغندورة وتحولت الدفة، وكان عليه أن يحتمل بقدر ما يستطيع لأنه فى بيته ومعه أب مهما قيل عنه علامة لها حساباتها فى وسط الجميع، وجاءت مرحلة اغترابه على غير توقع حيث

كان مكرها أن يتنازل عن الكثير من عاداته وصار مثل الفرع المقطوع عن جذوره يسعى سعيا حثيثا ليستر نفسه فى دنيا غير دنياه، لولا حسين افندى ابن عمه الذى التقى به صدفة وشعر انه سيكون دليله فى كل ما يتعلق بأخبار الكفر أو ناسه، كان حسين افندى فى مثل عمره،وقد تزوج وسكن بجوار الأزهر الذى تخرج منه، لكن المسافة بينه وبين السيدة كانت تتيح للمنصور أن يذهب ليلتقيه فى مقهى مشهور، يتحدثان عن كل الأحداث التى تجرى فى الكفر، فيطمئنه على صحة الوالد أو الوالدة وأبناء العم والأعمام أو يكتب رسالة لامه يعبر فيها عن اشواقه، ويطمئنها على احواله، وقد تتسرب إليه حكايات عن الأب الذى صار متباعدا عن اهله وناسه ومعزولا عن كل من يتعاطفون معه مكتفيا ب الغندورة " وابنها الذى تحول لبؤرة اهتمامه، ربما يبوح له بعسر هامسا يحذره من احتمال أن تنهب ميراثه بحيلة من حيل أولاد شلبى يتوقعها حسين افندى، وهو ابن عمه المتعلم الذى يعمل مدرسا بمدرسة البنات، والذى يلتقيه بشكل عابر أحيانا أو بمصادفات غير محسوبة، فيسلم عليه ويجلسان معا بالمقهى ثم يفاتحه فى اخبار الكفر وناسه، ومتطوعا يبوح له دون تأكيد ربما اشفاقا عليه وعلى احواله بكلام مبتسر فيه نوع من العزاء المخفى الذى يحسه المنصور ولا يطلب منه المزيد، وربما يعطيه رساله مكتوبة راجيا منه أن يوصلها لأمه فى يوم سفره، وربما يتلقى منه ردا على رسالة كتبتها امه توصيه أن ينتبه لنفسه وأن يصبر على ما جرى له، وتضيف له ما يشد ازره فى غربته، وان ينسى اصله وفصله فى تلك الغربة ولا يخجل من اى عمل يقوم به حتى لا يحتاج لأحد، وكانت تلمح له بألا ينسى حقه فى ارض ابيه دون بوح مكشوف ولعلها كانت تحس بما يدور حولها وتسمع ما كان يقال عن الرجل مع الغندورة وابنها الذى كان يكبر ويتحول لسيرة يتباهون بها وبخفة ظله

وجمال تقاطيعه أو انبهار الحاج إبراهيم بكل شئونه، كسوة ورعاية صحية لو " كح " يحمله أمامه على الحمار ويذهب لحكيم اطفال ولو بدا لها ان شهيته للأكل تناقصت يسعى به ليخفف عنه بكل الطرق، وكسوته غالية الأثمان بحسابات الكل، وكأن الغندور " تحول إلى بؤرة اهتمامه الوحيدة فى دنياه وقد نسى الكل وما عاد يهتم بأحد، حتى من كانوا يأتوا اليه فى المناسبات كان يلتقى بهم والغندور بجواره يناغيه أو بداعبه متناسيا ومعاندا من جاءوا لمعايدته أو تهنئة بظهور هلال رمضان أو اى مناسبة، حتى مشاوير العزاء فيمن يرحلون كان يعتذر عن المشاركة فيها لأن الغندور مريض، وانه أولى بالرعاية

ولعل المنصور كان يتلقى مثل هذه الأخبار ويزداد حزنه، يشعر بالعجز عن توعيته ثم يحيل الأمر إلى ذلك الصراع القديم الذى بدا له انه كان جاهزا لنسيانه مفتونا ب " قمر " فى ساعات غفلته فيحلم بأن يأخذها وتصير له زوجة، ويعيش معها فى تلك المدينة يوم تستقر احواله ويضمن رزقا ثابتا من عمله، ربما طافت صورتها فى خياله بعد أن صار مالكا لمحل الساعاتى بالمصادفات القدرية التى لم يتخيلها يوما وما زال عاجزا عن تصديقها، لكنها صارت رزقا ممنوحا له بتدابير المولى الوهاب الرحيم بعباده، لكن صورة الغندورة كانت تقف امامه كمارد بشع يشكل فاصلا يعوق امنياته ويبدلها إلى سراب تائه دون مقدمات.

•••

كان حسين افندى يجلس بجواره ساكتا والمنصور يتخوف من كلمات يمنع نفسه من البوح بها كما يتبدى له، يتنهد ويرتشف قطرة من كوب شاى ويتلفت حوله كأنما ليهرب من النظرة المباشرة المستطلعة لوجه المنصور مثلما اعتادها يفكر أن لديه شكاية يستحيى أن يفاتحه فيها تخص الرجل

ويخجل من البوح بها، وقد طال وقت الصمت بلا كلمات وهو يتململ مترددا عن النطق بمخزون ظل محجوبا عند طرف لسانه على غير العادة، فيتجاسر المنصور ويسأله بحياد:

– مالك يا استاذ حسين؟

– ما فيش، بس

– فيه إيه يا استاذ حسين؟ إنت ساكت من ساعة ما قعدنا

– مش عارف اقولك ايه، الوالد كان مزعّلنا شويه

– مزعّل مين؟ وليه؟ قول يا أستاذ

– ما تقلقش، إتعارك مع عمك مصطفى، وخاصمنا كلنا

– ويتعارك مع عمى مصطفى ليه، هو مشاكله ما بتخلصش؟

– كان بيوعيه من مراته إللى طمعانه فيه، اتعصب وغلط معاه

– انا كده قلقت ع الآخر، يغلط ف عم مصطفى؟

– الوليه عايزه أبوك يكتب ارضه باسمها، أو باسم ابنها

– وهو موافق ع الكلامده؟

– ما وافقش، بس اهلها هارسين الدار، و ح ينفذ كلامهم

– والعيله كلها عارفه وساكته؟ وسايبينه لوحده؟

– ما هو اتعارك مع عمك مصطفى، وما بيسمعش كلام حد

– إزاى بس يتعارك مع اخوه الكبير؟

– حكايات ابوك، مش باين لها اول من آخر

قال عبارته الأخيرة ونظر إلى ساعته وقام معتذرا

– عايز الحق الحصة، وابقى آجى لك، أكمل الموضوع بعدين

– أنا ح أستناك، بس اوعى ما تجيش

أشار بيده مودعا وخطا خطوات ليركب الترام المتجه لمدرسته والمنصور حائر وعاجز عن تفسير ما سمعه من الأستاذ، ولم يكن امامه غير الانتظار والقلق والوقت يمتد ويمتد والرجل لا يأتى كما وعده، وانتهت مواعيد المدرسة وانسك بابها كما رآه بعد مشوار بدا له أنه طال، وكان من الصعب أن يسأل عن عنوان الرجل فى مدرسة خلت من الأساتذة والتلاميذ فعاد ليجلس وينتظره فى دكانه، وخرج ليطل على واجهة المقهى لكن الآستاذ لم يأت إليه على غير توقعاته ولم يكن لديه حل وقد انتصف الليل غير الذهاب لسكنه لينام ويريح بدنه المنهك قلقا من التوقعات المفزعة، لعله ليلتها لم ينم أو يغمض له جفن حتى سمع طرقات الباب مع اول إشراقة شمس وفتحه فوجد الأستاذ حسين واقفا على استحياء وكأنه يعتذر بنظراته قبل كلماته:

– معلش يا منصور يا أخويا، إتأخرت عليك غصب عنى

– إتفضل خش يا أستاذ، اتفضل

– ما شاء الله، شقتك حلوه، دى ناقصها عروسه

– ربنا يسهل يا أستاذ

جلس الرجل ليعتذر عن غيابه ويحكى عن صبى المقهى الذى أوصله لبيته، وقال ان شابا صغير السن يركب متوسيكلا خبطه فى ساقه وكان سببا فى تعطيله لأن الفانوس انكسر وعمل الشاب محضرا ضده بقسم الشرطة يطالبه بإصلاح الفانوس على حسابه، وقام المنصور ملهوفا يتأمل قدميه فرفع الأستاذ بنطلونه من الناحيتين وقال له باسما:

– جت سليمه، بس دفعت له حق الفانوس، واتاخرت عليك

– أنا إتخضيت، وما نمتش طول الليل

– مش تجمد قلبك؟ أنا ما كملتش حكاية عمك ومرات ابوك

تراجع المنصور إلى الوراء وجلس على مقعد خال خلفه ليكون فى مواجهة الأستاذ تنفيذا لإشارة منه:

- أقعد بس وأنا اقولك، ع اللى سمعته كله

بدأ يحكى حكايات متداخلة بين الماضى والحاضر عن الغندورة التى تمكنت من إبعاده وإبعاد أمه عن الدار وانفردت به تماما مع اهلها، وصارت سببا فى تباعده عن اهله وناسه وكيف أن اهلها يتواجدون فى الدار فى أى وقت ليكونوا لها حماية مستترة تجعله يتراجع عن سبها ولعنها أو ضربها أو محاسبتها عن خطأ تأكد أنها ارتكبته، لكن أخطر ما تسرب إليهم من جيرانهم أنها تحاول أن ينقل ملكيته أرضا ودارا باسم الغندور وقد صار صبيا عفيا يستحق حمايته وتأمين مستقبله حسبما كانت تقول له، لكنه رفض بعناد واعترض وتشاجر معها ومع اهلها، فتدخل العم مصطفى قائلا إن حرمان ابنه الآكبر من الميراث ظلم لا يرضى أحدا وأن العائلة كلها لن توافق حتى لو وافق هو، لكن الحاج إبراهيم طالبه بالسكوت لأنه يعرف الأصول وليس فى حاجه إلى من يذكره بها وأضاف أيضا كلاما لم يكن مناسبا أن يقوله للحاج مصطفى، أن كل اولاد عوف لم ينشغلوا بغير الكلام ولأنهم قاطعوه وقالوا عنه كلاما فارغا لم يقله احد، فنبهه الحاج مصطفى بأن ما فعلناه لنحميك من الغلط فى حق بيتك وابنك لم يجد منك استجابة، وقد وضعتنا فى خانة الخصوم ونحن اهلك وناسك، والمح له بأن يسمع الكلام ولا يرد أو أن بترك الدار ولا يعبر عتبتها بعد ذلك ابدا فنظر إليه وهز رأسه قبل أن يرد عليه قائلا:

- براحتك يا حاج مصطفى، تعدى العتبه ولا ما تعديهاش، أنا بقى مش عايز حد منكم يتدخل، بعد خراب ما لطه

- كده يا إبراهيم؟ حصلت؟

قالها الرجل متحاملا على نفسه وخرج خجلانا من نفسه ومن أخيه الذى باع الكل وأوصى عياله وكل رجال وشباب العائلة بعدم التدخل فى امور الرجل مهما كانت الأسباب، وذكرهم انه لم يعد يشاركهم فى أى مناسبة حتى المواسم والأعياد والأفراح وحتى مشاوير المآتم، مقطوعا عنهم باختياره ورافضا لأى نصح أو توعيه بما يدور حوله من ملاعيب افسدت حياته وقللت من مقداره

على هذا النحو كان حسين أفندى يحكى له ثم كفّ عن الكلام وتلفت حوله قبل أن يسأل المنصور:

- هو إنت ما عندكش شاى؟ أنا ريقى نشف

- يا خبر يا أستاذ، شاى ايه؟ دا إنت تؤمر

- ويا ريت تفطرنى كمان، ولا ما عندكش أكل؟

- مستوره والحمد لله، أنا نازل تحت، ومش ح اتأخر عليك ، هما خمس دقايق، دا أنا ما كنتش حاسس بروحى

ومتعجلا توجه لباب الشقة ونزل درجات السلم والأستاذ ينظر نحوه دون كلمات، ولا بد أنه كان يشعر بالجوع والرغبة فى شرب كوب شاى،لعله تجول فى أركان الشقة يستطلع محتوياتها لكى يطمئن على شكل حياته فى الغربة، وقد جاء خاوى الوفاض بلا وظيفة أو مهنة، وقبل أن يكمل جولته جاء المنصور حاملا لفافات وعبوات مغطاة وأرغفة خبز تفتح الشهية، ووضع كل شئ على الترابيزة الصغيرة بينهما وباسما اعترف له:

- أنا كنت ح اموت م الجوع يا استاذ، من ساعة فطار امبارح، ما دخلش بطنى اكل ولا شرب

- عشان كده؟ جايب حاجات تفتح النفس؟

- ربنا يفتح نفسك، دا أنت منور يا أستاذ

وبتعاونهما المشترك فتحوا اللفافات والعبوات المغطاة ووضعوها فى الأطباق فصارت مائدة فاتحة للشهية، بدا أن الجوع اسكتهما زمنا اكتفيا خلاله بتغميس اللقيمات بالفلافل والفول والمخللات بانواعها، والبسمات راضية قبل ان يقبل الأستاذ يده ظهرا لبطن، فى نفس الوقت الذى احس فيه المنصور بالشبع وراح يرفع البقايا، يتجه بها للمطبخ لإعداد الشاى متمهلا والأستاذ حسين يعرض مساعدته فيشكره ويواصل مهمته ليخرج إليه بكوبين من الشاى وكوبين من الماء فوق صينية، فابتسم له الأستاذ وداعبه:

– ح اكمل لك اللى حصل إزاى دلوقت؟ بعد ما مليت بطنى؟

– على راحتك يا أستاذ

– قبل كل حاجه، ابوك عايز يشوفك، كان ف عز الزنقه بيقول " فينك يا منصور " شوف عملت فينا ايه؟ سبتنى لوحدى وهجّيت؟ لا حس ولا خبر؟ خايف اموت قبل ما ترجع "

– بس أنا طلعت مطرود يا أستاذ، وكلكم عارفين

– أنا عارف، بس الكلام ده امانه، لازم اقولك عليه

وبدأ يحكى مرة اخرى عن تفاصيل التفاصيل التى سمع عنها والإضافات التى استجدت بعد رحيل المنصور، وهو ما كان يهمه لكنه لم يجرؤ على مقاطعته أو سؤاله، بينما الأستاذ يقوم بتأدية دوره مدرسا بفصل دراسى ينقل معلوماته لتلاميذه بكل وقار وثقه، منبها المنصور أن بعض ما يسمعه يمكن أن تكون حقائق ويمكن أن يكون كلاما بلا أساس قالته الألسنة المعادية اعتراضا وانتقادا أو رغبة فى مشاركة متاحة للكلام فى سير الناس، ولكن أخطر ما قاله كان نصيحته للمنصور ليحتاط لنفسه، أن يأخذ حقوقه من ميراثه فى الأرض والدار لأن التفريط فى هذه الحقوق دليل

على الضعف، طالما أن زوجة أبيه تسعى للحصول على املاكه ليكتبها باسمها أو باسم الغندور فذلك يعنى أنها وضعت يدها على حيز لا يستهان به من تلك الأملاك وهو امر لا ترضى عنه العائلة كلها، وصحيح أن الحاج إبراهيم رفض وذكّرهم أنه أب لولدين ومن الظلم أن يحرم واحدا منهم من حقوقه وعندما اعترضت الغندورة وسألته إن كان يعرف مكان المنصور أو يؤكد لهم أنه حى يرزق أو أنه دخل فى زمرة الأموات " والحى ابقى من الميت " ضربها ليسكتها بلا فائدة لأن اهلها جاءوا ودخلوا الدار والتفوا حولهما، ولولا شبابنا وقد جاءوا وجهزوا انفسهم للعراك بينما العم مصطفى يقف بعيدا، وأوشك ان يشعل فتيل العراك وهو يسب اخاه الذى تاه وعيه وسمح لها أن يستبيح اهلها داره، وأضاف للمنصور أن والده صار معزولا عن اهله وناسه، وقد خرجوا من داره بعد عراكه مع العم مصطفى الذى كان يحاول تنبيهه وتوعيته فرفض أن يسمع المزيد، وتطاول عليه وهو أكبر أخ له والكل يعتبره كبيرا للعائلة لكنه أوشك أن يعاركه فى بيته، وقال عبارات لم يكن يتوقعها احد تؤكد أنه ليس فى حاجة لنصائح الأخ الأكبر ومؤكدا أنه لا يملك من الوعى بما يدور حوله فصار يكيدهم، لأن اهلها لا يغادرون الدار إلا فى ساعات النوم، ولا بد أنهم يدبرون امورهم وهو وحده بعد أن اطمأنوا لرحيل ابنه الأكبر صاحب الحقوق وانفصال امه وتقطيع العلاقات بينه وبين كل اهله وناسه، والرجل فى غفلة

وتململ المنصور ثم تنهد حائرا قبل أن يسأله:

- والعمل يا استاذ؟ شور على أعمل ايه؟

- الراجل ما لوش غيرك، ولو سبناه للجماعه دول ح ينهبوا كل حاجه، إنت مستغنى عن حقك؟

– أنا لما طردنى م الدار قلت اعتمد على روحى، وما طلبتش حاجه منه، وأهى مستوره

– ع العموم إنت حر، مستغنى عن حقوقك يعنى؟

– مش حكاية مستغنى، بس ح اعمل له ايه؟

– دبر حالك يا منصور، وارجع لأهلك وناسك، وشاورهم يمكن تلاقى لك حل، أنا إتأخرت ع المدرسه

قالها بعد أن قام من مقعده وخطا خطوات نحو باب الشقه وهو يمد يده ليسلم عليه مودعا ثم فتح الباب وخرج تاركا المنصور فى نفس مكانه يتابعه ولا يغلق الباب إلا بعدما نزل كل سلالم البيت وخرج الأستاذ، ووحيدا جلس يفكر بما تبقى له من وعى عما يعتمل بداخله من مشاعر متناقضة بين الرغبة فى المزيد من المعرفة عما يدور هناك والبحث عن حلول لها، أو الفرار من المواجهة جبنا لم يشعر به ابدا فى كل عمره

●●●

هامش (١٠)

ربما تلعب المصادفات فى حياة الإنسان حلا لمشكلة أو تعويقا لمساره المأمون، ولعلها فى معظم حالاتها تأتى فى أوقات غير متوقعة تتطابق مع اسمها فتكون مصادفة، لكنها تبدل الأمور وتغير مصائرنا دون أن تمنحنا أى تدابير ممكنة للخروج من تأثيرها السالب الذى لم نتوقعه فنندم، خلافا لنتائج إيجابية تمنيناها أو حاولنا تحقيقها دون قدرة على استكشاف خباياها وفهم جدوى مردودها وقد نوّرت مستقبلنا وأبعدتنا عن المواجع، وكلها مصادفات موجبة أو سالبة، تتوارى فى ثياب الحدث غير المتوقع وتندرج تحت مسمى المصادفة، وبمرور السنوات تسفر لنا عن وجهها الكئيب أو المبهج بعد مدة تطول أو تقصر فتتكشف حقيقة ما بدا لنا فرحا

لم نكن نتوقعه أو بهجة بلقاء تمنيناه وحلمنا به وقد تحقق، وربما نراجع ما كان وما جرى ويتأكد لنا أن المصادفة سحبتنا لمسار لم نكن نتمناه أو تمنيناه وندمنا على هذا التمنى، على العكس مما قد يحدث ونتقابل مع حبيب غاب وعاد أو حلم تمنياه ورأيناه يتحقق ويدخل فرحا صاخبا فى النفس و القلب والمشاعر ويبدل المصائر بمثل ما نشاهد على شاشات السينما احيانا ونتواطأ مع الحدث ونفرح مع البطل أو البطلة بغض النظر عن النهايات، لكن الواقع اكثر ثراء وتنوعا لأنه براح مفتوح يتوارى ولا نراه أو نرى المصادفة وقت حدوثها، ربما يطول الزمن بنا ونفسر مصائرنا على نحو مختلف لتوقعاتنا لتكون البدايات نقيضا لنهايات مغايرة لأنها بلا قواعد ثابتة مؤكدة يتعرض الإنسان لبداياتها ولا يعرف نهاياتها مثل سنوات العمر وطول البدن وقوة أو ضعف الإبصار وفصيلة دمه مع أشياء أخرى يمكن أن تندرج تحت مسمى القضاء والقدر، وسبحانه من يهب الحياة والضعف والقوة والصحة والمرض وحب الآخرة، والافتتان بالدنيا وهو الخلاّق الوهّاب المهيمن على عباده.

•••

كانت مصادفة لم يكن يتوقها فى تلك الظهيرة وهو يسير بهمة فى طريقه للكفر، لعل المنصور استعادها عندما شافها أمامه أو فى مواجهته وما قالوه عن أبيه وحشد قدراته ليجرى حوارا صريحا معها لأول مرة، صحيح أن حكايتها معه وظروفها كانت غامضة لكنها تتشابه فى الشكل مع حكاية الغندورة بدون خطايا مرصودة بشهود عيان، ولو تمسك بالشكل وحده فربما يحوز جواز مروره ويكتمل مشواره معها أو يبرر عشقه لمن بدت له أنثى مكتملة ولائقة لتحقيق حلمه فيفتح لنفسه بيتا يخصه يهوّن عليه اغترابه الغصب بعيدا عن اهله وناسه، على هذا النحو كان يفكر ويضرب اخماسا

فى أسداس بعدما رآها بالصدفة تتوارى تحت ملس حرير والغطاء الأسود للوجه، تركب حمارا مسحوبا بيد نفر " تملّى " مستكين الملامح، امرته أن يقف قبالته وكشفت وجهها باسمة فنطق اسمها ملهوفا كأى عاشق حقق حلمه فجأة على غير توقع، فهزّت رأسها وابتسامتها تتسع له اكثر بتودد ليرى اسنانها منتظمة ولامعة بندرة وتألق بحسب ما كان يراها، وعندما سألته بدلال وجرأة:

- عرفتنى إزاى؟

- ياه، حد ما يعرفش القمر؟

- رايحه للحكيم، سنتى بتوجعنى

- تسلم سنتك

- مع السلامه بقى

قالتها بود وأمرت من يسحب الحمار بإشارة ليواصل سحبه، وتوارت تحت الملس وغطاء الرأس لكنه تبعها متعجلا وهمس:

- عايز اقولك كلمتين

- لما أرجع

- ح آجى اطلب إيدك من اهلك

- لما ارجع

بعسر لملم روحه واستدار ليكمل مشواره لبنايات الكفر وبقلبه فرحة ونشوة،عاقدا عزمه على البوح لأبيه بإصرار عن رغبته التى كان يفكر فيها قبل اللقاء فتضاعفت بعده، وكان مستعدا أن يرجوه ويقبل رأسه ويديه لينال موافقته وليتقدمه فى زيارته لأهلها ليطلبها منهم زوجة تعيش معه فى المدينة مستعيدا علاقته مع الشلبية إلى حد أنه تزوج الغندورة رغم كل الإرادات،

وكان يشجع نفسه موهوما أن طلبه سيلقى قبوله مسنودا على علاقة ابيه بزوجته بنت شلبى وقد هيمنت على الدار وسيّرتها على هواها، وصارت تديرها بحسب إرادتها فى كل أمورها وفى اغلب الأحيان، ورغم أنها فى نهاية المطاف من نفس السلالة الوافدة التى صارعوها زمنا وصارعتهم، طافت بخياله احتمالات مستحيلة أن يعود لداره بإشارة منها لتكون مقرا لحياته مع محبوبة القلب لأنها من نفس السلالة وشرايين دمها من نفس الفصيلة، وربما توهم أن تقف إلى جواره وتوسوس للرجل بإعادته للدار لو تزوجها لأنها لو فكرت بعقلها فإن بعدها عن أهلها واغترابها خسارة، وربما يتحقق له ما كان يتمناه وينعم بالدفء والحماية بديلا عن الاغتراب والتباعد عن أهله، ويعم السلام فى الكفر ويتأكد لكن الأمنيات لا تتحقق بالرغبات حتى لو تساندت على ارتباطات متجددة لا سبيل لإنكارها أو نفيها، لعلها كانت محض اوهام عابرة أو إمساكا بخيوط نحيلة لا تملك الإمكانية لرفعها وتخليصها من تلك الأمواج العاتية لسلالة بارعة فى الهيمنة بالملامح المتميزة، لكن هل الجمال وحده مقياس للسعادة، كان يسال نفسه ويرد على نفسه وهو يستعيد ما جرى لأبيه بعد أن تزوج الغندورة فأفسدت حياته وخسر زوجته وابنه فى نفس الوقت، لكنها لم تكتف بذلك بل حاولت أن تمتلك الأرض والدار وكل شئ تطوله يديها مضافا إلى ذلك زرع الخلافات بينه وبين اهله، فهل من الأفضل له تأجيل مفاتحة ابيه فى موضوع قمر؟ ام ان رغبته فى تحويل الحلم القديم لحقيقة كان أكثر مناسبة فى هذا الوقت بالذات؟ كانت المسائل متداخلة تنتظر اللقاء مع الطرف الآخر ومعرفة ما إذا كانت مؤيدة أو معترضة، تيسر الأمور أو تعوقها؟

●●●

كان المنصور يفكر فى صلح ابيه وعمه مصطفى معتمداً على علاقاته بأبناء أعمامه واستعداد أكثرهم للتأثير على الرجلين، ومسنودا على انه وريث شرعى ويحق له أن يدافع عن ميراثه كما قال الأستاذ حسين معبرا عن آراء غالبية أهله وأنه بعودته يمكن أن يقطع ألسنة من قالوا إنهم صاروا اصحاب الحق بعدما رحل وغاب وتمنوا أن يكون قد تاه أو حتى مات فى غربته كما كان يتردد على ألسنتهم وتعلنها الغندورة، لأن الأشواق التى تدفقت بقلبه لأبيه وهو يستعيد ما قاله حسين افندى وهو يصف ما حدث بين ابيه وبين أهله وإحساسه بالوحدة فى غياب المنصور وأكد له أن الرجل كان مضلّلا ومخدوعا فى إدعاءات الغندورة الزائفة كى تحقق غايتها وتستبيح ما تفلح فى استباحته مثل أرضهم ودارهم، لعل المنصور لام نفسه لأنه تباعد بعد رحيله غضبانا وترك الرجل وحيدا يواجه من برعوا فى الإحتيال لينالوا ما يمكن نهبه حسبما قال له حسين أفندى

لعله اراد أن يفاجئ أمه أيضا بعودته على غير توقع، ولا بد أنه كان مدفوعا برغبته فى تأكيد قدراته لها على تخطى مصاعب أيام اغترابه، ليطمئن قلبها وقلب أبيه وناسه ولأنه لم ينحن أو يطلب عونا من احد، لكن الله فتح له سبل الرزق من أوسع أبوابه دونما ترتيبات أو تدابير منذ اغترب واسلم أمره لربه الرزاق العليم بكل ما يتوارى فى قلوب العباد، وكان يرتب كلماته التى ينوى أن يقولها لمن يسأله عن احواله حول امتلاكه دكان ساعاتى بشارع خيرت المجاور لمقام السيدة زينب، أو أنه يسكن شقة بنفس الشارع تصلح للحياة مع زوجة يختارها الأب أو الأم وفكر فى الكلمات التى رتبها ليقولها له ليحصل على موافقته على زواجه لكنها تاهت من ذاكرته فأرجأ زيارته لصباح الغد خوفا من لقاء غير لائق فى وجود زوجة أبيه، وقرر ان يذهب لأمه ليفرح قلبها لأنها كانت تبعث له المراسيل والرسائل

لتطمئن عليه وتطمئنه بأنه باق بذاكرتها لا يزال وأن اشواقها لرؤيته تتزايد يوما بعد يوم، وبحسب مراسيلها باحت أنها تنوى السفر إليه، لتطمئن عليه. وتزيح قلقا تستشعره كلما طالت مدة غيابه وتأخر فى كتابة رسالة يرد بها على رسائل كانت تصل إليه طوال فترة غيابه عنها وعن البلد والدار، ولأنه قرر لأى الاتجاهات يتوجه اولا واختار دار الأم فقد مشى فى طريقه إلى دارها، صحيح أنه وقف قليلا عند ناصية الشارع الفاصل بين البنايات العريقة والجديدة المبنية بشكل يشى بالعوز، لكنه وقف عند ناصية مشتركة بينهما وأخرج من جيب الصديرى ساعة جيبه وراح يظل لنافذة " قمر " متمهلا، وبدا له انه لمحها تنظر ناحيته راضية وباسمة لتشير إليه من النافذة المفتوحة، ولعله تذكر أنه شافها وتحدث معها وهى تتجه لطبيب الأسنان قبل أن يصل إلى الكفر، فاستغرب من تلك الصدفة ومضى فى طريقه إلى دار امه لتراه ويراها ويعيد حواره معها كما اعتاد ان يفعل قبل أن يترك لهم الكفر غصبا عنه ليعيش فى مدينة براح معتمدا على نفسه أولا وأخيرا، لا بد أن اخباره وصلت إليها لأن مثل هذه الحكايات تسرى وتصل لغالبية من يعيشون فى كفر مثل كفرهم ينتظر ويتابع بدأب كل ما يخص من رحلوا، وتساءل إن كان ما جرى له بالفعل رزقا بعثه المولى ليستره بحسب دعواتها أو انه اجتهاد منه أو شطارة ليتحول لمالك دكان ساعاتى؟ فهل كان من الممكن أن يفاتحها فى اول لقاء معها فيمن يمكن أن تكون رفيقة عمره وشريكته فى الحياة بعد سنوات عجاف عاشها وحيدا وقد خلت تماما من الراحة،بل كانت مضنية ومشحونة بالسعى المتواصل لتدبير لقمة العيش الحلال، كيف أفلت وأفلح بأمانته وحسن نواياه مع من عاملهم من الغرباء؟ وليتخطى دوائر العوز فى غربته ويصير مالكا لمحل ساعاتى بشارع خيرت فى السيدة زينب، وهو امر لم يكن يحلم به فى مناماته المتوالية أو يتوقعه

كان يحمل ساعة جيب من أفضل الأنواع ليهديها لأبيه والساعة المعلقة بعقد ياقوت يلتف حول الرقبه ممدودا يغطى صدر أمه مثلا فيزود فتنتها وهو لا يدرى من كانت ترتدى مثل هذه الساعة بعقد الياقوت ببلاد الغربة، وقد كانت لها صورة كأميرة أو ملكة متألقة التقاطيع ولا تشبه واحدة رآها أبدا أو تخيلها والعقد بساعته يدارى صدرها العارى مثل الملكة أو الأميرة وقد وضعتها الشركة المنتجة إعلانا لبيع الساعة بلغة لم يفسرها، لكن صورة الأميرة لم تكن تشبه " قمر" كما توهم مرة وهو يفكر أن يهديه لها ليزين صدرها، وأن يكمل مشواره معها ويصير لها زوجا وتكون له رفيقة لعمره، يمنحها كل ما يملك من الرعاية مع الوفاء والعطاء ويحميها من الطامعين فيها، هل كانت مشاعره لا تزال امنيات في مناخ غائم؟ كيف يعود للكفر فى اول زيارة ويفكر فيها ويتصور أنها لائقة تماما له بتقاطيعها الصاحية وبسمتها؟ ولأنه كان يشعر بفرحة كلما أطلت ناحيته وابتسمت له وكأنها تخصه ببسمتها دونما شكوك، حالما أن يبدأ مشواره معها وقد صارت مكتملة الأنوثة وقادرة على زراعة بذور النشوة فى قلبه مثل نجمات السينما الذين صار يراهن، ولانها بالقطع تشبه اى ممثلة سينما من البارعات لإثارة انتباهه عندما كان يعبر أمامها أو يطل إليها فيتوهم أنها لائقة له تماما لولا ذلك الشبه الزائد بينها وبين من صارت زوجة أبيه لأن هذه الخواطر كانت تدور بعقله فى طريقه لبيت امه فيراها نسخة من زوجة أبيه بملامحها وسنوات عمرها التى تقترب من " قمر" وبتقاطيعها مع خضرة عينيها وصفاء بشرتها وتماثلهما تقريبا بذاكرته، وقد صارت صورة مكرورة بتقاطيعها التى وهبها الله تلك الفتنة فكانت سببا لدخول دارهم وحياتهم، وبرغم انها بحساباته صارت قادرة على إستلاب عقل ابيه بتقاطيعها النادرة، وإستولت على قلبه وعقله وصارت له زوجة وأما لطفل

سيطر على مشاعره وعقله حسبما شاف بعينيه، كانت الغندورة من اولها لآخرها كابوسا مزعجا، تسبب فى خراب دارهم وطلاق امه وطرده، تذكرها وبدا له ان قمر لن تكون صاحبة النصيب لو استشار أهله ووالدته فى الأمر فإبتلع ريقه وخطا عدة خطوات فى اتجاه دار أمه

لكن التداخل بينهما كان مربكا له فى بعض الأحيان لأن " قمر " بدت له أحيانا كيانا مغايرا لوجه " الغندورة " التى هى زوجة أبيه وقد تسببت فى طرده، وربما تخيّل نظرة " قمر " له بكل دلالها وقد وضعت العقد فوق صدرها ومنه تتدلى الساعة النادرة فيسمع دقاتها مع دقات قلبه، وعلى هذا النحو تمنى أن يرى فيها الأميرة أو الملكة المالكة لهذا العقد رغم تلك الفروق الواضحة بينهما، والساعة الساكنة فوق صدر أميرة لم تكن تشبهها، ولكنها كانت تشبه الغندورة وخلايا الدم تتشابه أو تتطابق حسبما قيل له من اولاد عمه قبل ان يرحل

كان يرى ان أباه قد أنهى خلافا طال بين الأسرتين، وفكر " المنصور كثيرا فى تنفيذ رغبته وفكر فى كيفية اقناع أبيه أنه شاف البنت وهو متوجه نحو الكفر وحدثها وحدثته، وليبرر إعجابه بها يصف له أنها جميلة رغم انها بنت المغاورى، وتخيل الغندورة تنظر لأبيه وتوجه لوجه المنصور نظرة باسمة، بينما تقلب العقد بين يديها وتضعه بجوار ساعة الجيب التى ينوى أن يعطيها لأبيه هدية ليرضيه ويسمح له أن يطلب " قمر" زوجة مترسما خطواته لتقارب العائلتين المتنافستين اللتين تصالحتا بفضله

لكن الرجل سلم عليه واحتواه فى حضنه ثم ربت على كتفه وهز رأسه قبل أن يجلس ناظرا إلى الأرض مترددا فى النطق بأى كلام لفترة بدت له ممدودة قبل أن يسأله:

– نسيت ابوك يا قليل الأصل؟

- ما أقدرش انساك يا آبا

- كداب، سنتين وسبع تشهر وست ايام

- بتقول إيه يا آبا؟

- بقولك ع الغيبه الطويله، سنتين وسبع تشهر وست أيام

- دا أنت شاطر قوى ف الحساب يا آبا، وأنا ما أعرفش

- وعملت إيه يا بليد ف الحساب؟

- إشتريت دكان ساعاتى، بص، الساعه دى بتاعتك، أنا قلت أجيب لك هديه م الدكان بتاعى

- عجايب، إشتريت الدكان منين؟ خدت فلوسه من أمك؟

- أنا ما شفتش امى من يوم ما سافرت

- أمال اشتريته منين؟ لقيت كنز ف السكه؟

- رزق يا أبا، وبالحلال، لا كنز ولا عفريت ولا نصب ولا أى حاجه غلط، بس رزق ومكتوب

- شفتى الساعه دى يا غندوره؟ بتتحط ف جيب الصديري

مدت يدها وتأملتها باستغراب ودهشة، وناولتها للحاج إبراهيم ثم التفتت إلى المحروس لتسأله مستطلعة:

- مبروك عليك ، وما جبتش لامك ساعه يا منصور؟

- جبت لها ساعه ف عقد ياقوت

- ف عقد يا قوت؟ إزاى يعنى؟ دا الياقوت غالى

تنحنح الحاج إبراهيم تعبيرا عن احتجاجه وحذرها

- وأنتى مالك؟ عايزه تعرفى، جايب لأمه إيه ليه؟

فوضعت كف يدها اليمنى فوق فمها لتسكته وحملت الغندور ثم توجهت به إلى المندرة:

- تعالى لما ارضعك يا غندور يا ابنى
- مش انفطم من سنه ونص؟ يا للى ينحش اجلك؟
- رزق وجاى له، ومتقل صدرى، امنعه عنه ليه؟

بدا غضبانا ورافضا أن يرد عليها، ونظر إلى المنصور مستطلعا:

- وناوى على إيه؟
- ف إيه يا آبا؟
- ح تقعد ف الكفر ف ارضك وارض ابوك، ولا ح تهج وتغيب تانى؟ وما نعرفش طريقك؟
- أنا ح أعمل اللى يرضيك، بس
- بس إيه؟ قول

•••

هامش (١١)

لا بد أن " الغندورة " برعت فى أن تفتن الرجل ليتعامل معها وكأنها بؤرة الحياة، وقد سأل المنصور نفسه عن تلك المرحلة، لو كان من الممكن أن يكون للعشق غير المبرر ببعض حساباتنا كل هذا التأثير؟ ثم استعاد ما كان قد رآه على شاشة السينما الناطقة وتلك الأفلام التى شافها، والعشق والحب والهيام فيها يتحول لضرورة، فلا يستغنى عنها رجل وقور مثل يوسف وهبى أو شاب متأنق كأنور وجدى أو نجيب الريحانى المثير للشفقة، أو ابن بلد يلبس جلبابا كجلابيب الفلاحين ولاسه ملونة ملفوفة على رأسه وهو معلم بسوق الخضار أو صاحب مقهى يقوم بدوره باشا مثل زكى رستم،وكل هؤلاء يتحولون عشاقا لبنات جميلات رقيقات مثل أمينة زرق أو ليلى مراد وفاطمه رشدى وسامية جمال وتحية كاريوكا، وأغانى عبد الوهاب لحبيب القلب وفريد الأطرش لأوهام الحب وأغانى الوداع أو الشوق المتوهج وكلها

قابلة للتصديق وحالمة بالتحقق والنصر على الخصوم، هكذا برر لأبيه بعد تلك المشاهدات ما ظنه خطايا مثل اهله بعد أن تزوج الغندورة ولم يتسامح معه أيامها، لعله فكر فى أن يعشق ويذوب عشقا وينتصر ويحقق امنيته بزواجه من البنت التى فتنته وقد رآها اكثر فتنة من أم الغندور؟ وربما برغم حبه لأمه تمنى لو كانت قادرة على الهيمنة على الرجل أكثر، ولعله تأثيا فرّ من مواصلة التفكير فى هذا الموضوع، لكن الأمر مع الأب كان متاحا ومتخيلا ربما لأنه مثله فى النوع قابل للفتنة ما دام كيانا مكتملا، ورغبته مسموح له بأن يبوح بها لأولاد العم ممن كانوا اكبر منه أو فى مثل سنه عندما يتجمعون فى الغيطان ويسأله احدهم إن كانت امارات البلوغ قد وصلت له؟ يطرق فيضحكون منه لأن الخجل لا يخص الرجال من امثاله ويليق بالبنات، وقد تكررت مثل هذه المواقف مع من هم اكبر منه قليلا أو من هم فى مثل سنه، لكنه شافه عشقا منطوقا يبوح به كل عاشق لمعشوقته فى افلام السينما، وتخيل الحياة بمفرداتها وهذه الحوارات المنطوقة فى العشق المباح على شاشة السينما، ربما تخيل ايضا أن يخاصم كل من يقف فى سكة تحقيق غرضه، وربما يتعارك مثلما كان محمود المليجى يتعارك مع انور وجدى العاشق لساميه جمال أو ليلى مراد، وربما كانت امه سببا لأن الرجل وجد فى تقاطيع وسلوكيات الغندورة ما تصور أنه إفتقده تماما فى بيته، وقد عوضته الغندورة التى تشبه قمر فى أشياء كثيرة – حتى سنوات العمر - وقد زال الحرمان الذى ربما كان يكابده ولا يبوح به لأحد، لأنها جاءته كوجبة دسمة فى صحن من الذهب الخالص رغم فقر ناسها، جاءته أمام الكل وبينت له أنها عشقته وأسلمته نفسها، ولتنجب له ما عاش لسنوات يتمناه ولا يناله، خلفة جديدة أو فرع ممدود يحمل اسمه وينضاف إليه حتى بعد رحيله عن الدنيا.

●●●

كانت المندرة مزحومة بأعمامه وأبناء اعمامه والمنصور يجلس امامه متربعا بأدب، وبصوت خافت باح له برغبته فى أن يكمل نصف دينه كاولاد عمومته الذين هم فى مثل سنه أو اصغر منه، وقد جاءوا مع عدد من أعمامه لزيارته وزيارة المنصور بعد طول غياب بهدف مصالحته، فهز الرجل رأسه مرحبا بهم وبفكرتهم قبل أن يسأله إن كان يملك تكاليف الفرح والزفة والمهر المطلوب دفعه؟ وساخرا بخفة اضاف وهو يهز رأسه بامتعاض يحاول أن يخفيه:

– عايز تاخد واحده م البندر؟ ما هم ف البنادر ما بيكلفوش العريس فلوس كتير زينا، يبقى على خيرة الله، ولما ح تحتاج مساعده مش ح اتأخر عنك ، ولو انى مش مرتاح لجوازك من ناس ما نعرفلهاش أصل ولا فصل

– يا أبا أنا حاطط عينى على واحده م البلد ، من هنا

– بنات أعمامك كتار، ومضمونين، اصل وفصل وجمال، بس قوللى حاطط عينك على مين فيهم؟

– أنا مش حاطط عينى على واحده منهم، انا حاطط عينى على واحده من جماعة شلبى

– براوه عليك، يا زين ما اخترت

قالتها الغندورة وهى تصفق إعجابا بجرأته، لكن الحاج ابراهم شوح لها بيده آمرا قبل أن يركز نظراته على المنصور:

– إنكتمى يا بنت المراكيب

– تانى يا مدهول على عينك؟ واحده م الشلبيه؟ ما إنت شفت بنتهم عملت إيه ف دارنا، مش وسوست لى لحد ما طردتك؟ وكوشت ع الدار، وعايزه تكتبها هى والأرض باسم المحروس ابنها، انت انهبلت ياوله؟

– وهو انا يا آبا إللى دخلتها الدار؟ ما هى مجايبك وعمايلك، هو أنا انطردت بأمر مين غيرك؟ إتغربت وتهت فى البلاد البعيده ليه؟ كنت غاوى أنقطع عن اهالينا وفتّكم وهربت؟ ولا طلعت مطرود؟ دا إنت يا آبا اللى طردتنى

– إفرض انى طردتك، بس رجعت لنا؟ إفرض وأنا مش دارى كتبت الأرض والدار باسم اخوك ومرات ابوك، يبقى تطلع م المولد بلا حمص؟ بتعمل زيّى يا خايب يا ابن الخايب؟

– وفيها ايه؟ أقلها ما حيلتيش حاجه يتخاف عليها زيك ، ولا دار ولا أرض ولا عيل اطرده وأسقيه مرارة الغربه، زيك يا آبا، هو انت نسيت عملت فيّا إيه؟ لحقت نسيت؟

كان الحوار ممطوطا وساخنا، والحاج إبراهيم يهم عدة مرات أن يمسك بيمينه شمروخه ليسكته أمام أعمامه وأولادهم والجيران فيمنعونه بعسر، لكن سبابه كان يتوالى جافا وقاسيا وكأنه ودع قدرته على الصراع مع خصومه بصراعه مع ابنه، وكأنه يستدر إشفاق أهله لأن مواجهته بلسان ابنه بالجرأة وبالشكل المباشر كان يتوالى على غير توقعاتهم، فالإبن يذكره بخطاياه بلا توقف، وربما لم ير الناس دموع الرجل قبل تلك الليلة العصيبة لأنهم لم يسمعوا صوت حشرجاته وانحباس أنفاسه فى أصعب الظروف أبدا، ودخلت " الغندورة " بزينتها البادية أمام الكل وربتت على صدره فساد الصمت، واقتربت منه تماما فبدا له أنها توشك أن تحتضنه بخفة قبل أن تأمر الغرباء بمغادرة الدار:

– اللى مش لحمنا ودمنا يطلعوا بره

وببطء كان الغرباء والجيران يخرجون من المندرة تباعا ولم يبق فى المكان غير أبناء العم والأعمام، ربما اطمأن الرجل أو استراح قليلا وربما

استعاد وعيه المفقود وتلفّت حواليه وأمرها بمغادرة المندرة بإشارة يده فطاوعته وخرجت فأخذ نفسا عميقا وكرر له اعتراضه على دخول علاقة مع الشلبية فساد صمت تام ودهشة، ومن حضروا الحوار ودار امامهم على مسامعهم حتى لو كانوا بمكان آخر يسمعون الكلام واضحا ويتبادلون نظرات الاستهجان، ويتضامنون مع الرجل بإعلان رفضهم لفكرة المنصور جبرا للخاطر أو تعاطفا مع عجوز يقاوم عجزه بعلو صوته، وقد ساد الهدوء لعدة دقائق ممدودة فاترة وربما راجع الأب والابن خلالها موقفيهما ثم قام الابن خاشعا ليقبل رأس أبيه ويديه، فلا يملك غير احتضانه والتربيت على ظهره المحنى وهو يلومه بعشم وبصوت مسموع:

- كده يا ابن الكلب تسمّع بينا؟ كده؟ بتعايرنى يا منصور؟ بتعايرنى وأنا ابوك إللى جايبك من صلبه؟ كده؟

- سامحنى يا آبا، احب على إيدك واحب علّى رجلك كمان، بس تسامحنى، سامحنى من قلبك يا آبا

- قلبى مسامحك يا أبو لسان يستاهل قطعه ، ح يسامحك، ما أنا غصب عنى ح اسامحك، ما إنت ابنى ومن صلبى

كان المنصور قد تحول إلى كيان متهالك وحائر بمشاعر ممزقة بين ارادتين ووعيه ثابت بقناعة كاملة أن حقه فى الحياة يسمح له بأن يخالف الكل ويعترض على الكل ليبدأ حياته ويعيش ، فاقدا امله فى رضى الأب والأعمام وابناء العم بفكرته ولم يتراجع عندما انفتح الحوار ورفض الأعمام وأبناءهم فكرته، وكانوا يضربون كفا بكف لأنه لم يطلب واحدة من بنات أعمامه أو أخواله أو بقية فروع عائلته، وفوجئ الجميع بزغرودة زوجة الأب بصوت مسموع فيتغير مسار الحوار الدائر بينهم لأنها تزغرد بمقدرة وهيمنة وبالصوت المجلجل، وكأنها تعلن لهم قدرتها أن تخرسهم جميعا:

- ألفين مبروك عليك يا غالى يا إبن الغالى

- خبر إيه ياوليه؟ خبر إيه يا بنت المراكيب؟

قالها الحاج إبراهيم بصوت مندهش وقام متماسكا ليصفعها فوق وجهها بكفه فسقطت تحت قدميه ثم تحسست شفتيها وقد نزف منهما الدم، لكنها مسحته فى طرف ثوبها وردت بزغرودة ممدودة كيّادة، قامت لتعلن فرحة تخصها مركزة عينيها على منصور وهى تعده بعبارات تتخللها الزغاريد بين شفتين ينز منهما الدم فتزيحه بطرف كمها وتواصل وعدها:

- أنا إللى ح امشى لك سكتها يا منصور، ما دام قلبها مال لك وقلبك مال لها، يبقى العوازل مالهم ومالكم؟ عاوزين يولعوا ف الكفر نار، ونار ما تنطفيش غير لما تقضى ع الصغير والكبير ، والدنيا تبقى خراب ف خراب

وبعد أن كفت عن الكلام والزغاريد ساد صمت ثقيل ، وتململ كبار السن فى مقاعدهم قبل أن يهموا بالقيام وبخطوات متباطئة تليق بأعمارهم كانوا يتوجهون ناحية باب المندرة خارجين، ومن بقى من الشباب يتأملون ولا ينطقون برفض أو بقبول لما سمعوه من حوارات متقطعة بين الرجل الذى تاهت هيبته أمامهم بفعلها، كانت تبدو لهم إمرأة قادرة أن تخرس من حضروا الحوار وتؤكد أنها ستواصل تسيير دفة الدار حسب إرادتها رغم التودّد المصنوع والمسكنة المحبوكة، وكان التحدى معلنا أو مكشوفا فى الخفاء، ومكسبها مؤكد بجسارتها منذ دخلت الدار وتسببت فى تبديلها أو خرابها، وكان الأمر يبدو محيرا لعقولهم فتبادلوا مع بعضهم البعض نظرات اليأس، وقاموا لتبقى بجوار الرجل الصامت تربت على كتفه، والمنصور يشعر أنه دخل متاهة بلا مخرج ولا مدخل، عيناه تتركزان على وجه الرجل الكبير الذى هم واقفا بحماس مفاجئ لأنه تناول شمروخه القديم وقالها مهددا له:

– لو مشيت ورا كلامها لا تعرفنى ولا أعرفك يا منصور، ولو نفذت كلامها ح اطردها م الدار، وداري دى ما تخطيهاش تانى لو خرجت عن طوعى، وكسرت كلامى وكلام العيله ورجالتها، و لا ح تبقى ابنى ولا ح أعرفك، ح أتبرى منك

– أنا ح اقوم يا آبا ، مش ح أعارضك ف اللى قلته، وأنا كفيل بروحى وح أدبر حالى، بس عايز اعرف منك حاجه واحده ، مراتك دى؟ ح تفضل كابسه على نفسك لأمتى؟

– لحد ما تطلع روحى يا منصور، لحد ما تطلع روحى

سمع جواب سؤاله بحسرة ويأس كامل ثم قام ليخرج من باب الدار وزوجة أبيه تستمهله ولا يستجيب، يتباعد وصوتها يجلجل:

– أنا ح امشى لك سكتها يا منصور، ح امشى لك سكتها، واللى مش عاجبه، يشرب م البحر، سامعنى؟

لكنه كان يتباعد ونسوة الدرب واقفات يتبادلن إشارات متسائلة، وكانت هى قد وقفت عند باب الدار تتطلع إليه وتتابعه، ثم تعلن لكل من وقفوا عند أبوابهم يتسمعون كلماتها بصوتها المجلجل:

– واقفين كده ليه؟ بتتصنتوا على إيه؟ كل حى يكون ف حاله ويشوف مصلحته، وانتوا، ما لكوش رجاله تلمّكم؟

قالت العبارة الأخيرة وسكّت باب الدار بعنف رجّ اركانها وجلجل الصوت فى المكان، فجاءها صوته لاعنا:

– ياك تنشل إيدك يا واطيه يا بنت الواطيين

– كتر ألف خيرك، هى دى جزاتى عشان قلبى عليك؟

– قلبك على روحك وعلى اهلك يا واطيه

– واطيه واطيه، كنا واطيين وعلينا، وما حدش ح يلحقنا

قالت عبارتها الأخيرة وتباعدت عنه بخفة ، وبتثاقل كان يحاول أن يصل اليها لكنها كانت تفر منه، حتى عندما أمسك بشمروخه وحاول أن يطالها به لم يتمكن، كانت خبطاته تطيش وتطيش وهو يخبط الأرض والحيطان حتى أنهكته المحاولات تماما فجلس مكانه ورمى الشمروخ بجواره ثم تمدد على الأرض كأنه سيسلم روحه لبارئها، وساعتها اقتربت منه وهزته عدة هزات فأفاق نصف إفاقة، ثم اغمض عينيه وتاه فى غفلة ممدودة

●●●

لعل المنصور فكر أن يتصرف حسبما فكر بينه وبين نفسه أن يزور أمه بلا تردد ليقدم لها هديته وقد كان وهو يعبر الشارع متعجلا يتحسس العقد الملفوف فى علبة صغيرة ملفوفة بنسيج القطيفة الملونة، يطمئن لوجوده ويتجه لدارها ويدق " سقاطته " متعجلا، وسمع صوت خطواتها تنزل وتفتح الباب، لكنه تسكّع وتباطأ فى دخوله ونظر للناصية البعيدة حيث دار " قمر " وأمه تشده للداخل فيشعر بدفء حضنها ويتحول طفلا ويدخل مطاوعا لها وينسك بابها قبل أن تسأله بقلق ولهفة وهى تتأمل ملامحه:

– خبر إيه يا منصور؟ ما تدخل، دا إنت واحشنى يا ولد

– ح أدخل يا أمه، دا إنتى واحشانى موت

– ما هو باين عليك، وشك اصفر وعينيك مزغلله

– ما فيش يا أمه، انا رحت أزور أبويا عشان افاتحه ما...

– تفاتحه ف إيه؟ ما لك يا منصور يا ابنى؟

– أنا ما كنتش واخد بالى، إنها تشبه لها كده

– هى مين اللى بتشبه لمين؟

– عايز أنام يا أمه

– إنت كنت فين؟

– جيت من مصر، وقابلت ابويا، بس تعبان، وعايز أنام

– قوم غير هدومك، ونام

بآلية خلع مداسه وتمدد على الكنبة، وبدا لها أنه يحتاج إلى الراحة فخرجت من المكان وسحبت بابه، سرح بخياله فى البعيد وفى كل فترة زمنية تتفاوت طولا أو قصرا كان يتنهد شاعرا باليتم الكامل وقمر تتبدى له صورة من الغندورة، يشير لها بيده أو يهز رأسه لتبتسم وتتراجع للوراء بخفة ثم تتوارى بدلال عن عينيه، وخلافات الأسرتين تبدو أمامه خيوطا نحيلة فيها خبطات وصرخات واستغاثات وكأنها شريط سينما يعرض عداوات قديمة استهان بها لكنها تسببت فى اغترابه سنوات وبقيت حاضرة فى ذاكرة الناس، منطوقة على السنتهم دون مواربة على العكس منه وقد اكتوى بها وخسر وعيه من خلال حوارات دارت بينه وبين مجموعة من شباب العائلة قبل أن يرحل مطرودا، ولعله تردد فى العودة لولا طيف الأم واشتياقه لملامح الأب برغم قسوته، لكنها تسلطت على ذاكرته وثبتت بخلاياه حسبما توهم، لعله فى تلك الأمسية راجع نفسه، وتروى واستعاد احتمالات النهاية لو عارض أو خاصم ناسه من اجلها، وهو الذى لم يحاورها أو حتى يتعرف على استعدادها لأن تكون شريكة لعمره، وخوفه من ذلك التطابق بين تقاطيعها وتقاطيع الغندوره يدعوه للتراجع قبل التمادى فى أوهام عشقه لخيالها، مستعيدا سقطة ابيه فى الزمن الفائت وعشقه الذى هيمن على دماغة وأصابه بالغفلة، فتاه رغم المصاعب والموانع والمعوقات، فهل كان ليلتها يصحو من الكابوس المهيمن عليه ليتوّه عقله فينتبه للصراع القديم، ولو كانت اسباب القطيعة الكاملة لا تزال قائمة رغم ما جرى بين الأسرتين من شبه توافق مسنود على اكذوبة توهموها، لان الرجل تخطاها وتزوج بنتا فى سن ابنه سلطوها عليه، فأخذها وهدم ميراثه وباع أسرته مالكة الزمام

التى ظلت تتباهى بعراقتها وجذرها الراسخ الممدود داخل نخاع الأرض، خلافا لتلك الجماعة الوافدة التى عاشت فى هامش الهامش لزمن طال، وقد رتبوا احوالهم على حساب اولاد الأصول أصحاب أرض الزمام بداير الناحية، ربما كانت لحظة إفاقة لم تكتمل، لأن المخبوء كان يتخفى وراء الجدران

•••

هامش (١٢)

لو قلنا إن الأمر كان يتطلب التروى لصرنا خصوما للبطل، وقد جاءكم ليروى تفاصيل حكاياته عنها ولو قلنا إنها مثل القضاء والقدر المكتوب، فسوف نهدأ ونتركه لكى يواصل مشاويره بحسب ما يراه لا نقا به وبمشاعره، ولو قلنا إنها كانت نوعا من التحدى الذى يصيب إنسانا ويدعوه لدخول تجربة غير مأمونة أو مؤكدة النتائج،لقلنا إن الجسارة هى قبول التحدى ودخول السراديب المجهولة المخارج أو المداخل، ولعل المنصور لم يكن يدرى ما هو مقبل عليه، لكنه سرح بخياله بتمنياته وقدرته على العناد، ميراث لم يصنعه لكنه يسرى فى خلايا دمه ويحذره من التراجع عن مساره لأنه بالتراجع سيصنف نفسه فى خانة المترددين والجبناء مثلا، وهو تصنيف لا يليق به ومسنودا على فكرة إمكانية الهيمنة على امور نفسه فى نهاية المطاف فقرر أن يتوكل على مولاه ويقرر الذهاب، لعله اجهد عقله فى محاولاته لتوضيح الفروق ما بينها وبين " الغندورة " بخلاف التشابه فى الملامح إلى حدود الخلط بينهما فى النظرة العابرة، لكن الملامح وحدها لا تعنى تطابقا فى العادات والأفكار، ولأن قمر لم تبتذل نفسها ابدا أو قيل عنها ما يفيد أنها جاهزة لسلوك خارج عن المألوف والمعروف أبدا، ولأن السيرة ترجمة لرأى الناس فى الشخصية منطوقا ومرويا كانت قناعته

المدعومة بمشاعره نحو قمر تدعوه لدخول التجربة فى اقرب وقت، وقد تأكد أنه يملك القدرة على رعايتها وفتح بيت جديد يضمهما، متناسيا ما قيل له عن ميراثه من الأب غير المضمون حسب الآراء المنطوقة لغالبية اهله وناسه، ولأن مقدمات كتابة ميراثه باسم الغندور قيلت بلسان أبيه فى لحظة صدق شعر بخطرها، وصحيح انها بدت له تحذيرا قاله الرجل لكنه سمعه فى الوقت الضائع، على هذا النحو فكر وتفاعلت وأنا الطيف معه لأنه سيتيح لى الفرصة لأن اكون كيانا حيا بعد أن عشت طيفا يحوم حوله وحولها، أن أصبح أبنا يتوافق معه أحيانا أو يعترض عليه، لكنه يحمل اسمه ويعيش مسنودا على جذوره الراسخة على ارض كانت ميراثه وستبقى.

•••

كانت مرحلة ابتعاده وتباعده عن قمر والكفر وناسه قد طالت، وبعد أن طرده الأب من داره لأسباب لم يكن طرفا فاعلا فيها وكان يشعر باليتم الكامل،لكن صورتها كانت راسخة بذاكرته وثابتة فى فترة عاشها مغتربا ومتحاملا على نفسه فى المدينة البراح التى فتحت ابوابها وأخذته فى احضانها ومنحته الأمان الخالص، لكنه كان يتمنى أن يتمكن من الاعتماد على نفسه ويحقق امنياته ويكمل نصف دينه، ولأنه فكر أنه يستطيع أن يفتح بيتا تشاركه الحياة فيه بنتا جميلة مثل قمر التى رآها عدة مرات على مراحل متباعدة بحساباته، لكنها كبرت وصارت حلما يدعوه لأن يمتلكها ويرتاح فى حضنها، يرتاح لتقاطيعها وصفرة ونعومة شعرها كأنها من اخطر امنياته الكثيرة التى كانت تناوشه أيام شقائه المتواصل، وكان اغترابه للحصول على لقمة عيشه بكده وعرق جبينه مسنودا على الجهد الزائد، ومقدرته فى مشواره الذى بدأه فى المدينة البراح التى كان يثق أن احدا ممن يراهم أو يتعامل معهم لا يعرف اصله وفصله، لكن ما تبدل فى

حياته جعله اكثر جرأة فى مناقشة أموره لأن البنات كانت هناك فى الشارع والحارة والدكان، وكان يشعر فى كل معاملاته انه مقبول عندما يحاورهن فى اى شئ، بعيدا عن الساعات واثمانها أو تكاليف اى اصلاحات لساعة قديمة، فيسأل نفسه كيف ينتظر وصاحبه الذى التقى به وسكن معه فى البدايات تزوج وانجب وعندما قابله سأله كيف يملك هذا الدكان ولا يتزوج؟ وكأن امتلاكه للدكان سببا لتكوين بيت يحتويه مع شريكة لعمره، ولعله فى تلك الليلة بعد وداع الشناوى فكر فى الأمر، ولكن خيال قمر كان يتجلى له كحلم مستحيل المنال، ومثلما كان يفكر فى بنات الجيران الجميلات اللواتى كان يراهن ويحاورهن ويشعر أن العلاقات بالمدينة متاحة وميسرة اكثر من القرية، لكن الأمور عندما أعادته للكفر عدلت مساره، وربما فكر فى تلك المقابلة العابرة التى وعد فيها قمر بأنه سيأتى ويطلبها من اهلها بعد طول غياب، لعل غيابه كان دافعا له ليذهب إلى الكفر ليستطلع امور الناس فيه وربما يكون لقاءه بالصدفة مع قمر كان قدرا مكتوبا لتكون قمر نصيبه المستحيل القابل لأن يتحقق

•••

كانت الفكرة قد سيطرت على عقل المنصور برغم اعتراضات أهله وناسه، وتمادى فى عناده لهم ولوعيه الكامن وتوجه لدارها، دق سقاطة الباب عدة دقات وسمع ردا بصوت بدا له انه يخصها، سألته قبل أن تفتح الباب:

- مين اللى بيخبط

- واحد ضيف،، وجاى فى طلب

فتحت باب الدار على مهل وابتسمت له ثم شهقت واستدارت ورمحت متباعدة إلى وسط الدار فتحير فى أمر نفسه، فهل كان من الممكن أن

يتراجع أو يتباعد أو يظل واقفا بمكانه بين الرغبة فى انجاز المهمة التى جاء لأجلها أو التباعد، ولأن أحدا لم يسعفه أو يسمح له بالدخول كان يدق على خشب الباب وسمع نحنحات الرجل الآتى من وسط الدار فطمأنه ووضعه فى مواجهة جهز نفسه لدخولها وباح بغرضه لقمر فى اللقاء الذى كان صدفة غير مرتبة وهو آت للكفر منذ مدة، ولعله أيامها فاتح اباه فرفض فكرته، سلم الرجل عليه بحماس ورحب به على نحو مريح خفف عنه الكثير من التوتر وأشار له وهو يتقدمه:

– اتفضل اتفضل، بيتك ومطرحك يا ابن الناس الأمرا، يا ألف أهلا وسهلا بيك، دى خطوة عزيزة، شرفتنا، اتفضل اقعد

– كتر خيرك، معلهش بقى، جيت متأخر ومن غير ميعاد

– إنت تشرف وتنور ف ايها وقت، البيت بيتك، إتفضل إرتاح، دقيقه واحدة وراجع لك

قالها وخرج من باب المندرة وسحب الباب وراءه، وساد الصمت وصوت مداس الرجل على الأرض يتباعد ويتباعد تماما، ونوافذ المندرة غير المفتوحة تشعره بعسر التقاط انفاسه، ظل يتأمل ما يحتويه المكان، كنبتين متقابلتين وفراغ الأرضية المغطاة بطمى مخلوط بتبن القمح والجدران خالية تماما، سمع دقات الباب تتكرر عدة مرات ثم سمع صوتها يستأذنه:

– أدخل؟

– إتفضلى

كانت تحمل صينية صغيرة عليها كوب شاى وحيد، وباسمة له مدت يدها الخالية لتسلم عليه وقد وقف لها مرحبا وباسما وهى تضع صينية الشاى على طرف الكنبة بيد وتمدت له يدها الأخرى ليسلم عليها، وربما شعر بالدفء واطمأن عندما قالت له بدلال:

- ما تقعد، واقف ليه؟
- وماله، اقعد، انتى منوره
- كتر خيرك
- انا جاى اطلبك من اهلك
- تطلبنى إزاى يعنى؟
- زى الناس، اخطبك الأول ، وبعدين..
- مش تسأل ابويا، وتشوف ح يقولك ايه؟
- وإنتى رأيك إيه؟ ما تقولى لى بينى وبينك؟ إحنا لوحدنا
- ح اقولك إيه؟
- موافقه ع اللى بقولك عليه؟ يعنى افاتحه ف الموضوع؟
- مش عارفه، انا ماشيه

قامت ثم تحركت من امامه متعجلة واتجهت نحو الباب وخرجت وسحبت باب المندرة فانحبست النسمة التى كانت تتسرب من الفراغ، وعاد وحيدا كما كان متحيرا فى امر نفسه ومتحاملا غصبا عنه فى غربة مكتملة لم يجربها أبدا، فلا المكان مكانه ولا يملك فيه حقا ليفتح نافذته المسكوكة، وأصوات الناس تأتيه متداخلة مع اصوات المواشى لكنها عاجزة عن تأكيد وجوده أو بقائه حيّا، لعله كان يتنفس بعسر وقد طال به الوقت وحيدا على نحو غير مسبوق طوال عمره، وعندما شعر بالمواجع فى عامودة الفقرى فكر أن يتمدد على الكنبة لكنه شعر بالحياء وقال لنفسه إنه ليس فى بيته أو بيت واحد من اهله أو حتى معارفه، كان مكرها على المزيد من الانتظار جالسا بنفس المكان، وربما نادما حتى سمع اصواتا متداخلة لرجال وحريم يدخلون من الباب الخارجى ويتوجهون إلى باب المندرة، فقام ليصافحهم وقد تقدمهم والد قمر الذى كان يعرفهم عليه باسما:

- سى المنصور ابن الحاج ابراهيم عوف

- يا ألف اهلا وسهلا، دا انت منوّر

- يا مرحبا يا مرحبا، آن الأوان ودخلت دارنا؟

- أهلا وسهلا بيك، يا ألف مرحب

- دا أنت نورت وشرفت وآنست

كان يرد على تحياتهم بالأهلا وسهلا تباعا، لكن شابا شديد السمنة قال بتكشيرة على ملامحه وهو يلتقط أنفاسه:

- مش هو ده، اللى ابوه، طرده من داره؟

خبطه والد قمر فى صدره بقبضته ودفعه ليخرج معترضا عليه:

- اختشى عيب يا ابن المراكيب ، جاى هنا تقلب المواجع؟

امشى اخرج بره

- أهلا سى منصور ، معلهش ، سامح البرعى، أصله عيل وغشيم، ما بيعرفش السما م العمى

- ما يهمش

- إتفضل اتفضل

جلس مكانه والى جواره والد قمر وعن يساره عجوز صامت ومتأمل، وأمامه أربعة رجال آخرين وعلى أرضية المندرة كانت السيدات والبنات يجلسن ويتأملن بتمعن، وكانت قمر بينهن تطل باستتباب متطلّع كأنما الجلسة لا تخصها فى شئ، حتى تنحنح الأب وسألها:

- إيه رأيك ف المنصور يا قمر؟

- ما ليش رأى يا آبا

- يعنى نفتح الموضوع ، ولا نفضها سيره؟

- الرأى رأيك، ورأى رجالة العيله يا أبا

إلتفت إلى العجوز الصامت يستطلع رأيه بلا سؤال، فهز الآخر رأسه علامة الموافقة لينفتح الحوار، وكان الأمر يبدو للمنصور عسيرا وغير مألوف على نحو مؤكد، كأنه دخل معركة وسط زحام بلا سلاح، وعليه أن يواجه عشرات الشماريخ والعصى المرفوعة نحوه تستعرض براعتها وحرفيتها أمام سامر منصوب لتنال إعجاب المربع لفرجة ملمومة لتشجع من ينتصر أو من يحرز نقطة، مثلما كان يحدث بساحة التحطيب بمولد السيد البدوى، لكن العجوز أعاده وربت على كتفه قبل أن يطرح عليه سؤالا متداخلا:

– وجاى تطلب بنتنا ليه؟ هما بنات أعمامك وبنات البندر ما كانش فيهم واحده تعجبك؟

– أنا قلبى مال لبنتكم، ومستعد أعمل لها اللى اقدر عليه عشان اريحها، وإنتوا احرار وهى حره، تقول آه أو تقول لأ

هز العجوز رأسه وسط الهمهمات، ونظر ناحية قمر وزام قبل أن يعلن أنها راضية، ربما ارتاح كل من كانوا فى المكان لأنه باح لهم بأن قلبه قد مال لها، وكانه أعلن استسلامه مقدما، ولأنه جاء يسعى لينال موافقة اهلها وناسها، بعد أن سأل أهله وناسه قبلها فلم يوفق ولم ينل منهم غير تهديدهم له بالقطيعة الكاملة لو سار فى هذا الطريق لمنتهاه،ذكروه بما كان من عداوة ودم مراق بين أهلها واهله فى السنوات السابقة ثم تحدثوا بإستنكار عن الثارات التى لم تكن تخفى عليه، لكنه هوّن عليهم الأمر وأكد لهم أنه طاوع قلبه وقرر أن يكمل مشواره مع من مال لها قلبه بالحلال، وحكى لهم أنه غامر وعارض اهله وناسه بحضور زوج ابيه وهى واحدة منهم، لكنه لم يشأ ان تكون وسيطا له فى هذا الأمر كما عرضت عليه لأنه ولى امر نفسه، وتمنى أن تكون بداية صلح اوشك أن يتحقق بزواج ابيه منهم لكنه ظل ساكنا فى مكانه، لأن خلافات الأسرتين ظلت على حالها وإن لم تكن معلنة،

وحكى لهم ما كان بين ابيه وأمه التى فاتت لأبيه الدار وطلبت الطلاق فطلقها وطرده ليرضى زوجته، موضحا لهم انه لا يحتاج لمساعدة من احد لأنه يملك دكانا لبيع واصلاح الساعات بشارع خيرت فى السيدة زينب، وصفق له العجوز الصامت وهز رأسه باستهانة وقال إن الأرض فى نهاية المطاف ستكون مكتوبة لأخيه الذى هو من سلساله فى نهاية الأمر، باح أن زوجة أبيه حدثتهم عنه وشكرته وعلى نحو غير متوقع رأى زوجة ابيه تدخل من باب المندرة وتقترب منه لتربت على كتفه ببسمة لم يفسرها قبل أن تعلن له همسا مسموعا من الكل:

– مش قلت لك ح امشى لك سكتها؟

– يعنى إنتى اللى؟

– اسكت بقى، ما تكملش، خللى الرجاله تتفق وياك، ما تتكلم يا كبير العيله

قالتها واتجهت نحو قمر وجلست بجوارها وأخذتها فى حضنها، وتنهد الكبير قبل أن يعلن وجوده ويطالبهم جميعا بلهجة الآمر:

– ما توحدوا الله

– لا إله إلا الله، محمد رسول الله

– محمد وعيسى وموسى، وكل من له نبى يصلى عليه

وتداخلت الأصوات وقبل الكل اياديهم ظهرا لبطن عدة مرات، ثم انطلقت زغرودة زوج ابيه مجلجلة وداعية إلى الفرحة والمشاركة، تواصلت الزغاريد وتزاحم الناس الذين دخلوا الدار ووسطها وملأوا المندرة عن آخرها وأوشك الصمت أن يسود عندما قال كبيرهم:

– بكفايه بقى، خلونا نتكلم ف المهم

هيمن الصمت على المكان، ربت بيده على ظهر المنصور قبل أن يسأله بشكل مباشر:

– مش نتفق مع الراجل الأول؟ قلت ايه يا منصور يا ابنى؟

– إللى إنت شايفه

– صوابعك مش زى بعضها، مش كده، ومرات ابوك إللى من اهلنا دى ما شاورتناش زمان، وأبوك ضحك عليها وسرح بيها ف الغيطان لحد ما حملت منه، ولولا خوفه م الفضايح لا كان كتب عليها ولا إتجوزها وسترها، أصلها كانت عيّله ومش واعيه لروحها أياميها، بس أهو كان نصيب ومكتوب

– بس إللى حصل زى ما بتقول، اتسبب ف خراب دارنا

– إحنا إتبرينا منها إياميها، وقلنا ما عادتش تخصنا، وأهى قدامك أهه إسألها، دى بقت بتاعة ابوك اللى كان السبب ف كل المشاكل ، وإحنا قلنا اياميها يمكن ينعدل أو ينصلح حاله إنما مِا حصلش، طلق امك ظلم وطردكِ ظلم والباقى إنت عارفه، خلينا ف اللى إحنا فيه، عايز بنتنا؟ ولا لأ؟

– أنا عايزها، بس خايف م اللى ممكن يحصل بعد كده

– خايف من إيه؟ ارض ابوك لو انكتبت باسم اخوك حيبقى انت طلعت م المولد بلا حمص؟ احنا مش طمعانين فيك ، وإنت حتبقى أهم عندنا من أيها حاجة تانية، وبكفايه انك إخترت بنتنا، ويمكن صلح العيلتين ح يتم على ايديكم، وتعملوا اللى ابوك والمخفية إللى قاعده دى ما عرفوش يعملوه، ويبقى لكم اسم وسيره ف الكفر والناحيه كلها:

– يعنى العيلتين ممكن يتصالحوا؟

– وكله ف الحلال، و ح نجهزها لك احسنها جهاز، أصل إحنا عارفين ظروفك، وقابلينك عشان راجل

– ظروفى؟ ظروفى إيه؟ انا صاحب دكان ساعاتى

– ما تتحمقش كده، قصدى انك ما تتحكمش ف قيراطين طين، بس إحنا بنشترى راجل، راجل يصون بنتنا ويتهنى بيها، ح تنور بيتك والناس تحسدك لما تحكى لهم بنفسك، ع الهنا الل انت فيه، قلت ايه؟

– القول قولكم

– على بركة الله، إحنا ح نتفق مع المأذون يكتب كتابكم يوم الخميس الجاى، بإذن الله، إيه رأيكم يا جماعه

قالها والد قمر متعجلا راضيا عن كل ما سمعه ومباركا له اشار بيديه مهنئا له، ولزوجة الأب والنسوة يطالبهم بمعاودة الزغردة والتصفيق والغناء فانطلقوا جميعا وتحول المكان لمباركات وقبلات واحضان وتمنيات لقمر بأسعد حياة، ثم حزموا زوجة أبيه ورقصت كانها غازية محترفة والكل يصفق لها ويزغرد والمنصور يطل ويتأمل مفتونا مبهورا موهوما أن سعادته ستكتمل بعد عقد القران عليها، ومتمنيا ان يأخذها معه إلى بيته فى القاهرة فى تلك الليلة، لكنها كانت لا تزال بعيدة عنه وتبدو حلما ورديا يطوف بخياله ولا يرغب فى الصحو منه إلا يوم الخميس التالى

●●●

(هامش (١٣)

سأسمح لنفسى أن أبوح لكم بأن ما ذكرته فى بدايات حديثى عن ابى هو بعض ما تبقى بالذاكرة هامش تقادم، لكنه سكن ذاكرتى اطيافا وخيالات وبقايا حكايات عاشها، ربما تكون منقوصة ومختصرة وربما تبدّلت بعض كلماتها وعجزت غصبا عنى لأنقلها لكم على نحو مؤكد كما تمنيت وحاولت لتساعدكم على تشغيل خيالاتكم لكشف دلالاتها وتوضحها لكم بدقة، والذاكرة كالبراح الممدود ولايمكن أن تفصل فيها الخيالى عن الواقع المؤكد بهوامشه الجانبية، واى علاقة لم اشهدها واحضر تفاصيلها بنفسى

تدعونى لأن أتخوف منها بخلط الذكريات بالانطباعات المسبقة مثلا، ولو كنت حاضرا فى المكان والزمان كما لا يتاح للأطياف ان تحققه فتصير المكنات مختلطة وفيها بعض الأسماء والوجوه والمشاعر بالذاكرة، لأننى فى نهاية المطاف لم أكن أكثر من طيف عابر يحوم حول المكان، واحتمالات أن يتحقق وجودى بعد أن سار الأمر على هوى الطرفين كما حدث بعدها بعام كامل، فقد أعطانى بعض الحق لأحكى بصوت وأنا فى نهاية الأمر طرف، ولو تغير المسار خطوة أو خطوتين ما كنت جئت إليكم أبدا ولا تحقق وجودى، وربما يرجع الفضل لأبى أولا لأنه باح لى بكل ما كان يطوف بخياله أو يراه ويختزنه فى ذاكرته قبل وجودى، وبشكل مؤكد لأمى لأنها اوضحت ما كان مطويا أو مخفيا عنه لحسن نواياه الزائد على المطلوب، ولعلنى أفلحت ونقلت لكم بعض الصور التى رواها هو لى وروتها هى بغير ترتيب فى أوقات متفاوتة دونما قصد أو غرض بعينه، لأنه كان على سبيل المثال يتنفس بالكلمات أو يسترسل محدثا نفسه بصوت مسموع، وربما كان وجودى دافعا له لينشط ذاكرته ويبوح لذاته أو لطيفها الساكن فى ذاكرته، لذلك فإننى لا أنسب لنفسى اكثر من أننى حاولت ترجمة ما ظل هو مشغولا به لأننى كنت أنكّره بغير قصد بينما اتنفس، ومحاولاتى وقد جاهدت أن تكون صادقة ومعبرة عن دقة ما خرجت به بنفسى بينى وبين نفسى، بعد أن رحل هو ورحلت هى ولم يبق منهما سواى،فسامحونى على نسيانى الطفيف وقد قاومته بقدر المستطاع لأقول لكم كل الحقيقة، عن زمن لم اشهده أو أعيشه واشارك فيه بنفسى وأنا حى، ولكننى جاهدت لاطرح أحداثا لم أكن طرفا فيها بأمانه، وإن كنت أيامها احتمالا قابلا للتحقق الذى تحقق وعاش ثم صار شريكا وشاهدا بوعيه الخاص على احداث حدثت فى طفولته المبكرة دونما تدخل منه أو منها، ومحاولاتى لمعرفة دلالات الكلمات على مهل يناسب

عمرى قبل الفترة السابقة لذلك الزمن الذى كنت امتدادا لماضيه، أو جذورا لما جاء فى مرحلة الوجود المخلوط مع مشاعرى الفطرية التى لم يستهن بها، لأنها كانت تأتينى رسائل مبهمة عن غير المدرك لكنه المحسوس بدرجات متفاوتة وسوف نبدأ هذه المرحلة بعد عقد القران بعدة شهور حسبوا أنها سبعة أو ثمانية ، لكنها فى نهاية المطاف مرحلة جديرة بالتأمل، والتعجل غير مفيد فى مثل هذه العلاقات، فدعونى اكمل لكم ما جرى بعد ذلك اللقاء الذى عقدوا فيه قرانهما على مهل.

●●●

دخل مأذون الكفر بعمامته وجبته وقفطانه وحزامه الذى يحيط وسطه ، بيمينه مسبحة كان قد أخذها من الحاج مرسى عوف بعد وصوله من الحج للمرة السابعة بحسب ما كان يقول متباهيا أمام الناس، مسبحة كهرمان أصلى من بلد النبى عليه افضل الصلاة وازكى السلام، وخلفه عزام البرعى حامل الدفتر الكبير والختامة ودواية الحبر والقلم الرصاص والنشافة، ولا يدرى احد كيف دبروا الطبلية المرفوعة عن الأرض بأربع قطع متساوية فى اطوالها من عرق خشب قديم مدقوقة كقوائم داخل المدادات لحمل الطبلية ورفعها عن الأرض مترا لتحمل دفتر المأذون وأدواته اللازمة ليكتب الكتاب براحته، وكأنهم أجلسوه على شبه مكتب مستدير السطح وثابت تماما على الأرض، وموعودا بأن يتناول وجبة العشاء الشهية فى نفس مكانه على الكنبة بدل النزول للأرض، وكان سيدنا الشيخ عاشور كما ينادونه يزهو بنفسه لحد الغرور فى مثل هذه المناسبات، لأنه حسبما كان يقول لهم إنه لولاه ما تم زواج ولا طلاق، وكعادته فى مثل هذه الحالات كان يتحول لآمر وناه لكل من يتواجدون فى المكان من أهل العروس أو أقاربهم والجيران وجيرة الجيران لكن اهل العريس لم يكن لهم اى وجود، وبإشارة منه كفت

النســوة عن التطبــيل والغناء والزغــاريد أو الرقص وكف الشــبــاب عن التصفيق، ساد الصمت ثم تنحنح الرجل أولا قبل أن يسأل المنصور سؤالا مباغتا للكل:

– هو انتو يا ولاد عوف ما بتتعلموش أبدا؟

– قصدك إيه يا مولانا؟

قالها المنصور مستفسرا بقلق، فابتلع ريقه وأكمل ساخرا:

– بيقولوا اكفى القدرة على فمها، تطلع البنت لأمها، لكن ما قالوش مثل على ولد، بيقلد أبوه ف الفارغه والمليانه

– خبر إيه يا شيخ عاشور، إنت جاى تكتب الكتاب؟ ولا جاى تقول لنا أمثال؟ ما تخف علينا شويه

– وماله، نخف عليكم، ما إنتو غلابه، مش كده برضه؟

قالها لوالد قمر بنعومة وعشم، وتلفت المنصور حوله وهو عاجز عن التعليق وهمهم الرجال والنساء حتى تدخل كبيرهم وعقب:

– الشيخ عاشور بيناغشكم زى عوايده، ولو ما عملش كده، يبقى مش الشيخ عاشور إللى إحنا عارفينه، دا إحنا ح نكتر له " الإدام " ف الفته

هز الشيخ عاشور رأسه وتفكر ثم علق وهو ينظر لعزام قبل أن يقول له مطمئنا بسخرية واضحة:

– إبسط يا عزام ح يعشوك ويملوا بطنك، انا بطنى واجعانى، يعنى ح تاكل منابى ومنابك، بقولك ايه يا حاج عرفان، انا عندى مشوار تانى ف عزبة الأقرع، طلاق بعيد عنكم

– يا ساتر يارب، والموضوع اللى انت مستعجل عشانه ده، ما يتأجلش لبكره؟ يعنى هى حبكت النهارده؟

– ما إنتوا عارفين انى مأذون الناحية بحالها، ما فيش غيرى، وف المديرية ح يحاسبونى لو إتأخرت، أنا يا دوب اخلص هنا وأركب الجحشه واعدى التركيب ف إنصاص الليالى

– ربنا يقويك ويقدرك ع اللى إنت فيه

– ما أنا المسئول عن كل كلمة بأكتبها ف ايتها مناسبه زى دى، وعاوز أخلّص موضوعكم بسرعه، وابقوا طبلوا وزمروا على راحتكم، هات بطاقتك يا عريس ، وبطاقتك انت كمان يا ابو العروسة، وعاوز اتنين شهود لهم بطاقات طالعه من المركز، مش من بتوع البرارى، نتوكل على الله

كان يكتب فى دفتره متعجلا على نحو غير مسبوق، ويطل احيانا لوجه المنصور ويمصمص شفتيه اشفاقا أو امتعاضا أو تعبيرا عن كلمات يرغب فى النطق بها ويمنع نفسه، لكنه اكمل مهمته وقام دون سلام ولا كلام مكتفيا بنظرات خاطفة لبعض الوجوه وهو يخرج من باب المندرة، وعزام يلملم الأدوات ويسعى خلفه كتابع امين، والزغاريد تشيعه باصرار لإعلان عقد القران الذى كتبه

●●●

كان المنصور يتصور أن الفرحة دخلت قلبه وهو ينظر اليها قبل دخول زوجة ابيه فى المكان، ولعله قبلها شعر بالزهو وسرح بخياله فى عوالم مفتوحة على براح ممدود بلا حدود وتخيل عالما بعيدا سوف يعيش فيه مستقبلا يعوضه عن اغترابه ووحدته بعد عزلته عن ابيه الذى صار خصما له غصبا بتدابير الغندورة، ولأن الفرحة كانت عابرة وخاطفة ولم تكتمل بدخولها على غير توقع منه، ثم اكتشافه للدور الذى قامت به وباحو أمامها وأمامه كيف تقبلوا الاتفاق معه، ومن يدرى إن كان الحاج قد عرف شيئا عن دورها أو لم يعرفه، فهل ضللته كيلا ينفذ وعيده معها لو تدخلت فى

الأمر خلسة حتى لو صالحته واقنعته وتحكمت فى أفكاره أو عدلتها عن قريبتها، وربما استجاب لفكرتها لأنه إذا كانت قمر فد أعجبت المنصور فما جدوى ما يقال عن اعتراضه، وكأنه الخصم الوحيد لجماعة شلبى برغم انه تزوج منهم وصار أبا لطفل جميل يحمل اسمه؟ وربما فعلتها لتؤكد للكل أنها تسيطر على الرجل وداره وتدير أفكاره، تاه بين الناس وعقد قرانه يكتب وهو فى تلك الحالة من الحيرة، ولأنه بعد أن توهم بانه تمكن من تنفيذ إرادته وصارت قمر على ذمته كما يقولون شرعا، تمنى أن يرتبوا ميعادا للفرح والزفة فى اقرب وقت ممكن ليتخلص من تلك الهواجس التى تغزو خياله، فحاورهم فى الأمر ووعدوه أن الخير سيأتيهم قريبا - وطالبوه ببعض الصبر لأنهم سيقومون فى الأيام التالية بتجهيزها بقدر المستطاع والممكن، وسيكمل ما يحتاجه بيته من أشياء تليق به وبعروسه لأنها ستعيش معه فى هناء ورخاء بعيدا عنهم، ولأنهم صدقوا حكاية القسمة والنصيب وافقوا بان يأخذها منهم لتسعده وتزرع الفرحة الدائمة فى قلبه، وكان المنصور يستمع ما يقال له ويشعر بالدهشة لأن غالبيتهم يبرعون فى الكلام المرتب، والقدرة على الدوران حول الموضوعات المحددة فى مثل هذه الحالات التى يلزم أن يكون الاتفاق فيها واضحا مثل مسئولية العريس أو اهل العروسة، لكن الأمر لم يشغله كثيرا ربما اعتمادا على ما يمكن أن يدبره ويغطى ما يوصفونه بتقصير أهل العروسة أو العريس فى تأسيس المكان، ويلزم أن يليق بهم كبداية لما هو شائع، مع اختلافات تراعى إمكانيات الطرف المتيسر والطرف الذى لا يملك ما يساهم به ولا يملكه، وهو نوع من الصفقات بين طرفين يتحامل احدهما ويضحى بما يملك بينما يتراخى الطرف الآخر ويتشكى من ظروف يمر بها، حتى لو كان متيسرا أو قادرا على المساعدة، لأن الأمر من اوله لآخره يمكن تدبيره فقد صنف الناس بعضهم فى القرى

التى يتعايشون فيها لأن كل شئ على مشهد ومرأى من الآخرين، والتواريخ ساكنة بذاكرة من يتجه نحو بيت أو جماعة أو أسرة لها صفات تضعها فى خانة تخوف أى طرف من دخول العلاقة مع ناس يختلفون عن أهله، لكن الأحداث التى مررنا بها بشكل مغاير اوضحت بعض الفروق أو العلامات المميزة لفصائل الناس المختلفة بشكل مؤكد فتاهت آثارها العريقة وذابت، فالعوف اصحاب الأرض الموروثة والعزوة المسنودة على تواريخ ناس تختلف عن الوافدين من اولاد شلبى ولعل الكثير مما تحدثنا عنه كان ساكنا ومستتبا فى دماغ المنصور وكان مقبولا وقابلا للتغطية وهو يستند على ما فعله الأب من قبله ومن اجل خضرة عينيها بديلا عن سواد عيون الناس وعيون الغزال الذى كان شائعا، والعشق مباح للبشر لتحقيق الأمنيات بشكل مؤكد فى الحالات التى تبدو لمن يدخلها عشقا يستحق التضحيات،وهو ممكن فى حالات مغايرة، لكننا سنمضى مع من انشغلنا بحكاياته ووصلنا إلى عقد قرانه على قمر بنت المغاورى شلبى، وربما شعر كلما انحطت عليها عيناه انه لم يخسر شيئا ولعل خياله كان يطوف به ويسعده، لأنه حقق رغبته وسوف يراها جواره طوال النهار وطوال الليل، ولعله انتظر حتى خرج كل من جاءوا وحضروا عقد القران ليخرج الساعة من جيبه، وكان الليل قد انتصف فقام بعد تردد ليستأذنهم فى الانصراف، فتبادلوا النظرات الحائرة وقالت أمها بعد أن نظرت لأبيها وكأنها تجبر بخاطره:

- ما هو بدرى

- بدرى من عمركم

كان يمد يده نحو كف الرجل المفرود اولا ثم امها وانتهى بقمر، فسلمت وهى تبتسم له وتهز رأسها وتقول كلمات لم يسمعها إلا بعد أن كررتها:

– ما تبقاش تتأخر علينا

– وهو أنا اقدر اتأخر؟

– مع السلامه

واشارت لها امـها بأن تفتح باب الدار فـانفتح الباب، ولعل الرجل سلم عليه مرة أخرى ليجذبه من يده فيتباعدان عن بابهم ويسيرا عدة خطوات حتى الناصية وتوقف المغاورى ليسأله مستطلعا:

– على فين العزم؟

– قصدك إيه يا عم مغاورى؟

– ح تروح للوالد ولا للست الوالده؟

– ما تفرقش

– لأ، تفرق، الوالد اتعارك مع مراته وغضّبها، وباينها ح تبات عند أهلها من غير ابنها، ما رضيش يديه لها، عارف ليه؟

– ليه؟

– عشان حضرت كتب كتابك على قمر، بيقولوا إنه كان حالف يطردها لما كان بيتعارك معاك

– أنا ح أروح اشوف امى

– نشوف وشك بخير

– كتر خيرك

– مع السلامه

ورجع الرجل بخطوات متثاقلة والمنصور يتلفت حوله ويفكر فى تلك المشكلة التى سببها حضور الغندورة حفل الزواج، ولعله تاه قبلها واحتار عندما رآها تقوم متسارعة بعد عقد القران كما علق العجوز بكلام واضح ومباشر عن تحكم زوجها الحاج ابراهيم الزائدة مع انها لم تحضر إلا من

اجل المنصور، وهو ابنه الذى سهلت له إكمال مشواره مع قمر بامتداحه عندهم عندما سألوها فطمأنتهم من ناحيته، وربما لولاها ما أكتمل عقد الزواج

فاستعاد المنصور ما جرى فى آخر لقاء حضره مع أبيه وكانت تهديداته واضحة وقاطعة تطالبها بعدم التدخل فى موضوع قمر الذى رفض فكرته، مضافا إلى ذلك غضبه من المنصور بهذه الحدة دونما سبب أكثر من انه فكر فى الزواج وطرح عليه الفكرة، يومها ترك دار أبيه ولم يدخلها وكان يأتى لأمه التى لم تحضر ولا وافقت، خصومات لم يسع اليها ولا فكر فى مواصلة الجدل معها بشأنها، لكن ما حيره اكثر هو أن الغندورة دبرت ما وعدت به متطوعه ويسرت عليه الأمر بتدابير أمرها الرجل أن تتباعد عنها وخالفته بلا تفسير غير مخالفته وعمل ما تراه حتى ولو كان معاكسا لرغباته، هل كانت تعرف وغامرت وهى واثقة أن إرادتها سوف تتحقق وأنها ستخفف غضبة الرجل العابرة لأن موازين حياتها معه تكاد تكون قد قلبت تصرفات الرجل رأسا على عقب، ولعل المنصور تخيل أن ما سمعه من تهديده لها بإنهاء علاقته بها لو تدخلت فى موضوع المنصور وقمر كان مجرد كلام عابر مع رجل اشتراها وباعه، ولأن خلافه مع الأب صار معلنا ومعروفا لكل الناس فإن علاقته بأمه هى البديل الذى يلزم أن ينال رضاه الكامل عن ارتباطه بقمر، ولعله فكر وتاه تفكيره وهو يحوم حول البيت متخوفا من إغضابها، وكان الحل الوحيد المتاح له هو مواجهتها بأسباب ما جرى دون ان يخبرها خوفا من رفضها، ولعله فكر أن يبوح لها بأنه أخطا مثلا ليريحها ويهدئها فى دارها، ربما تتوقع وصوله وتنتظره وتشعر بأن ابنها شبيه لأبيه الذى لا يرى غير الشكل، متناسيا ما يحتويه الداخل من علامات النقص، ولأن أخباره وصلتها فى نفس الوقت وفكرت وتحيرت

وعجزت عن الاختيار بين الذهاب لتحضر مع الغرباء عقد قرانه وتسمع ما لا ترضيها فتتعارك وتفسد ليلته واكتشفت أنها ستعجز عن الاحتمال والحركة فبقيت فى دارها تنتظر فرحتها وتتمنى أن تفرح معه، كانت تفكر فى هذه الأمور وهو يتوجه نحو بيتها ويدقه فتفتح له وتهز رأسها وتستدير تاركة باب الدار مفتوحا ليدخله ويغلقه مرتبكا لا ينطق، فتجلس قبالته وتتأمله باستغراب كأنه شخص آخر غير ابنها الذى لم يخف عنها شيئا صغيرا أو كبيرا، وزفرت ثم نطقت بالكلمة مغصوبة:

- مبروك

- من قلبك يا أمه؟

- لأ يا منصور، مش من قلبى

- اهو نصيب بقى

- أجيب لك تتعشى؟

- يا ريت

- عجايب

قالتها وخرجت من المندرة فتمدد على الكنبة وصار يتسمع ما يصل إليه من اصوات الأطباق والملاعق حتى جاءت اليه، وضعت صينية الطعام على الترابيزة فاعتدل ونظر لمحتويات الأطباق بنهم وتنهد، جلست امامه وتناولت ملعقة لتشاركة وجبة العشاء:

- كان قلبى حاسس إنك ح تجوع هناك

- دا ما حدش إتعشى خالص

- ولو إن كتب الكتاب فرج

- اصلهم على قد حالهم

- وكتبت كتابك من غير أهلك؟ ولا أبوك ولا أمك؟

- عارف انك مش موافقه، ولا ابويا موافق

- طيب إتعشى واملا بطنك

•••

هامش (١٤)

قد يتبدل مصير الإنسان أحيانا بإرادته واختياراته بحريته، وقد يكون الاختيار محفوفا بالمخاطر وهو يواصل مشواره دون أن يفكر فى التراجع، ربما يكون التراجع بعد خطوة أو خطوتين حلا مناسبا لائقا فى مستقبل الأيام ولكن امتلاك تلك القدرة لا يتأتى باليسر المتخيل أو المرغوب فيه وهى حالة من الجبن التى تسكن قلوبهم أو عقولهم، فترجئ مشوار الخلاص ويخسر الإنسان وقته وما هو اخطر من وقته، يخسر الأمل فى التحقق على النحو المأمول والذى يطوف أمنيات تسرح ولا تحط فى المكان أو الزمان اللائق، لعلنى لا أبالغ لو قلت إن المنصور الذى صار أبى خسر فى الزمن التالى لتاريخ عقد قرانه أكثر مما توقعناه على النحو الذى شفناه، ربما أكد وزود الخلاف بين الرجل وابنه وأزاح الصلح الممكن، لأنهما تباعدا لمنطقة الاستحالة بل والقطيعة الكاملة بينهما مترسما خطى ابيه الذى خسر اهله وناسه بسبب اندفاعه وراء تلك التقاطيع التى تدربت وتملكت الجسارة كلها ولا نعرف من الذى دربها، شيطان أو وسواس خناس كان يتربص به لخمس سنوات وأزاحه بعزيمته وصار بؤرة لجماعته التى كانت قد افتقدت الأمل والرجاء فى عودته، لكنه عاد إليهم بعكس ما جرى مع المنصور الذى صار مثالا لرجل تحكمت فيه المخاوف من التراجع وأبقى قمر معه لزمن طال، متواطئا ضد نفسه دونما تبرير غير الجبن من الخروج من جب غويط لم ينل منه أى شئ، بهدف مواصلة الحياة وتربية الكيان الوحيد الذى انجبه، وحكاياته ممدودة لكنها قابلة للاختصار الذى يؤدى إلى تركيز

المعانى أو الأغراض ، والكثير من الكلام المطوط ينضاف بلا معنى، وكأنه مدار لساقية لا مخرج منه بلا مسارات بديلة تنضاف للمساحة التى لم يتجاوزها حيوان فى مدار، هى بوادر النهاية إذن بحساباتى لكننى لن اضن عليكم بما استشعرته على امتداد أعمار جدى وجدتى وأبى وأمى وآخرين لم يلعبوا أدوارا تستحق منى الالتفات فتجاهلتهم، لكن مسألة الجسارة فى المواجهة كانت اهم ما كنت ابحث عنه لكى تتبدل الأحوال ويعيش البشر حياتهم بعزيمة اقوى ومقدرة على الخروج من دوائر المواصلة بغير قناعة أو ارتياح مكتمل لتتحقق انسانيتهم.

•••

كانت ازمة المنصور فى تلك المرحلة من حياته متشعبة اكثر من اى فترة سبقتها، فالأب الذى خاصمه وانقطعت بينهم خيوط التواصل يعيش وحيدا وإن كان يأتنس بالغندور ويسلى نفسه وقد أغضب أمه الغندورة لأنها خالفت تعليماته وأوامره وسارت مشوارا لتحقيق رغبة المنصور التى لم يوافقه عليها مع كل اهله للزواج من قمر لأنه اعترض مثل كل اهله وناسه من الارتباط بها، لكن الغندورة تدخلت وتعهدت أن تكون هى الوسيط دون دعوة أو رغبة حتى من المنصور نفسه، لتؤكد لكل من حضروا أنها صارت تهيمن على الرجل، وقد قللت قدره أمام ناسه وعلى نحو يكيده ويفقده هيبته وثقته فيما تبقى له من العمر، لأنه يأمرها وتعصى اوامره، أما المنصور فقد كان يشعر أنه لم يتسبب فى عصيانها أو تمناه أو فكر فى طلبه منها، لكنها حضرت ليلتها وتوددت بحرفية مكشوفة لهم، كانت غضبتها سببا لفعلتها والكلام السارى حول تصميم الرجل على تطليقها لم يتخيلوه على هذا النحو المتسارع لأنه حسبما قيل أراد أن يضمن حضانة الولد فإستأجر المحامى الأشهر فى كل المديرية ليتولى قضيته ويثبت عجزها عن تربيته خلافا لقدرة

الرجل على تعليمه ودفع تكاليف رعايته لأى واحده بأى اجر تطلبه وسعى المحامى باطراف الناحية بدا محسوسا وهو يستوثق من شهود لهم هيبة لضمان ضم الولد لآبيه، كان يبشرهم أنه سوف ينجز مهمته فى اقرب وقت لتخرج الغندورة من المولد الذى نصبته بلا مردود وبدون حفنة حمص تسليها فى وحدتها، وقد شاعت أخبار كل ما سلبته من دار الحاج إبراهيم وسربته سرا وعلنا لناسها، والمكان المفتوح يعلمها النهب أكثر ويجعلها تتمنى العودة إليه بعدما إنسك تماما وتأكدت من خسارة الغندور فرتبت نفسها لتبعد فترة عنه أو تتناسى ما كان متاحا لها فى ايام هيمنتها المؤكدة إلى حين تتاح لها فرصة جديدة

●●●

تحول المنصور إلى بؤرة مغضوب عليها من الغندورة لأنه سبب لها بحساباتها أضرارا لم تتخيلها بعد عصيانها لأوامر الحاج إبراهيم على غير توقع، فاستخسرت قمر فى المنصور بعد سعيها لعقد قرانه عليها لأنه الآبن الأكبر لمن كان يسترها فى نهاية المطاف، لكنها هانت على الرجل بلا مقدمات وأعادها إلى حيز لا يليق بها بعد ان أفلحت فى خراب داره وطرده لابنه وطلاق زوجته بحسب إرادتها فى مرحلة تالية، وكانت بإصرارها على إدارة داره وحياته محسوبا عليها لأنها تحكمت فى كل شئ يخص الدار التى أنها دخلتها بشبه فضيحة،باعترافها أمام كل من حضروا المجلس أنها سلمت نفسها للرجل باختيارها لأنها عشقته غصبا عنها، ولعلها كانت حيلة رخيصة لتحقيق مطامعها أكدت أنها امرأة قادرة على التحكّم فيمن يستجيب لرغبتها وهى تعامله كأنثى دونما حياء أو خجل، ولعل ميراثها عن جدتها المجلوبة التى اشتراها سلطان المسلمين فى الزمن الفائت عاشقا من سوق نخاسة لتكون بين حريمه وتشبع رغباته، لكن السلطان عندما مات

وتوزع ميراثه على ورثته وأتباعه الذين يحكمون ويتحكمون فى مصائر عباد الله، وكانت بين ميراثهم من الحريم والجوارى مع عبيد باعوهم لمن يدفع الثمن اللائق بهم، وتفرقوا بأطواق العبودية الملفوفة حول أعناقهم، لكن سلالتها كانت تنتشر فى كل اركان الأرض وتعيش بعد رخاء القصور على الفتات والفتافيت وبقايا الوجبات لعمال المصانع أو تجارة المخلفات لمنتجات الغيطان مثل التبن والحطب والبرسم والحشائش وغيرها، غير أن الجدة قفزت لأعلى وصارت دليلا يستشيرونها فى أمور كثيرة، ولانها عبرت حاجز السلالة ودخلت المنطقة الآمنة بحيلها التى فاحت روائحها بأرض البرارى والنواحى المجاورة، وصارت على رأس سلالتها بملامحها الواعية والجميلة الفاتنة القادرة على اجتذاب نظرات العيون وغزو العقول والمشاعر والرغبات، ربما كانت الغندورة حفيدتها المميزة مع من جاءوا للكفر وعاشوا فى هامشه يحتالون أو يعملون لكى يواصلوا الحياة فى العشش على حافة الترعة الكبيرة اولا قبل أن يمتلكوا الدكاكين وقراريط الأرض ويتاجرون فى الممنوعات لتحصيل الرزق، يتقربون من عساكر المركز والمخبرين لضمان حياتهم مع من تحكمهم المديرية الجديدة التى زحفوا إليها وتعايشوا مع ناسها، ولعل الغندوره كانت دليلهم الموثوق برأيه فى كل شئون حياتهم، ولابد ان المغاورى استرشد برأيها فى المنصور قبل أن يستجيب له ويتعجل عقد قرانه مثلما كانت زوجته أم قمر تختلى بها وتعرف تفاصيل حياته التى كانت تعرفها من خلال حياتها مع الرجل مع ما يتناثر من اخبار عنه فى غربته، تنصحها بأن تترسم البنت خطاها مع ابنه كما فعلت هى خلال حياتها مع الرجل الذى أفقدته كل ما كان يميزه ويؤكد لناس الكفر امتلاكه للحيز المفتوح فى طرف الحوض القديم، وقد باحت لأم قمر بسر لم يعرف به احد وهو أن الأرض والدار البراح مكتوبة باسم الغندور ومسجلة بالحكومة

التى حولتها باوراقها لتكون ملكية للغندور دونما شريك له فى نهاية المطاف، وعلى هذا النحو صار المنصور بلا حق فى ارض ابيه ولا بيته وقد أكدت عليها وأوصتها بعدم البوح بذلك السر الخفى الذى لا يعلم به احد، وربما ينكره الرجل أمام نفسه وامام الناس لكنه مؤكد وجاهز للإشهار والتنفيذ فى الوقت الذى تختاره، وعندما سألتها أم قمر كيف فعلتها رغم انها مفصولة عن الرجل أسكتتها وطالبتها أن تكون فى حالها وحال قمر، ساد صمت قطعته ام قمر بسؤالها عما تشير عليها به لمصلحة البنت وجهازها بتكاليف لا يملكونها ولا يعرفون كيف يبلغون المنصور بحالتهم، كانت قمر فى المكان تسمع وتختزن ما يخصها فى الأمر كميراث المنصور الذى تبخر مثل محتويات ماعون فيه ماء وتحته نار موقدة لا تنطفئ لأن من يتابعها يضيف للنار حطبا، كانت ترغب فى الاسترشاد بوصايا الغندورة لتحقيق ما تتمناه بأمان، وما دام المنصور لن يمتلك ميراثه فى مستقبل الايام فقد كانت مطالبة بتكليف المنصور بأن يجهز مسكته، أن يشترى ما يراه لائقا بمسكن يعيشان فيه دون الاعتماد على أهلها كما قالت الغندورة، ربما أوضحت لها أنها لن تكون آمنة على حياتها معه لو بخل عليها أو اعترض على مطلب من مطالبها لأنه سيكون غير مأمون عليها ولن يريحها مثل أبيه، وشاكية بانكسار ذكّرتها بما فعله والده معها، وذكرتها بأنها تملك شبابها وفتنتها وقدرتها الفطرية على التحكم فى كل الأمور قبل أن تقع الفأس فى الرأس، ونصحتها أن تبوح له بحالتهم ليوفر لها ما يحتاجه البيت من أشياء لازمة حسب قدراته فهزت رأسها بأنها ستقول له ما سمعته، فربتت عليها امها استحسانا لاستجابتها، راحت تدعى للغندورة التى هى اعقل واحدة فى الدنيا وأضافت أن المنصور سيسمع ما تقوله ويستجيب لمطالبها إذا كان يحبها فعلا ولم تكن تملك غير الطاعة وصارت تطالبه بتنفيذ كل ما يطلبه

الأب والأم لأجل راحته وراحتها، فتنال تقدير الأب والأم والغندورة معا، لعله عاش مرحلة التأرجح بين الخروج الآمن أو مواصلة المشوار المطوط على عكس إرادته، وبلا قبول من أهله وناسه لأن الخلاف كان قائما والخسارة مؤكدة، وربما تعايش مع الحالة مغلوبا على امره خاسرا ما كان يحلم به أو يتمناه ولو كان تهاونا واضحا فى رأى الجميع

•••

كانت زياراته للكفر تتكرر دون أن يجرؤ على التوجه لدار ابيه غصبا عنه، ولو تقابل مع واحد من اهله وناسه يتحرج ويتوارى أو يدير وجهه خجلا من المواجهة، ويشعر بأنهم أسقطوه تماما من حساباتهم بتعليمات ابيه، وما عاد يتجاسر أن يفاتحه فى أى أمر، لعله استشعر المرارة من غضبة الجماعة دون أن يعرف للمأزق مخرجا، فيلوم نفسه احيانا أو يهوّن الأمر على روحه لكنهم كانوا فى خلاياه كجرح لم يندمل نغص عليه ما تصوره جسارة محسوبة تتوازى مع ما قيل عن أبيه الذى سعى لتحقيق صلح بين أسرتين، لكنه كان وهما لم يتحقق أو تظهر له أية علامة إيجابية برغم اليقين بداخله أن المسألة لم تكن كما فكر فيها حيلة يراوغ بها الأب ليحقق امنيته وهو يتوهم انه يقلده مستعيدا ما قاله الناس أيامها أن الأب تعمد أن يخفف العداوة التى طالت أو يهدئ اعصاب من عاشوا اسرتين عند حافة العراك بصلح زائف انكشفت مبرراته، وعندما مرت الأيام وباح الناس بما شاهدوا تفاصيله لتلك العلاقة التى تورط فيها وأكدت له أنه خسر أهله وناسه خمس سنوات متواصلة، لكن الرجل كان قويا وقادرا على الصبر والتحامل على نفسه وخرج من المأزق بلا خسائر بحساباته وعاد لأهله على عكس المنصور الذى يختلف لأن اهله غفروا للرجل وصالحوه بعد خروجها من داره واحتفاظه بالطفل التى منعها من رؤيته

لكن الكفر تحول إلى عبء ثقيل لا يحتمل أو طيفا لكيان سعى أن ينشئ فيه علاقة الزواج بقمر، وقد تصورها مشروعا صالحا لم يحققه أى واحد من ناسه بجمالها وخفة ظلها، لكن زوجة ابيه لم تكن بعيدة عنهم ولعلها سعت لتعويقه لأنه كان يراها هناك ولا يملك أن يسألهم عن أسباب وجودها وهى من اهلهم وصار تائها من داخل الداخل، كان يراها وداخل عينيها غلاّ مخفيا وتشف بلا تفسير غير الكراهية المدفونة وهى تقف متحفزة بينه وبين من سعى ليعقد قرانها بمساعدتها غير المفهومة دون تكليف من احد، لكنها عندما وصلت لنهاية مشوارها بدار ابيه كانت تتأمله وتحيط قمر بين راحتيها وكأنها تحميها منه أو تبعدها عنه، ولو شاءت أن تزود مواجعه تحدثت عن القضية التى اقامتها ضد ابيه والغندور فى بيته وهى تطالب بضمه وحرمانه منه وتحكى نوادره، أو تؤكد أنه صار عاجزا عن الحركة يخرف ويسبّها ويلعنها ويلعنه ايضا لأنها وقفت فى صف المنصور واكملت مشواره، وضد مصالحها خالفته وصارت عدوة للرجل، وصار المنصور عدوا لها ولكل اولاد شلبى، تقوم قمر من المكان ويتحول الحوار لكابوس لا ينتهى إلا بخروج المنصور بعد أن يبدى إستياءه فتتحول الزيارة إلى همّ جالب للغّم حسبما كان يقول لنفسه ولا يملك الخلاص

يتصابر ويزور أمه باحثا عن التعاطف الفطرى فلا يلقاه، وتعامله بحياد كامل، أو تؤدى مطالبه طعاما وشرابا أو ارتياحا من مشواره بالرقاد، كم منع نفسه من فتح المواضيع التى تقلقه كلما زارهم وكلفوه بمزيد من المطالب، يتماسك ثم ينفلت الكلام غصبا عنه بمرارة، فتهز رأسها ولا تعقب بأكثر من بعض الدعوات:

– ربنا يقدرك وتجيب لهم اللى يرضيهم

– يا أمه دول بيلاوعونى ف معاد الجواز

- ما دام كتبت كتابك، أطلبها ف المحكمة

- ف المحكمه يا أمه؟

- عندك حل تانى

- ما تقولى لأخوالى يطلبوها

- أخوالك مش قابلينهم ولا بيعاملوهم

- امال أروح لمين؟ هو انا انقطعت من شجره؟

- إيوه يا منصور، انقطعت من شجرة العيله

- كتر خيركم، يعنى أنا؟ استاهل دا كله؟

- إنت عرفت يا منصور، مرات ابوك عملت أيه؟

- عملت ايه يا أمه؟ ما هى مطروده م الدار ومحرومه حتى تشوف ابنها، ابويا ما نعها تشوفه

- بيقولوا إنها قبل ما تغضب، كتبت الأرض والدار للغندور ملك، وهى الوصى عليه

- معقول يا أمه؟ معقول الكلامده؟ دا إتعارك معاها قدامى لما قالت له يكتب لها وللغندور حته من الأرض

- أهو بقى لهم حقوق يا منصور، انت مستنى إيه؟

- عايزانى اعمل ايه يعنى؟

- تخلص بنتهم، وتخلص روحك م الدخنوق ده

- واللى دفعته وإللى اشتريته؟ دا الدهب لوحده،،،

- ما تحسبهاش، وخلص روحك، أنا قلتها لك، وأنت حر

- أنا ح انزل

- عايز تهرب م الكلام مع امك؟ إهرب من نفسك كمان

يجلس متهالكا بعد أن هم واقفا يتلفت حوله، ويتنهد بحرقة، ومرة اخرى ينفتح الحوار فى نفس الدائرة دونما بارقة امل، ويبدو عليه التعب فتنهى الحوار وتنسحب ثم تشد الباب خلفها ليرتاح، يصل لغفلة متهالكة ثم يسمع المؤذن يدعو الناس لصلاة الفجر، فيشعر بالفزع لعجزه عن النزول للوضوء وربما ينام بغير رغبته ثم يصحو بعدها بعدة ساعات، فينزل ليتناول وجبة افطاره الجاهزة ويسلم عليها أو يقبل رأسها ويخرج فتتابعه حتى يختفى وتحبس دموعها بعسر، وربما تصلى وتدعو له براحة البال والرزق الوفير

•••

هامش (١٥)

على نحو غير مفهوم كانت قمر تبدو له بعيدة المنال رغم ما أعطاهم من ماله ليساعدهم فى تجهيزها ، لكنهم لم ينجزوا شيئا، وبدا له أنه سيعيش وحدته وزوجته تحيا بعيدة عنه وممنوعة من وصولها له أو محجوبة بفعل فاعل أو مجموعة فعلة، وكان يلف ويدور بمسكنة بحثا عن ظلها فلا يراها، وكوابيس تحاصره وتهيمن عليها تماما وتدفعها دفعات قوية لتبقى بعيدا عنه كأمنية لن تتحقق، حتى فى مناماته كان يراها أكثر بعدا عنه وهو يقترب منها ولا يجدها،ولو وجدها طيفا تباعدت وتعلّلت بعادتها الشهرية، ويتكرر الكابوس والعادة تمتد لعدة شهور متعاقبة، والمستحيل احيانا يتحول إلى رغبة عارمة تدفعه لاقتحام حصونها الصلبة التى لا تتيح له الاقتراب لرؤيتها أو تخيلها راقدة بجواره جاهزة لتمنحه العشق المرغوب، لكنها كلما اقترب تباعدت عنه، فهل كانت الكوابيس مقدمات واقع سيراه ويعيشه معها؟ ربما، وربما كانت رغبته تتجسد امام عينيه ولا يطالها، كأنها مستحيل متباعد ليزود العبء ويحاصره، وتعالوا لنراه معا ليتاكد لكم أننى كنت طيفا يسرح فى الفراغ، لكننى اتحسس المشاعر وارصدها

ولأننى كنت هناك مشروعا حبيسا وراء الأبواب لكنه آت فى البعيد البعيد فقد طمأنت نفسى وطمأنتها فى الخفاء مثلما طمأنته، وهى فى الشهرالسابع وهو يستمد منها ما ظلت تخفيه عنه وقد تجردت تماما من كل ما يسترها على غير رغبتها، تتقلب بوهن فى الحيز المتاح لضوء القمر الخافت ساعة المحاق، وتسمع انفاسه وتثق فى وجوده وانه يشاركها المكان، كان هو فى الناحية الآخرى كيانا مشحونا بالمواجع والندم الكامن فى الحشايا، يطل إليها قبل أن يخرج من منطقة العتمة المكتملة، فيتبدى لها كابوسا ملحاحا ينوى ان يقبض روحها لو تمكن منها لو استسلمت له أو نالها غصبا عنها، كان حسبما قالت عنه الغندورة ليلة الدخلة سوء حظ وقد صار نصيبها وقدرها المكتوب لها ليشاركها المسكن والأنفاس والمأكل عسلا أسود انقضى وعادتها الشهرية المقطوعة محمية بجنين تحمله ويتطلب الحرص والتباعد عنها حسبما تقول، اليس من الممكن أن يكون للطيف ذاكرة تتجلى وتتأكد احيانا؟

●●●

بعد الفرحة التى توهم أنه اختطفها خطفا صارت عبئا لا يحتمل، كانت تتمنع وتتمنّع وتزيحه بعيدا عنها بعناد بغلة رغم تقاطيعها المبهرة وتقاسيم البدن التى تحولت إلى فخ منصوب سقط فيه، وأيامه تمر متثاقلة وقاسية فيتصابر غصبا عنه ويعاود المحاولة لأنه صار فرعا مبتورا بلا صدر حنون يجرؤ على الاقتراب منه ليتشكى، ثلاثون فجرا ثقيلا وطلوعا لكل شمس دونما نعاس أو راحة لبدنه أو إطمئنانا يدخل قلبه أو حلما أو وهما مخادعا يعده بأن تتبدل احوالها، كانت تطل نحوه متجهمة وغير مستجيبة لرغبته الحلال، وكانت تبدو له مثل دمية بملامح مألوفة أو غير مألوفة فيسأل نفسه عن أسباب تباعدها عنه وكيف طالت وامتدت لأيام عاشوها دونما توافق

حقيقى، تحامل على روحه وتردد ثم رفض أن يخرج من المصير المرفوض بالعنف الممكن لا خوفا ولا خجلا ولا عجزا عن الفعل، كان يتفرج على روحه وينتقد نفسه، لأنه بالفعل صار عاجزا عن الفعل على النحو الذى تمناه وتخيله ولم ينله حسبما تصور أو تمنى، والكابوس الساكن بجواره ثابت ورافض أو متعنت ويلزم أن ينزاح.

•••

فى تلك الليلة فكر أن يتوجه لدار أبيه وقطع نصف المشوار لكنه التقى حسين افندى الذى سأله عن وجهته، فلما باح بأنه ينوى زيارة ابيه ضرب كفا بكف، ثم سحبه لمعكوس وجهته وحكى له المخاطر التى يمكن أن يتعرض لها لو دخل الدار وواجه الرجل الذى أقسم أن يحاسبه إذا رآه، ولم يكن خوفه من ابيه وحده أو من المواجهة بل كان مضافا إليها الخجل والقلق على صحة الرجل الذى كان فى اخر لقاء يبدو له متهالكا وقد رآه يبكى لأول مرة فى حياته امامه، وتحمل خجله من نفسه وابنه واخوته وأولاد عمه لأنه كان يقول للكل كلاما يعلمهم الصمود والصبر على المخاطر حتى ولو واجهتهم وتأكدوا من قسوتها:

- الراجل اللى بحق وحقيق ما يعيطش

- ربنا يقويك ويصبرك

لكنه بكى ليلتها واسقط آخر درع كان يحميه من الشماته فيه من أى خصم أو عدو، لأن صموده وقدرته على الاحتمال كانت بلا حدود، فهل كان من الممكن أن يذهب إليه المنصور وهو يتوعده؟ تعلق ليلتها بذراع حسين افندى حتى وصل لدار امه فأمسك به لأنه الإبن الوحيد صاحبة الدار يدعوه ليتفضل معه، وكانت هى بالقرب من الباب ففتحته ودعتهما للدخول معا أو الرحيل معا، فتاه المنصور وسألها عن مقصدها فهزت رأسها وردت بحياد:

– خش يا منصور، لجل خاطر حسين افندى

فدخلا، دخل حسين افندى أولا ليتيح للمنصور فرصة الراحة بعد تعب المشوار الذى قطعه من البندر إلى القرية وبعده المشوار الذى لم يكتمل لدار ابيه، ولم يكن لديه غير امه التى كانت تنظر لحسين افندى مستطلعة، فيهز رأسه نفيا والمنصور يتعجب لتلك اللغة بين المنصور وامه، ولعل المنصور قالها دون وعى وبصوت خافت للأم التى بدت له قلقه تماما:

– كان رايح عند الحاج، وأنا اللى منعته

– ومنعته ليه ، كنت سيبه يعرف إللى حصل له لأبوه

– إنتو بتقولوا ايه يا جماعه؟ انا مش فاهم حاجه خالص، دا انا كنت رايح أصالحه، هو حصل إيه؟

وبصوت يحاول أن يبدو محايدا قالت ما سمعته وسمعه الكل عن ابيه وقد تخلص من الغندورة وحجز الغندور عنده ثم رفع قضية ليضم الولد، لكنها قدمت للمحكمة اوراقا تفيد بيع الرجل ما يملكه من الأرض والدار للغندور بوصاية امه لتطالب بضمه ورعايته كطفل يحتاج لرعاية الأم، ومن بين اوراقها عقود الملكية المنقولة والموثقة بوصاية الأم، كان الكلام الذى سمعه يشكل كابوسا لم يتخيله ابدا، فها هى زوجة الأب تحتال على الرجل وتحصل على عقد ملكية لأرضه وداره مختومة بختمة وموثقة بالشهر العقارى، ولا يدرى أحد كيف حصلت على هذا العقد ولا متى وكيف أتيح لها أن تسجله ليتحول الطفل لمالك بوصاية أمه وهو محبوس فى دار الأب بالقوة والتفاصيل عند المحامى المشهور الذى يتولى قضية لا تطمئن، ساد الصمت ثم قام حسين افندى وودعهما بالإشارة، بقى المنصور امامها عاجزا عن الكلام أو التعليق على ما قالته أو حسين افندى فى حضورها بما يؤكد أنها حقيقة مرتبة بمؤامرة محكمة ومدبرة للرجل، وبدا أن الكابوس المخفى ينكشف امامه وحاول أن يفسر كل ما كان يحيطه عند قمر وأهلها والغندورة وقد لبدت بدارهم دون أن يعرف أو يستنتج المبررات

•••

كان قبل زيارة أمه قد تبدى له ممكنا أن يذهب لدار قمر فوجه مساره نحوها وهو يستعيد آخر لقاء بينهم وبينه وقد كانوا يؤجلون ويرجئون فرحته، يسألونه عن المزيد من مستلزمات البيت الذى كان جاهزا بسبب شكاياتها من فقر أهلها، وكان قد اشترى لها ذهب الشبكة التى تليق به فى البدايات فصاروا يدورون بها ليراها الناس فى كل البيوت التى يحق لهم دخولها، شاعرين بالتباهى والفخر لأن ابنتهم نالت افضل شبكة قدمها عريس بكل الناحية، وكان بعد أن طلبت منه شراء النحاس اللائق قد اشتراه وناولهم الفواتير التى تتضمن أوزانه وأثمانه ليكتبوها فى القائمة التى وقع عليها قبل أن تدخل قمر داره بحسب ما قالوا، كما وافقهم على تبديل حجرتى النوم والصالون بحجرتين من الخشب الزان المزين بالأرابيسك من تاجر موبيليا كبير فى دمياط تعرف على ابنه فى لقاء عابر وقد جاء ليختار افضل ساعة جيب لوالده كهدية فاوصاه بشراء افضل نوع وأكرمه فى سعرها فصار شبه صديق له يلتقيه بشارع خيرت كمهندس وصاحب شركة مقاولات يديرها وقد وعده بأن يدبر له مسكنا اكثر رحابة فى نفس الحى ونفس الشارع، لعل أهل قمر لم يشعروا بأى خجل وهم يبوحون بأنهم يعانون من الفقر وضيق الحال، وأنهم يعجزون عن تجهيزها أو المشاركة ولو ببعض المساهمات كما يفعل من يحاولون المساعدة، فاشترى لهم قماش التنجيد ودفع ثمن القطن واجور من يتولون التنجيد حسبما قالوا، لعله تأكد أن البيت لم يعد ينقصه اى شئ حسبما رأى بيوت الناس من حوله، وعندما كان يسألهم عن قمر ليراها لا حس ولا خبر، كأنما يخفونها عمدا ويمنعونها من التواجد أمامه كما كان يحدث فى سابق الأيام وكانوا كلما طلب تحديد موعد لإكمال الزواج لينقلها إلى بيته، يؤجلون أو

يرجئون لأسباب غير معلومة، والغندورة تأتى وتتعلل له وتبرر وتبدو كما لو كانت ولية لأمرها والمنصور يتحامل على نفسه تحاشيا مجادلتها ويستأذن، فيقوم الرجل بتوصيله إلى السكة الزراعية ويحاول طمأنته بأن كل شئ يتمناه سيتحقق، وبأن قمر سوف تكون معه قريبا لتشاركه الحياة طوال الزمن الآتى وربما ينصحه بالصبر فيسلم عليه مودعا ويركب أى مركبة فى طريقه للبندر

وكان المنصور يستعيد فى كل مرة يسمع فيها هذه العبارات ما سمعه عدة مرات من جاره فى السكن الذى كان يتابع اخباره، يسمع ما يقوله ويبدى اندهاشه من تلك التأجيلات ومعلقا على كل ما كان يسمعه من شكايات بنفس العبارة:

- الصبر قبر يا صاحبى
- أعمل معاهم ايه؟ نورنى
- الصبر قبر يا صاحبى

•••

جاءهم مشحونا يسألهم بحدة عن اسباب تأجيلاتهم المتكررة وقد كانت بحسابات الكل بلا مبرر، ردوا عليه بنعومة وأفهموه أن " العروسة " لم تتأخر عنه بإرادتها لكنها كانت تعانى من وجع فى اسنانها فعالجتها وصارت سليمة، تسلمت فستان فرحها وجربته فاطمأنت وفرحت ورتبت ثيابها فى الحقيبة، ودخلت قمر لتجلس بجواره فشعر بالنشوة وسألها عن اسنانها التى تفاجئه دائما فى المناسبات السعيدة فضحكت وكان الأب والأم يجلسان بالمكان بلا حركة، وعلى نحو غير متوقع جاء العشرات من اقاربهم ليملأوا المكان واحاطوا بهم من كل جانب، سمع زغاريد احتفالية لم يكن يتوقعها، وقامت قمر بعد إشارة من أمها وخرجت ولم يطل غيابها

ودخلت فى ثوب زفافها متألقة كما رآها الجميع باسمة وجلست بجواره، جاء افندى سمين لم يلتق به قبلا ليجلس قبالته باسما قبل أن يطالبه ببطاقته وأى إيصلات يحتفظ بها بخصوص الأثاث أو مستلزمات البيت، وباسما مرة أخرى ليوضح له:

- أنا جاى اكتب القايمه، والف مبروك

- الله يبارك فيك

قالها وأخرج من بطاقته ما يحمله من إيصالات كان يحتفظ بها، مد المغاورى يده ليضيف لها إيصالات احتفظ بها وقد كان يطلبها منه لكتابتها فى القائمة كما كان يقول للمنصور، كتب الرجل كل المحتويات المتاحة على مهل وصار يجمعها ويراجع ما جمعه ثم طالب المنصور بالتوقيع عليها وأخرج الختم ليضعه على الصفحة التى وقع عليها شاهدين اختارهما، وناول القائمة للأب ليحتفظ بها بعد أن قال لكل المجموعة المبلغ المسجل بالقائمة الموقعة والمختومة، صفقوا له وهزوا رؤوسهم تقديرا لدقته التى أكدت براعته وقدرته على كتابة قوائم تحمى بنات الناس فى مستقبلها ولراحة أهلها وناسها، وكان ينظر للمنصور ويتودد له ثم انطلقت الزغاريد ودقت الطبول التى جلبوها بداخل المكان وخارجه وتبادلوا مع الرجل والمرأة والعروس التهانى، سمعوا أصوات زمارة لسيارة مخصوص مستأجره لتوصيله مع قمر للقاهرة فقام ومد لها يده لتستند عليها وركبا ومعهما امها وأبيها وابن عم لها لم يره قبلا بالمكان، تحركت السيارة مع الطبل والزمر المتواصل على جانبى الشارع وبدا له أنه طال، لكن كل من كانوا يطبلون ويزمرون كانوا من اقاربهم ولم يكن بينهم واحد أو واحدة ولا حتى طفل من اهله وناسه، وكأنه غريب مخطوف إلى بيته مع عروسه تمناها وخالف الكل من اجلها وامها تواصل الزغاريد كإعلان لوجودها فى السيارة أو إعلان

للفرح حتى خرجوا من الكفر وسارت السيارة فى طريقها للقاهرة والصمت غالب، وكلمات مقتضبة تقال همسا بين الرجل وأمها وابن عمها حتى وصلوا للقاهرة ونزل ابن عمها فى مدخل المدينة حيث يسكن كما قالوا بعد نزوله صامتا، وواصلت السيارة مشوارها لمسكنه إلى شارع خيرت ووقف أمام البيت بلا وصف أو سؤال وكأنه يسكن فى نفس المكان، كان المنصور طوال الطريق يكابد وحدته بلا اخ أو عم أو ابن عم أو خال يشاركه فرحة خاطفة لم يحسب حسابها على هذا النحو أبدا، لكنه هون على نفسه الأمر ودخل بيته وطلع درجات السلم، ثم فتح باب الشقة وافسح لها لتدخل بثوبها الأبيض قبله ويجلسها على اول مقعد يصادفه، كان سايرهم ورد على أسئلتهم بينما يتفحصون محتويات الشقة ويتبادلون النظرات، يدعوهم للجلوس ثم يسأل السائق عن الأجر الذى اتفق عليه فيحدده، فيهز رأسه ويدفعه ويضيف له جنيهين كإكراميه فشعر بالارتياح، عندما طالبه الأب أن ينزل معهم ليريهم دكانه استغرب مطلبهم وذكرهم أن الليل قد انتصف ولا يحق له ان يفتح الدكان فى هذا الوقت، فتمدد الأب على كنبة أما الأم فقد اشارت لقمر بيدها لتقوم وتتجه لحجرة النوم وهى خلفها

دخلت قمر حجرة النوم وجلست على طرف السرير ثم خلعت العقد المعلق فيه الساعة وناولته لأمها فوضعته تحت الوسادة ثم وقفت قمر وسألته عن دورة المياه فاقتادها إليها وانتظرها حتى خرجت بثوب زفافها، بدا مدهوشا لأن امها تمددت على السرير وأشارت لقمر أن ترتاح بجوارها ثم التفتت للمنصور وقالت له:

- أنا عايزه اقول لقمر كلمتين

- وماله، قولى

- كلمتين سر

- يعنى اطلع؟

- إطلع

- ماشى

وخرج المنصور مدهوشا وانسك الباب خلفه فزاد اندهاشه، ثم رأى الرجل الراقد على كنبة فى ركن الصالة، صامتا لا يتنفس بصوت وكانه فى غيبوبة الرقاد بعد التعب فجلس وعيناه على باب الحجرة الذى بدا له أنه لن ينفتح لكنه انفتح وخرجت الأم وقمر التى كانت بثوب زفافها وتمسك بطنها والأخرى تربت عليها:

- على مهلك يا ضنايا، على مهلك

- هى مالها

- بطنها بتوجعها

واقترب منها ومد لها يده وكأنه يسندها قبل أن يسألها:

- انتى حاسه بإيه؟

- بطنى فيها مغص ، ونسيت اجيب الدوا م البلد

- اسمه إيه، وانا انزل اجيبه لك

- وهى ح تعرف اسم الدوا كمان، اهو ف علبة صفرا

بذلك ردت الأم عليه، فهز رأسه وتفكر إن كان من الممكن أن يأخذها إلى المستشفى القريب بثوب زفافها ثم اقترح عليها:

- غيرى هدومك، وأنا ح اوديكى المستشفى، قريب، بس غيرى فستان الفرح

- مش ح اغيره، ولا ح انزل

- سيبها ترتاح م المشوار، قومى يا قمر يا بنتى ومددى ع السرير، قومى معايا

هكذا قالت أم قمر لها فسمعت الكلام وتساندت عليها حتى ادخلتها الحجرة ورأتها وهى تتمدد على السرير،والمنصور ساكت وتائه وقلق عليها وهى تتمدد بثوبها على السرير، وأمها تخرج وتشد باب الحجرة عليهما، فاحتار فى امره وجلس على المقعد المجاور لقمر ليسألها عن حالتها هامسا فلم ترد كأنها راحت فى غفلة النوم العميق، وربما كان يشعر بالجوع لكنه احس بالحرج لأن قمر كما قالت أمها كانت تعانى من المواجع بمعدتها والرجل كان يتمدد فى غفله على الكنبة وأمها التى خرجت سحبت الباب وراءها فشكلت فاصلا بينها وبينه ولم يكن هناك غير الانتظار الممدود غير المبرر على أمل أن تصحو قمر ويكون له معها حوار

•••

كانت أم قمر تضع عقد الياقوت والساعة تتألق على صدرها بلا تبرير بحساباته، وتخيل أنها تجربه أو تطمع فيه وتختبر رد فعلهم، وكانت قمر تنظر إليه وكأنها تحذره من سؤالها عن العقد الذى لا يخصها وشافت النظرات المتبادلة بين المنصور وقمر فتحنحت ثم تحسست حبات العقد وساعته قبل أن تقول ضاحكة:

– أنا شفت العقد محطوط ع التسريحه، قلت اجربه ولقيته حلو، بس مبروك على قمر، انا ح اقلعه قبل ما نسافر

– خلاص يا أمه، لو كان عاجبك خديه

– وده يصح برضه، آخد هديه جوزك، دا استخسرها ف الدنيا كلها وإداها لك

– ما هى بنتك ، واللى معاها مش ح يغلى عليكى

– يا ندامتى، ابدا، ابدا، انا ح اقلعه دلوقت حالا

وخلعت العقد وناولته لقمر التى تحيرت وهمست بكلمات غير واضحة قريبا من اذن الأم التى كانت تهز رأسها هزات لم يفهمها، لكنه توقع أنها ستأخذه نهبا أو خطفا مبررا بحساباتها وغير مبرر له ولا لقمر واستنتج أنهم جاءوا تلك الزيارة وسوف تطول اقامتهم ليستبيحوا أى شئ يبدو لهما مستباحا فى بيته؟ وتذكر الغندورة متخوفا أن تكون طبيعة السلسال متطابقة بارعة فى نهب المتاح لها مهما كانت ضآلته أو أهميته، ولعله لاحظ أن وجوده ـ معهما فى الأيام المتوالية بتثاقل قد أجبره وأجبر قمر أن تتباعد عنه رغم أنها كانت هدفا سعى إليه بكامل ارادته، لكن أمها ألمحت له بأن عادتها الشهرية جاءتها على غير موعد وبدا له انها تبرر ترددها وخجلها الزائد لأن الأب والأم ظلوا معهما على نحو لم يتوقعه، عاشوا معهما عشرة ايام، فى نفس المكان وربما فرضوا عليهما الاحشام فى وجودهما ولم يجرؤ أن يسألهما أو يسألها عن تلك الضيافه الممدودة التى بدأتها أمها بمطالبته فى أول يوم يأخذهما لدكانه ليتفرجا عليه ويطمئنا على مستقبل قمر معه، وقد سألوه عن مكاسبه التى يحصل عليها فى كل ساعة يبيعها أو يصلحها، وفى يومهم الثانى طلبوا زيارة مقام السيدة، وفى ثالث أيامهما طلبوه ليرافقهما لزيارة الحسين والأزهر، وكان يرافقهما متحاملا على نفسه وهو ينفذ طلباتهما ويدعوهما لوجبة من وجبات البندر التى سمعوا عنها ولم يجربوها، فيتناولا الوجبة ويقهقهان بمرح زائد، فيتأكد أنهما تحولا لضيف ثقيل يمد فترة وجوده فى المكان برغبته الخاصة فى الوقت الحرج بالنسبة لهما ويحاولان تجاهل كل شئ، فيتحامل على نفسه لأنهما قدره المكتوب الذى جاء لكى يحجب الفرحة عن قلبه، وعليه أن يتصابر ويتحامل ويضحى من أجل قمر مثلما ضحى بعلاقته مع أهله وناسه لتحقيق غرضه، كان يتحامل غصبا عنه لأجلها حتى ينزاح وجودهما

الكابوسى المتوافق مع عادة شهرية كانت تدعيها أم قمر طولت ضيافتها عن المألوف، تخيلها كابوسا بشريا توه عقله وسحبه لمسار يتوافق بحساباته مع من شافهم أو عايشهم أو سمع بهم فى مثل هذه المناسبات، وكانت امها تضع عقد الياقوت مرة اخرى فوق صدرها، لكن أباها فاتحه بما لم يتوقعه وباح بأسباب طول وجودهم هذه المدة وهو يسمع:

– كنا خايفين على بنتنا، وقلنا نشوف ح تعيش فين؟ وتقلنا عليكم شويه، بس ح نسافر النهارده

– بألف سلامه

– بس ح توصلنا المحطه، اصل احنا غرب عن البلد دى

– اوصلكم

عند باب الدكان تباطأ الرجل وصرخ فى زوجته معترضا:

– يا وليه خللى عندك دم، ساعة إيه بس؟

واقترب منهما متسائلا عن السبب فردت بخجل مفتعل وباحت بأنها كانت تتمنى أن يأخذ من دكان زوج ابنته ساعة ليضعها فى جيبه ويتباهى بها أمام الناس، لكنه صرخ معترضا، ولم يتوان المنصور عن فتح الدكان واختيار ساعة جيب ليقدمها للرجل الذى بدا فرحانا كأنه نال كنزا لم يحلم بامتلاكه يوما، وخرجوا من الدكان وكان الترام يقف فى محطته وكأن السائق ينتظرهم فركبوا وسار بهم، وفى محطة مصر ذهب ليقطع لهم تذكرتين للسفر وقادهما للرصيف المخصص لقطارهم، وعندما جاء ودعهما متعجلا بإشارة من يديه ولم ينتظر حركة القطار، كان يفكر فى امر نفسه ويحس انه دخل دنيا لم يتوقعها أو يتخيلها، ولم يبق له غير قمر التى صارت زوجته وفى بيته بحسب ما كان يتمنى

لعله فى مشوار العودة قارن متعجلا بين الأسرتين واندهش لأن الفوارق بدت له فوق تخيلاته لأنه تربى وسط سلالة طلع من نخاعها ورضع لبنها وتغذى من خيرها، وحفظ تاريخها أطنانا من المعارف غير المكتوبة رغم كونها محفوظة، والخبرات والعادات والأمثال المروية فى المواسم والأعياد واللقاءات العابرة الخاطفة أحيانا، فهل بدأ مشوار ندمه لخلافه مع أهله مدفوعا بحبها؟ أو سقط فى قاع هاوية حفرتها له الغندورة بحنكة ودراية لم يدركها، وهل انساق كأعمى وراء اوهام نسجوها خيوطا تلتف حول عنقه وتلتف؟ تصير حبالا غير مرئية بلا بداية ولا نهاية، فيتذكر ما يمكن أن يكون اعتزازا بميراث عريق ضاع فى لحظة الطيش وقد توهم امتلاكها رغم انه لم يمتلكها لأن ناسها كانوا فى المكان والوقت غير اللائق كحواجزا مصبوبة تتحرك وتحركه ليبتعد عنها فى الحيز الذى يخصها ويخصه، لكن ابتعادهم خفف عنه وطأة الحرمان من حلمه الحلال، واسرع بخطواته والشوق يدفعه ويجدد امنياته

•••

كان يثق بعد رجوعه أنها سوف تكون فى متناول يديه مشتاقة مثله ليحتويها وتحتويه ويحس بالدفء والونس معها بينما يدخل دنياها، وقد ظلت بعيدة المنال فى وجود امها وأبيها لعشرة أيام متواصلة، تأكد أنها ستكون ليلتهما السعيدة الموفقة لأنه تمناها وانتظرها لزمن طال وامتد، ولا بد أنها كانت تعيش اشواقها وهى تنتظر عودته وقد توهمت انه غاب اكثر مما كانت تتصور.. فهل راح معهما للكفر كأنه يؤدى واجبا طالبوه بتأديته بلا مراعات لوجودها وحيدة، لكنه عاد وفتح باب الشقة وطاف بعينيه بحثا عنها فرآها وهى تخرج من باب المطبخ، حاملة بين يديها كوب شاى وحيد فابتسم وسألها إن كان قد غاب عليها أو جاء فى وقت مناسب لها؟

فضحكت وهى تقترب منه وتمد كوب الشاى إلى فمه لكى يأخذ جرعة قبل أن تأخذ من نفس مكان شفتيه جرعة، ولعلها لو سألت نفسها لم تكن تعرف إن كانت اشواقه تزيد على اشواقها له، وهمست له بعد بسمة ساخرة وهى تسأله:

- ح تجرى ورايا، ولا أنا أللى ح اجرى وراك؟

- تجرى وريا اجرى وراكى، تفرق ايه، إحنا ح نحصل بعض

- وحشتنى

- إنتى اللى وحشتينى، كنت شايفك وحاسس انك بعيده

- ساعات كنت احس انك زعلان، وساكت

- كنت اعمل ايه؟ هاتى بق شاى تانى

- يبقى ح تجرى ورايا

قالت عبارتها الأخيرة وقربت كوب شايها من شفتيه فشرب منها، واسرعت بخطواتها نحو باب حجرة النوم وكان يتبعها مفتونا بكل ما يراه بملامح وجهها وشعرها وقميصها الذى يكشف مفاتن البدن الصاحى فى كل حركة لها، لا بد أن الوقت لم يكن محسوبا بالساعة أو الدقيقة بل كان محسوبا باللحظات التى يشعران خلالها بأنهما تحققا وتأكد تواصلهما تماما بعد سنوات الأشواق التى امتدت وطالت، والمعوقات التى صادفتهما أو دبروها لهما بلا أسباب خصوم، وكلاهما ليس طرفا فى اى صراع قديم أو متجدد، وربما لم يفكر أيهما فى شئ اكثر مما كان قد تحقق لهما من مشاعر الحب الصافى عندما يسكن القلب والمشاعر بعفوية

همس لها وهو يتأمل تقاطيعها مرتاحا:

- حاسس إنى جعان موت

– ومين سمعك؟ ح اجيب لك اكل، وآكل معاك

خرجت بقميصها واتجهت للمطبخ وهو ينتظر جالسا فوق مقعد السفرة الصغيرة، جاءت بوجبة ساخنة وشهية من كل المحتويات التى بدا له انه يحبها اكثر من كل الوجبات التى تناولها فى حياته، وبكفه كان يربت على خدها ليعبر عن استحسانه لبراعتها فى عمل الأرز المحمر أو صينية البطاطس أو الحمام المحشى الذى كان يلتهمه التهاما، وبينه وبين نفسه يقول إنه دخل جنة على الأرض لا يعرف مكانها غيره

ولعلهما كانا يبوحان لبعضهما البعض بكل ما يختزنه العقل من افكار أو خواطر عن أحداث شافها وشافتها وتطابقت فيها رؤيتهما، حتى بقاء امها وأبيها لعشرة ايام متواصلة كانت تسخر منها ولا تخفى ما قالته عنها لتباعد بينهما على نحو شعرت به وهو ينظر لها ويتحاشاها رغم ما يشعر به نحوها، ربما بتوصية من الغندورة التى كانت تراها بشكل دائم فى دارهم، وربما كانت تنصحها بأن تكون مثلها فى كل شئ، وباح لها بما سمعه عن ناسها ورفض تصديقه أو سمعه ولم يتأثر به، لأنهم كانوا يحاولون أن تنتهى علاقته بها بلا رجعة، متعللين بأنها من نفس سلسال الغندورة ولها نفس الملامح، وأنه سارع لتكملة الزواج لأن كثرة من اهلة وأصحابه نصحوه بأن يأخذ محبوبة قلبه إلى بيته بعد أن اكتملت تجهيزاته، إستعاد معها أيضا ايام كانت تأتى لتحصل على عناقيد العنب أو حبات البلح من رأس غيطهم وبجوار زريبة مواشيهم

●●●

هامش (١٦)

– سأحاول أن احكى لكم بعض الحكايات عن ناس عاشوا أطيافا فى براحنا الممدود وتعايشوا قبل أن يتأنسن الواحد منهم فيرى أرضه المزروعة

منذ آلاف السنين بعزيمة فلاح ظل يتفاصح ويتشكى ويبوح فى حضرة فرعون عارف بأنه تأنسن وصار حقيقة تتنفس مثله لتطلب منه عدلا ممكنا بدا له مستحيلا، ولتأكيد الهوية المشتركة بين محكوم وحاكم ظل يسمعه وقد كنت مشروعا لروح لم تتجسد من قبل مولدها تحوم حول المكان لتتعرف على ناس زمانها وتفاصيل انشغالاتهم، وكطيف لروح تمنت أن تأتيكم وتتجسد لكى تشاركهم تلك الحياة والأنفاس فى المستقبل المأمول أيامها راضية دون شك فى امكانياتها للعطاء والإضافة والعشق والخلفة وتربية صغار سوف يأتون ليرثوا أرضا ووطنا ووعيا كامنا وقابلا لتأكيد ما هية الوفاء والصدق ومواصلة البناء لمن يأتوا بعدهم ويضيفوا كل ما يمكن أن ينضاف ليبقى علامة على أنسنة الأطياف التى تنتمى لهذا الوطن وتحتويه فى الخلايا، تحسه قدرا مكتوبا فى كتب من ورثونا حدوده وعاداته وتقاليده وتاريخه بلا طمس ولا جهل أو تجاهل لحيزه المسكون فينا بعد أن زرعناه فى المشاعر نبتا لا يكف عن العطاء.

•••

لعلها تحولت إلى ونيس مطاوع ومتآلف معه، أو كيانا مصبوبا بتدبير وقصد لإشعاره أنه حقق كل امنياته عندما نالها ونال رضاها، وبدا له أن شهر عسله المأمول سوف يطول ويطول ليكون عمرا خاليا من سواد القلوب أو الغل المكتوم لأنها سريعة التواصل معه، ولعل صراحته معها وصراحتها معه كانت قادرة على ان تداوى ما كان فى السابق بين الأسرتين من خصومات لم يؤمن ولا آمنت بها، ولعله كان يرى أن حياته معها مأمونة بغض النظر عن ضياع حقه فى ارض ابيه لصالح الغندور ولم يكن يدارى عنها خيبة امله لتباعده عن أهله وناسه لأنهم عارضوه فى شأنها بسبب تدخل الغندورة، وكان يسمع ما يقال له باستغراب ويحاول أن يؤكد لهم أنها

ليست صورة مكررة من الغندورة كما كانوا يقولون، وأنه كان بتخيل إمكانية زراعة ما يؤكد أن الحب قادر على إزاحة العداوات، فتفرح وربما تهلل تقديرا لما يفكر فيه وتفكر فيه، وكانت مفاتيح الصراحة المتبادلة بينهما هى الأساس الذى نما فيه حقل ذلك الإطمئنان المشترك بينهما بتفريعاته بتلك المرحلة التى تتشكل فيها رؤية كل طرف للآخر، وربما ينبنى بسببها الحب الصادق أو تمام الارتياح، ويتأكد أنه لن يفرط فيها ابدا حتى ولو فى المنامات أو الكوابيس القاتمة، وربما يتمنى ان تكون حكايتهما مثلا يروى عن حب نادر حققه التواصل النادر الذى تمناه فحاورها وحاورته فى كل شئ وهو يفكر فى استحالة انفصاله عنها أو تباعدهما

– عارف الغندورة قالت عليك ايه؟

– قالت إيه يا قمر؟

– قالت لى إنك مش ح تاخد حاجه من أرض ابوك

– بناقص، انا مش محتاج الأرض إللى بتقولى عليها

– يعنى الغندور ياخد ارضك وتسكت له؟

– لأ، بس ابويا سلم روحه للغندوره، وباعته، وعايزه ارضه، ما هو كان لازم يحتاط لروحه، ويسمع كلام اهله

– بس إنت خالفت اهلك يا منصور

– إحنا حاجه، وهما حاجه تانيه

– فهمنى ليه؟

حاول أن يكشف لها الفوارق بين العلاقتين وحاولت أن تفهم أكثر، لكنه كان أمام نفسه يشعر بمأزق يعايشه غصبا عنه لأنها فى رأى اهله لم تكن تناسبه، لكنه اندفع وراء مشاعره ناحيتها ولم يتراجع، لعله كان يشعر بنوع من القلق لأن العلاقة التى كان يرتاح لها محفوفة أيضا بالمخاطر، واحيانا

يستسخف كل ما يصل إليه من أخبار عن محاولات الغندورة لأخذ ارض ابيه بعقود مزورة لا يصدق أنه الرجل رآها أو كتبها أو وقعها، ويخشى أن تصل الحالة لخسائر لا يقبلها متعاطفا مع دقات قلبه الرافض لفكرة إبعاد قمر عنه لأى الأسباب، لأنه كان خاسرا والأب خاسر وأمه خاسرة بلا فوارق فى حجم الخسائر بينهم، ولصالح الغندورة التى تسعى لضم الغندور إليها حسبما كان يشاع أنها تحاول أن تأخذه بالقوة الجبرية، ربما ينتهى عمر أبيه لو فعلتها فيتحول الرجل إلى ذكرى محزنة لفرع فى اسرة تهاوت ونزلت لمستوى لم يتوقعه احد، سلالة عريقة تكسرها إمرأة لم تعرف الحياء بحيل غبية قادرة أن تضع الكل فى خانة الضحايا، ولأنها قريبة قمر لكنها رخصت ونالت أغراضها وسلبت حقوقا لا تخصها بكل الحيل، ولكن الصبر يشفى القلوب الموجوعة ويهدئ النفوس لو وصلت لغايتها، لعلها نسيت اهلها وناسها مثلما نسى اهله وناسه، وصارت احلامها بالجنين الآتى تعادل امنياته بمخرج مشترك بينهما، مقرونا بود وتآلف ظل مخزونا فى المشاعر وينمو ويتزايد ليصير عشقا موصولا بينهما، والأيام تمضى ويتأكد الحمل، فيسارع هو بشراء الملابس لطفل لم يتعرف على هويته، بنتا كانت أو ولدا لكنه كيان حى يربطهما وينمى مشاعر البهجة والطمأنة بينهما

●●●

كانت تتجاسر وتطبخ ما تعلمت طبخه فى الكفر وما لم تتعلمه، يشهد لها بأن ما تقدمه اشهى من اى طعام اكله فى المطاعم طوال زمن اغترابه فتفرح وتجرب اصنافا جديدة وتكتسب مزيدا من الخبرة فى ترتيب المسكن وغسيل الثياب ونشرها قبل أن يطلبها، يعيش فى دنياه الصغيرة وينسى الصراعات التى سبقت اقترانه بها ودخولها بيته دون قريب واحد أو قريبة من اهله، لا أم ولا أب ولا عم ولا خال ولا إبن عم ، بينما جاءت امها وابوها وأقاموا

معهما ما زاد على اسبوع ثقيل، لكنه كان فى الجانب الآخر من حالته وحالتها التى توافقت بلا كلمات على الاحتمال، لعلها فرحت بعد سفرهما كما احس هو بالفرح لأنه سيكون مع قمر بدون عيون تتابع وتحصى الأنفاس وتترجم النظرات، ولعله كان مثالا تتمناه والتقت به رغم الصراعات العتيقة بين العالمين المتباينين، لكنهما كانا يشتركان بانسانية فى الحياة بلا خصومات أو رغبة فى شئ غير أن يتوافق الأهل الذين تخاصموا سنوات وصاروا علامة للصراع فى محيط المركز والمديرية، ولأنها كانت طيّعة معه وكان متوافقا معها ويلبى مطالبها بارتياح قبل أن تكلفه بها على نحو يؤكد أنه راهن عليها وقد أراحت قلبه وعقله ومشاعرة بتلبيته لأى مطلب تطلبه، كفاكهة تتمناها أو تحكى عنها فيجلبها لها ولو كانت فى غير موسمها ليتجنب " وحمة " تظهر على وجه أو بدن الطفل أو الطفلة الغالية التى صارت جنينا يتحرك ويحلم به بمثل ما تحلم، وأيام الهناء فى البيت تزوّد الرغبة فى الحياة وتمنح للبدن قدراته كما ترسم للمستقبل صورا وردية، هل كانت المسألة بينهما من اولها لآخرها امنيات تطوف فى خياله وخيالها وتتألق المشاعر بها فيتخيلانها أوهاما تتحقق؟

ولعلها تآلفت وتوافقت مع بنات الجيران والأمهات القدامى ومن الزوجات فى توقيتات متقاربة لبداية حياتها مع المنصور، تتعامل مع مزيد من الأصدقاء، تتسع الدائرة ويصبح عالمها بالبيت والحى براحا مفتوحا له ولها، لكنه كان يتعجل ميلاد الطفل أو الطفلة لتزداد الفرحة ويخف عنها حملها وقد استدارت بطنها وصارت تعلن عن قرب اكتمال الشهور بعد ثلاثة أو أربعة أيام، فيذكرها أن العيد الكبير آت بعد يومين، فيضحكان ويتحاوران عن الإسم لو كان ولدا أو بنتا، يتوافقان بشكل عابر أن يكون اسمه " عيد " لو كان ولدا ويختلفان لو كان بنتا، لكن اليومين مرا واعلن لهما ضيفهما عن

مقدمات نزوله، وسأل هو الجيران عن أفضل " مولدة " فى الحى فتطوع جاره أن ينزل معه ويأتى بمن تحسن القيام بتلك المهمة، كانت سيدة مسنة وباسمة على نحو مطمئن بينما تطل على قمر ثم تتحسس بطنها برقة، وتشير لها بالدخول لحجرة النوم وتسك بابها، والمنصور مع جاره وزوجة جاره يتبادلان النظرات فيظهر قلقه، ويقترحان عليه أن يجلس ويهدئ أعصابه لأن أم عيد تملك الخبرة والسمعة الطيبة، وجاء عدد آخر من جيرانهم من غير دعوة ودخلوا بابهم المفتوح، لم يطل الوقت بعد أن طلبت أم عيد بصوتها بعض الأشياء اللازمة لحالة التوليد، فلبوا لها النداء فورا وسمعوا صرخة المولود فأحس المنصور بفرحة مقرونة بالقلق على قمر، لكن أم عيد فتحت الباب وباركت لكل الحاضرين وطلبت منه أن يدخل ليرى طفله الذى يشبهه تماما، وام طفله التى كلفتها بأن تناديه لتطمئنه وتطمئن عليه، فدخل وشعر بالارتياح الكامل وهى تنظر إليه وتبتسم فهز رأسه مباركا لها على السلامة ونظر للمولود ولمس خده برفق وكأنه يرحب به بلا كلمات، لكن ام عيد نبهته بإشارة متوددة من يدها بأن يخرج فخرج وتقبل تهانى كل من حضروا، كان يشكرهم بفرح ويبحث عن الكلمات اللائقة بمن تطوعوا بوقتهم وشاركوه، فيضحكون ويبتسمون ويذكرونه بأن يفكر فى اسم الطفل المولود فى صباح العيد، فيبوح لهم أنهما اختارا له اسم " عيد " لو جاء ولدا، واختلفا فى اسمها إذا ولدتها بنتا، فيقهقهون ويقهقه معهم ويشعر بنشوة لأن الجيرة اهله واقرب له من الأهل الذين لم يعلم أو يصل منهم أحد، ثم تاتى جارة من بينهم بأكواب الشراب الذى نزلت لتجلبه من شقتها، فشربوا وشكروها وتمنوا لها أن تقلد " قمر" وتقوم بالسلامه ليهنئوها فأطرقت خجلا، وللمت الأكواب الفارغة ودخلت المطبخ لتغسلها، فتحدثوا عنها وتمنوا لها أن تكمل شهور حملها وأن تلد بالسلامة وتفرح بمولود أو مولودة، ولم

يظل بقاء " ام عيد " وخرجت لتقول تنبيهاتها أمام الكل عن كيفية رعاية الأم، ولو احتاجوا لها يرسلون لها مرسالا فتأتى ولن تتأخر وابتسمت للكل لتخرج من باب الشقة والمنصور يتبعها وقد عقد العزم على أن يدفع لها اكثر مما تطلب لكنها ضحكت ونظرت لجاره الذى ذهب إليها وأحضرها معه ثم قالت مداعبة:

- ما تشغلش بالك.. الأستاذ عمل الواجب قبل ما أدخل هنا

- خلاص يا سى منصور، الجيب واحد

- ألف شكر ، بس لو سمحت لى، اديها إكراميه، ويا ريت ما تكسفنيش، ح تسمح لى؟

- إنت حر معاها

على هذا النحو رد الجار ليخفف عنه، لكن " أم عيد " ضحكت لهم جميعا وقالت للمنصور بثقة لتطمئنه:

- الأستاذ إدانى اكتر من اجرتى، وإنت لو مش غالى عنده، لا كان جه، ولا طلع السلالم، ست أدوار عشانكم

- دا جميل عمره ما يتنسى يا أستاذ، بس انا عاوز

- عاوز إيه؟ انا خدت اتعابى م الأستاذ، عايز تكرمنى ابقي اكرمنى لما آجى اشوفها، ولا مش عايزنى آجى تانى؟

- يا خبر، أنا يا جماعه حاسس انى ف وسط اهلى وناسى، أكتر من اهلى وناسى، فين اهلى وناسى؟

قال العبارة الأخيرة ودمعت عيناه فتبادلوا النظرات تعاطفا معه، ثم ضحكوا وقالوا لبعضهم البعض أنها دموع الفرح بأول مولود، وأنه ابن اصول، واضافوا أن زوجته تستحق رعايته وحبه وعطاءه وهو صامت ومتوافق معهم بملامحه وهزات رأسه، وبدا وكأنه تذكر انه من الواجب أن

يقدم اليهم واجب الضيافة، بحسب طلب كل واحد منهم مشروبا وفواكه موجودة وحلويات جاهزة بمطبخهم فطاوعوه وتطوعت جارة بأن تعد لهم ما تجده ليتحولوا إلى ضيوف للمنصور، رغم انهم جميعا جيرة وأهل

•••

بعد أن انجبت طفلها الذى اكدوا انه يشبه المنصور تماما وقد عرف حسين افندى وسافر للكفر وشاع الخبر فرتب البعض نفسه لحضور حفل " السبوع " وقد حضر حسين افندى وواحد من اولاد عمه وأم قمر وأبيها وجيران وأطفال ملأوا المكان فقرر جاره إخلاء صالة شقته وصالونه من أثاثه ليكون براحا يسع الكل سكانا مع اطفال البيت ومن جاءوا من الشارع وأخذو الشموع فأشعلوها ولفوا حوله وهم يرقصون ويغنون بعد إشارة من أم عيد غنوة تليق بمولود إسمه يتفق مع مناسبة بحساباتهم وحسابات من حضروا من الكبار والصغار الذين غنوا معهم وهللوا:

حالاقاتك برجالاتك... حلقه دهب ف وداناتك

يا عيد يا عيد يا عيد يا مولود لنا ف العيد

يا رب تعيش ويانا سعيد كل ما تلبس لبس جديد

إمك فرحت بيك يا عيدويا رب يخليك يا عيد

وحالاقاتك برجالاتك حلقه دهب ف وداناتك

طالت الحفلة حتى نعست قمر فى ركن الصالة فانتبهت لها أم عيد وطلبت من الأطفال أن يأخذوا ما تبقى من اكياس السبوع وينزلوا ،فأطاعوها وهم يهللون وقمر تنتبه لنفسها وتقوم مسنودة على كتف أم عيد الكبيرة التى تساعد أم عيد الصغيرة وتحمل لها طفلها حتى اوصلتها للفراش مشكورة، ويتأكد المنصور أن الجيرة تشكل بديلا للقرابات فى حالات غيابها أو تباعدها

•••

حاورته أم قمر وحاورها عن علاقته بأهله وناسه فأعادته لزمن بدا له أنه نساه، وحدثته عن الغندورة وحكايتها مع أبيه الذى غدر بها كما قالت ولم يحفظ جميلها لأنها سهلت زواجكما أنت وقمر، ثم طردها من داره وحرمها من ضناها فأبدى دهشته وقال لها إنه عرف قمر وهى طفلة قبل أن تدخل الغندورة دارهم لتخربها وهى فى نهاية المطاف زوجة أبيه الذى طرده من داره ليرضيها وضحى بأمه من اجلها لكنها اعترضت ودافعت عنها وأعلنت تعاطفها معها، وأضافت انه لا يعرف ما يجرى فى الكفر، وباحت له بأن الغندورة ستأخذ من أبيه حقها وحق ابنها، فاستوضحها بنظرة لكنها باحت بكلام كان المغاورى زوجها يحاول تنبهها لكتمانه، وتصابر وعاود الحوار ليلتقط الخيوط الموصله لأخبار الكفر المخفية، وبالمداعبات الخاطفة التى كان يوجهها لقمر وطفلها حتى يبدو لهم أنه غير مهتم بأى كلام فى موضوع الغندورة، لكن أم قمر لم تستجب لزوجها وعاودت حوارها بسؤاله عن ضياع ميراثه، لو أن الغندورة كسبت قضيتها ووضعت يدها على أرض أبيه وأخرجته من داره؟ فتنهد وشوح بيده غاضبا وقال:

– ممكن تقفلى السيره دى؟

– هدى روحك يا منصور

قالتها قمر وهى تحتضن الطفل كأنها تخشى عليه من الخطف، ثم استدارت لامها وقالت لها راجية:

– ما تسكتى يا أمه، ما تسكتها يا آبا

لكن أمها اعتدلت على مقعدها قبل أن تقول بزهو:

– الغندوره إللى انت كارهها دى، ح تاخد أرض أبوك بحكم محكمة، ما هو كاتبها للغندور بورق سجلته ف الحكومه، والدار لما تتاخد منه تبقى إنت طلعت م المولد، بلا حمص

- جايه بيتى، عشان تقوليلى الكلمتين دول؟

- جايه أقولهم لقمر، اللى الغندورة جوزتها لك وابوك طلقها غدر بعد كتابكم ما أنكتب بيومين، صنف ما يتآمنش يا قمر

- ايه لزمته الكلام ده؟ هو المنصور فايق للكلام ده؟

- ح اسكت، بس الكلمتين دول، كانوا محشورين ف حلقى، من مده، وطلعتهم

قام المغاورى مبديا غضبه منها وأمرها بحسم:

- قومى يا وليه نروح، قومى، دا إنتى قلبتيها غم؟

فقامت وللمت ثيابها فى سبت وخرجت خلفه دون سلام أو كلام مع المنصور أو قمر، وبعد أن اشعلت فى قلبه نارا لم يتخيل أن تشتعل فى هذه المناسبة وبهذا الأسلوب المستفز له، ولكل من يسمعه، ولم يكن يملك غير الصمت المطلق

•••

هامش (١٧)

اغفروا لى بعض التعجل فى نهاية مطافى والحكايات ماثلة فى ذاكرة من تابع رواياتهم المألوفة أو قرأ تفاصيلها، وسأكون بالقطع رحيما مشفقا على كيانين تشاركا فى خلفتى ورعايتى وإطعامى وكسوتى وتنظيف بدنى مثل ثيابى، وتشكيل حياتى ولفت انتباهى لكيفية السير أو نطق الكلمات، ولأنها تابعتنى فى العامين الأولين من عمرى، فاطعمتنى بكرمها الزائد من رزق المولى عليها وعليه، ولفلفتنى فمنعت عنى برودة الجو، مثلما غسلت بدنى على مهل ووعى وفطمتنى بحذر حتى صرت لها شريكا فى وجبات الطعام الذى يأكله الكبار، كما علمتنى نطق الحروف على مهل فصرت عاشقا لصوتها ومقلدا لها، بما يؤكد أنها تحولت من طيف سارح فى الفراغ المفتوح

والممدود إلى كيان محسوس ومطلوب دائما دونما حدود ولا موانع، وبخلاف الأرض بجاذبيتها المؤكدة التى كان ممكنا أن اسقط عليها فى بداية العام الثانى وأنا أحاول المشى، كانت تشرح لى ما يحيط بنا مثل شمس الدنيا التى تدفئنا أو قمرها الذى يخلصنا من عتمتها والعالم الصغير الضيق وما له من أبعاد وقوانين ممنوحة من الرب الخالق لطبيعة مغايرة منحها برحمته لنا، وأبعدنا عن موج البحر وعوامل القلق، مثل العواصف والبراكين ووحوش الغابات البعيدة، وجعلنا نمتدح طبيعة بلادنا فى القرية والمدينة، وقد كنت امشى اولى خطواتى وارمح حذرا، فتصفق لى أو تسندنى لأقوم وأواصل سيرى أو رمحى، وناكل معا بشهية فتقبلنى وتربت على كتفى وتزيح مخاوفى من المخاطر، كما تدعونى للمغامرة فى كل خطواتى لأكون اشطر زملائى فى اى مدرسة ادخلها بعد ثلاثة اعوام لا تزيد فأمسك القلم لأرسم خطوطا مستقيمة ومحنية واضع دوائر وأسميها بأسماء اسمع عنها أو أراها فتفرح.

كنت اشعر بأن احتمالات تباعدهما صارت شبه ممكنة لأن بذور الخلاف انحطت بكلام أمها ولأن الاسباب وما نتج عنها من آراء فى موضوع يخصه ويخص ناسه بحسب ما قالت له لم يكن لائقا، ولعله تحامل على نفسه من أجل قمر فلم يصعّد خلافه معها، كأنه لا يملك حق الرد بما هو مؤكد لها وله وما يعرفه بشكل عن تلك السلالة التى وقع أو انزلق فى مسارها معاندا كل ناسه، ليتحول إلى كيان لا يملك حقوقا فى التنفس أو الكلام بينهم عن أى حقيقة يعرفها، فيمنع نفسه أمام زوجته بتكذيب أمها وكأنه يبتلع غصبا عنه ردودا تتساوى مع ما سمعه، أو وجبة يكره طعمها وقد تشبّعت بالحموضة وفاحت رائحتها المنفّرة من اجل قمر، لكن وجودى تحقق برغم العواصف العابرة، ثم صرت بفضلها كيانا حيًا له حقوقه دون أن ينسى واجباته، وكان

من اللازم أن يتعلم ويقرأ ويكتب ما بدا عسيرا عند البعض ويسيرا عليه مع أمه التى لم ير لها شبيها فى الرقة وخفة الظل والذكاء الطالع من عينيها، فتصبح المعرفة بديلا أو ملجأ متاحا يعوضه عن مواجع لم يجربها الكيان الذى يبوح لكم، موعودا بأن يتباعد عن صدر الأم غصبا عنه، ليكبر بعيدا عن الأم الوالدة وقد استبدلوها بأوهام ككلمات مثل النصيب والخصام العتيق الذى تجدد، والميراث المنهوب بحيل الغرباء.

•••

كانت الأرض التى يمتلكها الحاج ابراهيم عوف هدفها، والرجل فى وحدته وشيخوخته المبكرة يفكر فى أواخر سنوات عمره بما فيها من خطايا، يتسلى مع الصبى الذى صار قادرا على الذهاب إلى الغيط راكبا حماره أو راجعا أمامه، ولم يتوقع حدوث ما حدث من غير مقدمات بهدف إنهاء حياته بعدما أفسد محاولاتها لتسلب أرضه وداره وابنه الذى ظل يعيش بجواره ليراه فيطمئن قلبه عليه، ولأنه لم يخسر كثيرا عندما انحدر بحساباته وحساباتهم ليتزوج الغندوره، ثم سلم نفسه لها رغم ما كان بين أهلها وأهله من ثأرات عتيقة فبدا لهم رجلا كبيرا واعيا يقع فى الحماقة المؤكدة، لعله نفى كل ما أشيع عنه وأكد لنفسه أنه اندفع نحوها برغم توازنه وكونه يسير فى عكس التيار، لكنه افتتن بها زمنا وبدت له كيانا مغايرا كان يحتاجه، فاسلم اموره لها وتحولت الدفة لصالحها كما كانوا يشعرون عندما تتوالى الأحداث، وعندما يختلى بنفسه يعتب عليها فى الخفاء، وكان ينظر لعينى المنصور أو أمه قبل أن تغضب وتترك له داره مرتين، لأن الغندورة كانت تدير امور الدار وتبدل مسارها لأنها امرأة لعوب وبارعة فى مناوشاته وكان الزمن يمتد ويخسر زوجته ويطرد المنصور بلا أسباب حقيقية بدعوى أنه كان يحتك عمدا بالغندورة، ولعل احترام الناس لسيرته صارت تتناقص بدلا من الفخر به لأنه لم يفرط فى حق واحد منهم مما كان يدعوهم للفخر

بأعماله وهى تتشابه مع الأساطير المروية عن اكابرهم القدامى وقد دافعوا فى الماضى عن شرفهم وشرف ناسهم وعائلتهم، لكنها عندما استغفلته وسرقت ختمه وختمت به أوراق ملكية الغندور للدار والأرض بوصايتها انكشف الغطاء عنها تماما، ولا بد أنها لم تجد مصاعب كثيرة لتأخذ بصمته وهو فى غفلة النوم، وعندما جاءه محضر من النيابة ليهمس فى اذنه بأن حكما غيابيا قابلا للنفاذ صدر ضده لصالح الغندورة التى حكموا لها بضم الولد لحضانتها، فكر واستنتج أن العصا المركونة فى الدار لم تكن مهيأة لحمايته من العسكر لو جاءوا لينفذوا الحكم ويسلبوا منه ارضه وداره وابنه، لعله استعاد احداثا تتشابه مع هذا الحدث يوم أن جاء الصول عرفان لينفذ حكما بانتزاع ملكية ارض زراعية كانت تخص الحاج مرزوق، لكن الرجل جهز انفارا تصدوا للعسكر، فتراجعوا مع الصول لكن المأمور جاء بضباطه وعساكره بعد مدة وتمكن من انتزاع الأرض وتسليمها لمن تقدم بشكواه وقد كان من نفس السلالة " عبدا تمللّيا " خدم الحاج مرزوق فى اواخر سنوات عمره الذى عاشه بلا خلفه، لكن العبد انتزع أرضه بنفس الطريقة عندما سرق العبد ختمه وكتب له نصاب عقد بيع سجله بالشهر العقارى فضاعت ملكيته لأرضه وقد أخذها العبد عنوة، ولا بد أن الغندورة فعلتها وحاولت النهب والخطف بنفس الملاعيب التى اتبعها واحد من أعمامها بدون أى تردد أو ضمائر، صحيح أن العبد " التمللى " دفع الثمن بعدها ومات بطلقة مجهولة المصدر كما قالت النيابة، لكن الأرض ظلت فى عب عياله وزوجته التى هى بنت عم للغندورة، فهل غابت ذاكرة تماما إلى هذا الحد أم أنها كانت فى هامش الذاكرة، ربما تناسى جذورها التى طلعت منها؟ وكان يسأل نفسه ويعتب عليها وهو يبحث عن الحل أو المخرج، لكنه فى نهاية المطاف لجأ لأهله وناسه ودبروا امره ورتبوا حاله ليخرج من هذا المأزق سليما

ولولا ترتيبات اهله الذين عادوا ليلتفوا حوله ويزيحوا الكابوس الوافد اليه ما كان يستطيع أن يتخلص منها ولا انتبه لحالته، وقد اعتمد اهله وناسه على استشارة المحامى المعروف الذى كانت له علاقة قرابة بهم عن المسار القانونى لقضية الرجل وكيف كان يمكن تعويق التنفيذ، فأفادهم بأنه من اللازم ان يلتقى به ليعرف بعض التفاصيل فيسروا له اللقاء وصارت العائلة تتوافد على البيت، وكأنها تحرسه أو ترعاه وتخفف عنه ما يمكن أن يكون مواجع تشكل خطرا على صحته وعمره أو جراحا فى النفس أو العقل لا بديل عن مداواتها، وكان المنصور من بين من جاءوا إليهم، ولعل اول مطالب الرجل كانت أن يتخلص من قمر التى صارت أما لإبنه، ولأنها من نفس السلالة هز له رأسه علامة الموافقة ليخفف عنه ويخرجه من إحساسه بخسارة مضاعفة لأنها منهم ولابد أنها متوافقة معها بحسب ما قالوا له لأنهما حالتين طالعتين من ذات الماعون، المنصور يسايره ليهدأ واثقا أن قمر تختلف عن الغندورة، وكان من داخله يؤكد لنفسه ولا يبوح لواحد من اهله وناسه بمشاعره نحوها، لأنهم كانوا فى حالة سخط جماعى على من دبرت وخططت واستعانت بناسها لتغتصب ارضا وتاريخا من رجل أدخلها داره، صدقها وضحى من اجلها بمن عايشته وخلفت ابنه الوحيد وهى فى نفس الوقت بنت عمه، لكنه انساق وراء خدعة أنه سيكون ابا للمرة الثانية التى اشتاق لها لسنوات ولم تتحقق أبدا، فعقد قرانه على الغندورة فى مشهد لن ينساه أهله ولا ناسه أو حتى من كانوا فى جيرته وعاشوا معه فى زمنه

أيامها كانت العصى والشماريخ ممسوكة بأياديهم وقد تجهزت لدخول الصراع لنهاية المطاف، وأضافوا للشماريخ والعصى التى اعتادوا العراك بها بعض الأسلحة النارية الجاهزة المدفونة ببنايات " بالطوب اللبن " وتجهزت لدخول الصراع لنهاية المطاف فأضافوها للشماريخ والعصى التى

اعتادوا العراك بها، لأنهم لو استخدموا العصى والشماريخ واستخدم الخصوم أسلحتهم النارية فيلزمهم أن يواجهوها بمثلها، وقد فكروا انه رجل وحيد وعجوز بما يجعلهم يتآمرون ويفكرون فى دخول داره خلسة أو غصبا عنه لأنهم لا يعرفون الحياء ولا الخجل، وربما يهدده من أتوا لتنفيذ ما حكمت به المحكمة حسبما كانوا يقولون، لكن المحامى جاءهم ليلا ودخل دار الحاج إبراهيم مع من كانوا ينتظرونه على السكة الزراعية، وساروا معه فطمأنهم وعرفهم انه كتب الطعن على عقود البيع بالتزوير، لأن البصمات التى فحصها الخبير لا تخص الحاج إبراهيم ولا الغندورة وقد بانت الفرحة على الوجوه وشكروا جهود المحامى واستحسنوها كما استحسنها المنصور أكثر لأنه توهم أن علاقته مع قمر لن تكون فى نفس منطقة الخطر، ولأنه فكر على نحو مغاير لأهله وناسه الذين كانوا يرددون أن قمر بنت اهلها فى نهاية المطاف، وأنها من اللازم أن تعود لهم وينفصل عنها لأنها تتبع الناحية المعادية لأهله، ولأن علاقته بها كانت قائمة بوجود " عيد " بحساباته فقد اعترض، لكنه كان مخدوعا بحساباتهم فقد كان الخطر قائما ، ولأن خلاصه منها حسبما يسمع كان حلا فاعلا ومؤثرا وقادرا على اهانتهم دونما شكوك، لتكون الغندورة وأهلها فى المربع الخاسر بكل الحسابات بعد كشف مؤامراتها برغم النعومة التى خدعت الحاج زمنا، وهى نفس النعومة التى جعلته يتخلى عن بنت عمه ورفضت العودة إليه مثلما فعل المنصور الذى عاش مغتربا بترتيبات لزوجة ابيه، على هذا النحو كان يدور الحوار مع المنصور فى وسط الدار وفى الطرقات والغيطان، كلما شافه واحد منهم فاتحه بإصرار لأن حياة الأب نفسها يمكن أن تتعرض للخطر برصاصة غادرة مثلما حدث للحاج مرزوق الذى ضاعت املاكه بمثل هذا العقد متبوعا برصاصة، وكأنهم يتنبأون بما كانت تخبئه الأيام، لكن المنصور كان يرى أن الغندورة غير قمر مخالفا كل الآراء

وبات المحامى ليلته فى دار الحاج ابراهيم ليكون حاضرا أمام من يأتوا لتنفيذ الحكم الباطل ومعه شهادة الطبيب الشرعى المتخصص فى البصمات بداخل حقيبته، وبات من بات وظل فى صحوه ولم يطاوعه النوم وخيال الرقاد يناوشه من بعيد كالمنصور الذى يشعر بالقلق اكثر من الجميع، لأنه يتخوف من النتائج التى ستصل إليها الصراعات لو تحول الأمر لشجار لا يعرف كائن من كان نتائجه، لكن اليوم مر بسلام لأن من كلفوهم بتنفيذ الحكم لم يأتوا، ربما خوفا أو استجابة لنصيحة لهم بالمجئ فى يوم آخر ليكون اكثر امنا أو أقل ضررا، لكن المحامى فسر الأمر بشكل مغاير، مؤكدا لهم أنهم عرفوا ما أسفرت عنه تحاليل البصمات المزورة ففكروا واتفقوا على عدم المجئ بلا عائد أو إنجاز يحسب لهم مع الحرج فى مواجهة محامى معه مستند له القدرة على إيقاف التنفيذ بقوة القانون

•••

عاد المنصور إلى بيته وحكى لقمر ما كان وما جرى فبدا عليها أنها تضررت واستاءت من سلوكيات الغندورة، ولعله شعر بالراحة واطمأن باله وتخيل أن الأزمة ستنزاح وأن الحياة سوف تستمر بلا مشاحنات أو صراعات قد تصل إليهم فى نهاية المطاف، ولعلها نصحته أن يخفف مخاوفه وينسى الصراعات القديمة ليعيش ويهنأ، ولعله كان مرتاحا لأنهما متوافقين وهما متباعدين عن أهاليهم القدامى الذين يبرعون فى صناعة الأزمات والصراعات، ولم تنس هى أن تذكره بما قالته امها عن شطارة الغندورة ووعيها الزائد، " لم تهتم بأنك زوجى وشريكى وأن الحياة بعيدا عنك لا تساوى إلا العذاب والحرمان من متعة الدنيا، بعيدا عن الخصومات القديمة أو الجديدة "، وكانت تنظر لعيد النائم وتبتسم له وهى تحكى حكاياته معها طوال نهارها وأسئلته التى لا تملك فى بعض الحالات جوابا يسكته، ولا

تسامح اهلها لأنهم حرموها من دخول المدرسة مثل كل البنات فى اعمارها، فراح يهون عليها الأمر ويحكى لها عن أمنياته فى أن يعيشا حياتهما دون تدخل من احد ولا الموافقة على استفزازاتهم وصراعاتهم مهما كانت الأسباب، فتبدى استحسانها لكلامه وفكرته، ويداعبها فتفر منه وتضحك له، ثم تتذكر امها التى أخذت عقدها المعلق به ساعة لم تفكر فى خلعه يوم سفرها وتسكت خجلا كامنا وتتخوف من البوح بما جرى من امها، فيسألها عن أسباب صمتها وسكوتها فتتردد وتوشك أن تكف عن الكلام مرة أخرى فيعتب عليها لأنها تدارى عنه شيئا، ولأنه لا يخفى عنها أى شئ تخجل، ثم تحكى له حكاية امها وعقدها الذى يضعها فى خانة الغندورة وهى بنت عم لها فى نهاية المطاف، فيهون عليها الأمر ويطلب منها أن تنساها وتنسى ما يدور فى الكفر مثله، ثم يعدها بأنه إذا رأى مثله فسيشتريه بأغلى ثمن، ولعل الليل كان ملجأهما الذى يختفيان بعتمته ويسرحان فى دنيا مغايرة بلا مشاكل ولا هموم ولا أهل، ولحظات الحب الصادق بلا أكاذيب وملاعيب أو مطامع مغلفة مثل الحل، تزرع أملا يتجدد فى طفل يعلنان نواياهما فى بذل الجهد لإسعاده بقدر المستطاع، وكانت هى كأم اقرب له من الأب فى سنوات البدايات التى تخص الأم اكثر فيتعلق بها ويلاغيها اكثر ويشعر الأب بالغيرة الفرحة منها، غيرة فيها طمأنة وإرتياح وإحساس بالثقة فى رعايتها لطفلها بلا تقصير أو تكاسل أو حتى قلة خبرة أو وعى لأنها كيان مأمون

•••

لعل الأيام بدت لهما باسمة والطفل يكبر ويقف ويمشى على قدميه، متوازنا ومتسارعا أو متباطئا بحسب الهدف الذى يسعى لتحقيقه، وفرحة الطفل تنعكس عليهما فيشعران بسعادة نادرة ، لعله بحساباتهما معا كان

مثل شهر عسل ممدود دون تغيير فى المكان ولا تبديل لمن يتعاملان معهم، والدكان يمتلئ بالساعات الجديدة وحسن المعاملة مع الزبائن تجلب له مزيدا من الزبائن، وقلة الربح فى ثمن الساعة تزوّد الأرباح فى نهاية المطاف لكثرة ما يباع، والخبرة فى إصلاح الساعات والتى لم يكن يعرف من امرها شيئا، صارت مثالا لمن يسعى ليتقدم فى عمله بالمهنة أن يسأله أو يجلب له ساعه تحير فى امر إصلاحها ولم تطاوعه، يبتسم له ويحرك أجزاء منها " بالمفكات " فتتحرك عقاربها مرة أخرى، ومن يعملون فى المهنة لا يستحى بعضهم من البوح بأنه يتعلم منه، وكانت الايام صافية والحياة مستتبة فى البيت والولد يكبر امامهما ويبرع فى نطق الكلمات ويبعث فيهم الرغبة فى الضحك من القلوب، وأيام الهناء لا ينغصها شئ كما يتمناها أى إنسان، وهى تطيعه وتلبى مطالبه وترعاه مع عيد راضية وعلى مهل، والعطاء المشترك لا يحتاج لطلب أى طرف لأن ما يحتاجه أو يفكر فيه يصير متاحا فى اقرب وقت، يفكر فى أكلة فيراها فوق ترابيزة السفرة، يفكر فى مشروب فيراه جاهزا، حتى الثياب التى يتمنى أن يراها ترتديها فى مشوار خروج أو ساعات جلوس فى الشقة أو فى نوم هانئ تمنحه خلاله كل ما يحلم ان يشعر به فى الارتياح بمثل ما يعطيها التعبير عن الارتياح والرغبة فى دوام التواجد بجوارها لولا أن السعى وراء الرزق فريضة تحميهما من العوز أو الاحتياج وتزيد بما يطمئن القلبين المؤتلفين على مستقبل أت، والحلم بتربية الولد على أفضل مستوى متاح ليكون عيدا متجددا وعيدا لكل من يلتقى بهم، امنيات وردية لكنها لم تكن تحسب لزمانهم أى حساب كتلك الايام التى سبقت الزمن الردئ تمهيدا لحياة صعبة

●●●

كان حسين افندى ينادى المنصور من اسفل درجات السلم، فنظر إليه من الباب وطالبه بالطلوع، لكن حسين افندى طالبه أن يرتدى ثيابه وينزل فى اسرع وقت لسبب سوف يعرفه عند نزوله، وظل حسين افندى ينتظر والمنصور يرتدى ملابسه متسارعا ثم ينزل وقلبه يرتجف، والآخر يهمس له بأن أمه فى حالة خطره وقد طلبت أن تراه قبل أن ترحل عن دنيانا، كانت عينان تدمعان فظن المنصور أنها ماتت وصرخ:

- أمى ماتت يا حسين افندى؟

- أمك عايزك تشوفك، تبقى ماتت ازاى؟

- احلف لى إنها

- ح احلف لك يا منصور، ياللا بينا

وركبا سيارة الأجرة التى كانت تنتظر حسين افندى عند الباب، وطال الطريق والكلمات المقتضبة لا تشفى ولا تداوى القلوب فى حالات القلق القاسى، لكنهم وصلوا إلى الكفر ووقفت السيارة امام البيت، فدخله المنصور مسرعا ليراها فوق الفراش تتنفس بكل عسر ، حاولت أن تنهض فلم تستطع، كان اخواله وزوجاتهم وعيالهم فى المكان فأجلسوه بالقرب منها، وسمع همساتها:

- دلوقت ح اموت مرتاحه

- بعد الشر عليكى يا أمه، هو إيه اللى حصل؟

- ما حصلش حاجه يا منصور، بس الأجل

- يا جماعه ما نشوف دكتور ولا نوديها مستشفى

- أحنا جايبنها من عند الدكتور، وهو اللى قال لها تروّح لجل تشوف اهلها وناسها

على هذا النحو قال خاله الكبير فاستشعر أنها النهاية وساعة الوداع، قبل يديها وجبهتها وأمسك بيدها اليمنى بين راحتيه فى اشتياق وكأن التلاحم يمكن أن يداويها، لكنه شعر بالبرد يتسرب إلى كفيه، نظر إلى عينيها ورآهما غائبتان عن دنيانا تماما فوضع يدها على صدرها مستسلما، وبيده أسبل رموشها وأنطلق فى البكاء المتزامن مع بكاء من كانوا فى المكان وانطلقت اصوات كى تعلن نهاية عمرها، وكان مشوار المدافن ممدودا وصعبا لكنها رحلت وتأكد من يتمه ولم يغادر بيتها وحيدا محزونا يتقابل من اتوا للعزاء وبينهم الحاج إبراهيم الذى كان يدارى دموعه عنهم أسفا أو ندما، وفى البيت كان يستعيدها فيتباكى ولا يتمكن من الكف ليتمه من أم لها افضالها وشخصيتها وحضورها وغابت عن دنياه، وفى اليوم السابع ودع الجميع ومكرها على الرحيل بعد زيارة قبر الأم الغالية لم يكن امامه غير الرحيل.

•••

هامش (١٨)

دعونى أستكمل حكايتهما معا وسط صراعات لا تنتهى بين البشر، وهذه الصراعات التحتية تجبر من يعشقون الحياة ويخلصون لمن أحبوهم بصدق ليتباعدوا وينفصلوا بلا اسباب، انفصال جبرى اسبابه لا تخصهما ومواجع غير منظورة تطالهم رغم الإرادتين المتوافقتين ولأنها أمى فقد كانت شريكة وحيدة لى فى البدايات، تمنحنى كل الحنان والرحمة على النحو المطلوب، لكنها غيرت مشاعرى دون مقدمات أو مبررات لأنها تباعدت وتبدلت بصدر أب يحاول تعويض الطفل الذى صار وحيدا بعد بعدها عنه رغم إرادتها تماما بدون أى توقعات منه ومنها لاسباب غير واضحة تبرر بعدها عنهما برغم كونها ظلت ترعانى وتنفذ مطالبى بالبسمة الخالصة التى تطمئن قلبه

بمشاعرها الصادقة الغضة، وكان سؤاله المتكرر عن امه يزود توهانه لأنه لا يسمع منه ردا ليعرف أسباب بعدها عنهما، ولأنه لا يزال تلميذا بمدرسة إبتدائية مجاورة لبيته وزملائه يسألونه عن امه فلا يرد حائرا، وقد يتطوع احد المدرسين بإسكاتهم شفقة على طفل لا يعرف الرد المؤكد لحالته التى تختلف عنهم،فادعاء موتها كذبه وأسباب انفصالها عن الرجل غير مبررة بحساباته على الأقل، فيذهب لأبيه ليشكو له باكيا فيهدئه قائلا أنها موجودة وبخير، لكنها تعيش بعيدا عنهما غصبا عنها وعنه لأنها من اجمل الأمهات فى الدنيا كلها، يتردد أحيانا فيسكت، أو يتجاسر ويسأله عن سر ابتعادها عنهما فلا يرد حزنا عليها فيكرر سؤاله ولا يسمع منه ردا، يتباعد غضبانا منه لأنه يعيش فى وحدة،يستعيدها صورة ساكنة فى خياله ومتباعدة فيشعر بأن استعادتها عسر لا يملك القدرة على مواجهته أو السعى المضنى للوصول إليها، وملموما على نفسه يجتر تفاصيل الحكايات التى يسمعها منه عنها وعن الصراع القديم الذى لم يهدأ أبدا بين اسرتيهما، لعلنى ايامها كنت أفر من معاودة السؤال وكنت أكبر وأكبر وتمر السنوات فيتأكد لى أن انفصالهما لا رجوع فيه، وأن إمكانية مواصلة مشوار الحياة بلا أم عسير لا يحتمل لكنه ممكن، ربما لأن ملجأ الأيتام كان قرب بيتنا، لكن اليتامى كانوا ينالون شفقة الغرباء التى لا أنالها من اقرب الأقارب الذين تباعدوا عنا، وكنت اسمع اسماءهم على لسانه دون أن أراهم فاشعر أننى جذر مقطوع من شجرة راسخة فى ارض صلبة كان يتباهى انه يمتلكها بلا شكوك وبأنه ينتسب إليها ويعتز بنسبه التائه ويدعونى بلا تمهيد بأن اكون مثله كى لا أحتاج لقريب أو غريب، أعتمد على نفسى فى كل شئ اشعر انه يواسينى أو يواسى نفسه ويعزيها على القطيعة أو الانسلاخ الكامل عن ارضه وناسه، فهل كنت أن اشفق عليه اكثر مما يشفق على؟

كانت الخلافات العتيقة تحوم حولهما وتضعهما بسببها فى حالات من المواجهات الصعبة التى تبدو لهم مشاكل بلا حلول، فالصراع القديم يتفجر ويسقط الضحايا من اى طرف فيتباهى من أخذ من خصومه ثأرا قديما، ويرتب من ضاع من عائلته نفرا أن يواجه فى الغد القريب بنفسه أو بواحد من خلفته لمواجهة جديدة حول تلك الأرض التى أوشكت الغندورة أن تخطفها بحيلة لم يتوصلوا لتفسيرها إلا بالمحامى الكبير، وتخيلوا انها سرقت ختمه لتختم عقد البيع الذى أكد أنه لم يره ولم يوقع عليه ولا ختمه أو بصمه لكن الملعوب تم كشفه بالبصمة المزورة، وتخيلوا الفخ الذى رتبته شريكة عمر من عاشرها مفتونا بجمالها ورقة كلماتها واحتمالها لقسوته العابرة أحيانا وهى ترتب له بعد أن انقطع عن اهله وناسه وطلق بنت عمه وزوجته بعد أن طرد ابنه من اجلها وقد انجبت له امنية عمره غندور بعد اربعة أو خمسة شهور من عقد القران فرتبت له ما يمكن أن يقال انه تجريد له من كل ما يملك، وقد انقطع بسببها عن اهله وناسه، وحاول أن يحمى ابنه من نفس المصير لكنه لم يفلح، مع الفارق بين قمر والغندورة، لكن السلالة تجلب لبعض الخصوم خسائر ولبعض الأهل عارا، حتى ولو كانوا من الشرفاء الأوفياء مثل قمر التى كانت تختلف عن الغندورة، لكنها كانت فى جب المخاطر دونما إحساس بأى خطر، ولأنها أخلصت لرجل سعى للحصول عليها مفتونا بها بصدق لكنه اختلف مع الكل من اجلها.

•••

كان الحاج ابراهيم يقاوم وحدته وكبر سنه وعدم قدرته على زراعة أرضه وقد صار يعتمد على نفرين بأجر لرعايتها وزراعتها مع إشراف من يتطوعون من العائلة، وفى موسم القطن الأخير كان مشغولا كعادته أن يكون قطنه من افضل زراعات الحوض كما شاع عنه، معتزا بنفسه رغم

عزلته وضعف بدنه وهو يحاول ان يداريه عن الغندور الذى لولا وجوده معه ما ضحك ولا ابتسم أو حتى فكر فى اكل وجبة كان يشتهيها فى شبابه وصحوته وقد رحلت زوجته التى كانت ترعاه بلا غرض أو مطامع، وصار ما جناه عليها بظلمها عبئا لا يحتمل بعد رحيلها عن دنياه، كان فراره إلى فراغ الغيطان مهربا متاحا له مع الغندور، فالكل يرجع بعد الغروب لبيوتهم ويبقى وحيدا يحدث روحه أو يرد على أى سؤال للغندور، ويستعيد أيام المنصور الذى هجر الكفر والدار بعد أن طرده بعد الخلافات التى كانت تدبرها بتخابث غير مكشوف له أم الغندور التى اوشكت أن تسلبه ارضه وبيته وطفله والمنصور بعيد، ولم يعد يأتى فى غير المناسبات الحزينة، موت امه أو خالته أو ابن عمه، وحتى عندما يأتى كان يختصر زياراته ويسافر احيانا فى نفس اليوم الذى يجئ فيه،وإن بات معه حدثه عن قمر وعيد الذى يحتاج لرعايتها، فيكشر عن وجهه غير راض ويعاود تذكيره بأنها قريبة للغندورة التى رتبت امورها لتسرق الأرض والدار لكى تحرمه من ميراثه فلا يبدو عليه الاهتمام، كأن الأرض لا تعنيه ولا تشغل باله فلا يعلق احتجاجا ولا استنكارا، ويعاود تذكير ابيه أنها كانت اختياره الذى دفعه دفعا لطرده والخلاص من امه فيدافع عن نفسه قائلا انه لم يخلص امه إلا بعد أن طلبت طلاقها بنفسها، وسلطت إخوتها وأبناء عمها ليضغطوا عليه بلا فضائح فينفخ ولا يعلق، يفكر ويسأله نفس السؤال العتيق الذى جعله يطرده من داره لإرضاء الغندورة:

– وأنا يا آبا؟ طردتنى ليه؟

– عشان ما كنتش مطاوعنى يا منصور، هو أنت لما فكرت ف المحروسه اللى انت خدتها، كنت أنا موافق؟

– ما كنتش موافق يا آبا، بس انت إتجوزت منهم وفرطت فينا، ومنعتنى من دخول دارك لما انجوزتها، اقولك إيه؟

– لا تقول ولا تعيد، انا غضبت الغندوره عشان خاطرك ، مش هى اللى رتبت جوازكم؟

– ما كنتش موافق إنها تمشى لى السكه، ولا كنت اعرف

– لا عرفت يا منصور، وهى قالت لك وإنت ف دار ابوها، يوم كتب الكتاب، دا محدش من عيلتك حضر جوازك

– يا آبا إنت بتقلب المواجع ليه؟

– عشان انا خلصت مرات ابوك وإنت شبطان فى بنت خالتها، ما هى بنت خالتها، وأمها بنت عمها لزم

– عايزنى اعمل ايه يعنى؟

– تخلص منها

– وإذا قلت لك إنى مرتاح معاها؟ يبقى ح اخلص منها ليه؟

– قوم من قدامى دلوقت، ادخل إتخمد ونام، والصبح اطلع وسافر من غير ما تسلّم على ابوك زى كل نوبه

– حاضر يا آبا، ح ادخل اتخمد وأنام

– العوض على الله فيك، العوض على الله فيك

كان الرجل فى مثل هذه اللقاءات يشعر بالمرارة واليأس بينما المنصور يشعر بالعجز عن نيل رضاه، لعل خلافه مع الغندورة كان سببا لمثل هذا الإلحاح، لعل ما فعلته معه كان وراء هذه الغضبة الشاملة لكل ناسها الذين لم يرض عنهم بعد حياتها معه سنوات طالت وأنجبت منه طفلا وحاولت الهيمنة على كل شئ تطاله، وما فعلته فى غفلته كان سببا فى الكراهية التى اصابته بعد أن هددته بسلب ارضه وبيته بالعقد المزور لولا براعة المحامى، لكن ما هى العلاقة بينها وبين قمر وام عيد؟ كان يتساءل عن أسباب اهتمامه بالغندور ولا يفكر فى عيد الذى يحتاج إلى امه اكثر

كانت المسأله بينه وبين ابيه عنادا وانتقادا متبادلين بينهما وكان الغندور أيامها صبيا عفيا على ابواب المراهقة بصوته الخشن، والحاج يتشكى بأنه يعجز عن القيام بدور الأب والأم فى هذه السن بعد خلو داره وضيق مساحتها كما كان يتوهم ويبوح لكل من يراه بأن الغيطان براح مفتوح يرتاح فيه البدن ويخفف عنه ما يبدو له ضيقا لحيطانها فيرضى عن نفسه فى فراغ الغيطان، لكن الأب لم يفرّط فى قيراط واحد من ارضه أو فدان وقد ورثها ابا عن جد وما زال يعيش وسط أهله لا يحتاج لشئ لأن الكل يحاول أن يرضيه ويساعده،لكن الجديد هو طاقته التى يشعر انها تفارقه وبأنه صار ضعيفا، وربما كانت الأحداث المتوالية عليه بلا مقدمات قد أثرت فى مشاعره أحيانا برغم الوهن الذى اصابه لكنه لا يزال مالكا لميراثه رغم المصاعب التى تواجهه ومسنودا عليها لا يفرط فيها لأنها مثل الجلد واللحم، ربما كانت أغلى من أى شئ عنده، وكانت الغندورة وهى فى عصمته تحاول أن يتنازل لها أو للغندور باختياره عن اى مساحة فلم يرض أبدا، ولعلها حاولت تزوير عقد البيع لتصل لغايتها بعد أن عجزت معه تماما لتحرم المنصور من ميراثه، لكنه لم يستجب لها ابدا لأن المنصور فى ذاكرته صاحب حق ويلزم أن يناله رغم انه لم يفاتحه فى الأمر ابدا

•••

كانت مقدمات الصراع بين الحاج إبراهيم والغندورة بداية خلافات لم يحسب لها المنصور أو قمر حسابا لكنها طالتهم ووضعتهم معا فى خانة المواجهة غصبا، ولأنهما كانا يعيشان بعيدا عن الغندورة والحاج لا يعرفان تفاصيل صراعهما المخفى والمعلن وقد أخذ منها ابنها خطفا وبالقدرة وقد صار صبيا، فحرمها من أمومتها التى كان يمكن أن تعوضها عن خسارة كل شئ بحساباتها لأنه رماها لكى تعيش وحيدة ومقطوعة من أمها وأبيها

وأهلها ولم يكن لها غير أم قمر التى حافظت على عشرتها وظلت تشفق عليها لأنها بنت عم شقيق وكان من الطبيعى أن تسمع شكواها من خيبة املها وغدر الزمان بها، تحاول أن تهدئها أو تهون عليها وتزرع الصبر فى قلبها، لكن الغندورة كانت تسمع ما يقال لها والنار تغلى بعقلها وقد تحولت لبؤرة لتعكير الجو، فبعد أن خسرت إبنها خسرت قضيتها الملفقة لوضع يدها على ارض الحاج إبراهيم، لكنها صارت متهمة فى جريمة التزوير بعد أن كشف المحامى حيلتها، وخرجت بكفالة مالية على ذمة القضية، لعلها فكرت ودبرت وجلبت عددا من المقاطيع والبلطجية الذين ينتمون لها من أرض البرارى وكلهم يطمع فى إرضائها ونيل بسمة أو همسة منها، فطاوعها عدد منهم ودبرت لهم أعمالا لا يجيدها غيرهم، مثل تخريب الزراعات فى غيطان الخصوم مقابل ما تدفعه لهم، ولم تكن مشاوير انصارها الليلية لغيطان خصومها غير خدعة لم يكتشفها أحد، لكنها انكشفت عندما انطلقت رصاصة غادرة نحو صدر الحاج إبراهيم أطلقها واحد من البلطجية الذين جلبتهم من ارض البرارى لكفر عسكر، وقد سقط الرجل فتصورت أنه مات وعندما رأته امامها لا يتحرك بعد سقوطه على الأرض بلا حراك فتبدى لها انه رحل فأمسكت الغندور بيدها لكنه ازاحها، تلفت من اطلق الرصاصة حوله قبل أن يسحبها من يدها خوفا من أى عابر أو جار للرجل من بين الزراعات، وكان يجرى وهى تتبعه واثقة أن الرجل مات وأن الغندور سوف يستجيب لها فى نهاية المطاف بعد أن يقيد الحادث ضد مجهول فلا يكون له من يرعاه غيرها، تصورت وصدقت نفسها بهذه النهاية دون وعى أن الغندور هو من رأى وجه من حاول قتل أبيه وهو ابنها وأنهم سألوه فباح ووصف شكل الرجل الذى اطلق الرصاص كما رآه، وأضاف قبل أن يسألوه أن امه هى التى امرت الرجل أن بضرب أباه كما أنه رآها وهى تهز البدن لتتأكد انه مات وحاولت أن تأخذه معها فرفض،

وتمسك بأبيه وظل بجواره يصرخ فى الفراغ رغم العتمة حتى توافد الناس وعرفوا ما جرى، وتأكدوا من صحوة الرجل فسارعوا ينقله للكفر، حتى صادفهم طالب الطب بمروره امام الدار، فطلبوه وأسرع بالاقتراب منه ثم كشف مكان الطلقه واكتشف أنها فى كتفه الأيمن، فوضع عليها الشاش والمطهر المتاح ليحمى الجرح ويشفيه، لكن ذراع الرجل كان عسير الحركة وكان يرتعش

كانت مجموعة من شباب العائلة قد افلحت فى امساك الرجل الذى اطلق الرصاصه وكانت معه الغندورة بدار أم قمر قبل أن تأتى دورية الشرطة التى تم اخطارها لتأتى بعد مدة وتقوم بالقبض عليهما ويأخذوهما للحجز فى المركز ليحرروا محضرا بما حدث فى تلك الليلة وقالوا انهما سيواجهان تهمة الشروع فى القتل، لكنها كانت بداية لأن أولاد عوف لم يتوقفوا عن محاولاتهم لأخذ الثار من اهل من اعتدوا عليه، وصار الكل خصوما يحتاطون وينبه كل فريق أفراده ان ينتبه، ومن ساعدوا الغندوره فروا لأن من حاول قتله كان محبوسا، وام قمر بنت عم الغندورة تدخل حلبة الصراع من أجل الغندورة، فتدفع رجلها دفعا ليدخل الساحة

لعل الحدث هذه المرة كان قاسيا، والمنصور الذى تعرض والده للقتل واصيب ذراعه الأيمن بالشلل لم يستطع أن يخرج من دائرة الانتقادات طوال اقامته فى الكفر، وقد جاء الجميع من المغتربين والمقيمين بالمدن البعيدة والقريبة ليواسوه ويظهروا استعداداتهم لعمل ما يؤكد الترابط بينهم، كان المنصور عرضة لسؤاله عن قمر وكأنهم يعتبرون أن خلاصها منه واجب لا يحتاج لحوار متبادل بينه وبين أى شخص سواء كان قريبا أو غريبا، ولعلهم كانوا يستغربون لو عرفوا أنها ما زالت على ذمته وتعيش فى بيته فيسكت ولا يرد، لكن الضغوط كانت اقوى منه فلم يجد حلا ولا تبريرا

لكونها لا تزال زوجته، ودم اولاد عمه الذى كان يسيل تباعا بغدر اهلها وناسها يتواصل مضافا إليه ما اصاب الرجل الكبير بذراع تأكد شلله، ولعل شللا مخفيا اصاب دماغه بقسوة وهو يبحث عن تبريرات لكل تلك الخسائر التى كانت تضع الحواجز النفسية بينه وبينها فى نفس الوقت، كان من اللازم أن ينهى علاقته بقمر دون ذنب يخصها، لكن حكايات الصراع القديم الذى تجدد والجراح التى لم تلتئم كانت تتوالى والقتلى يتساقطون وأعداد الجرحى يتزايد بلا ترتيبات، وبحسابات الكل صارت قمر حراما عليه وهى حلاله وأم طفله، ولعلها كانت اصعب المواجهات التى كان يلزم أن يخوضها إنسان تجبره الأحداث على خسارة معشوقة قلبه وتخسره

●●●

هامش (٢١)

– سأحاول أن احكى لكم بعض الحكايات عن ناس عاشوا أطيافا فى براحنا الممدود قبل أن يتأنسنوا وتتفتح عيون الواحد منهم فيرى أرضه المزروعة منذ آلاف السنين بعزيمة كل فلاح ظل يتفاصح ويتشكى أو يبوح فى حضرة فرعونه العارف بأنه تأنسن وصار حقيقة تتنفس مثله لتطلب منه عدلا ممكنا ولو بدا مستحيلا لتأكيد هوية مشتركة بين محكوم وحاكم، ولأننى كنت مشروعا لروح لم تتجسد قبل مولدها، وتحوم حول المكان لتتعرف على ناس زمانها وتفاصيل انشغالاتها، وكطيف لروح تمنت أن تأتى وتتجسد لتشاركهم تلك الحياة مع الأنفاس فى المستقبل المأمول أيامها، راضية دون شك فى امكانياتها للعطاء والإضافة والعشق والخلفة وتربية صغار سوف يأتونا ليرثوا ارضا ووطنا ووعيا كامنا وقابلا لتأكيد ما هية الوفاء والصدق ومواصلة البناء لمن سيأتوا بعده، ويضيفوا كل ما يمكن أن ينضاف ليبقى علامة على أنسنة الأطياف

عندما حملتنى بعد زواجهما بشهرين أو أكثر قليلا كانت تقول له إننى اتحرك فى بطنها فيضحك لها سعيدا بنفسه تماما، فرحانا بها وبمن يسكن بطنها الذى يلزم أن يسارع بالنزول، وكان يبدو لى أنها تتوافق معه فى كل شئ بلا خلافات من أى نوع، وبدا لكل من يتعامل معهما أن الحياة بينهما تبوح بسعادتهما المشتركة وأنهما لا يطيقان التباعد اكثر من ساعات عمله فى دكانه الذى زود الله رزقه من اجلها ومن اجل الكيان المحمول فيبدو مستحيلا أن يختلفا، لأنهما كانا متوافقين ومؤتلفين وحالمين معا، وفى الشهور الأولى للحركة فى بطنها كانا يتخوفان بلا كلمات على الكيان الساكن لفترة وسوف ينزل لينير لهم الحياة، كنت اشعر بالرغبة فى النزول متعجلا لأستمتع بالحياة بينهما، لكن الرياح أتت بما لا تشتهى السفن كما كان كبار السن يقولون، لعل انفصالهما أوحى لى بنهاية عمر ونهاية الأمل فى استمرار حياتى بعدها، لأنها خلافا لما عودتنى عليه لم تعد تقدم لى الوجبات التى احتاجها قبل أن اطلبها أو اصرخ علامة الاحتجاج كعلامة تكشف لها ما اريده، كانت امومتها النادرة بحسابات امثالى فى تلك الفترة الحرجة تحمينى من احتمالات الموت والضياع لكنها كانت هناك، تداوينى وتحمينى وتدفئنى فى أوقات احس فيها بالحماية والعطاء.

وصحيح انها رحلت غصبا عنها وعنه وعنى فى وقت كنت فيه قد تعلمت الأكل وأنواعه، وتعلمت الحروف مثلما تعلمت جدول الضرب، واننى كنت من بين التلاميذ الذين تعجب رسومهم مدرس الرسم فيهدينى اقلاما ملونه افرح بها وأريها لها فتفرح وتضمنى لصدرها، وعندما يأتى تقول له ما جرى فيفرح ويكافئنى بسخاء، لكن النقلة بين جنة يعيش فيها الطفل وجحيم يحاصره بالحرمان من العطاء بلا طلب من ام ترعاه شئ مقيت، كانت الآفة الكبرى اننى لا أملك القدرة على صياغة الكلمات التى يلزم أن انطقها له

على الأقل فلا اتمكن، فكيف كنت املك القدرة للرد على أسئلة العيال امثالى فى الفصل إذا سألوننى عن امى؟ وهل كان من الممكن أن يغير كل شئ حولى لأرتاح بينما اراه حزينا وساكتا، يتنهد ويعيش وحدة بلا بسمة ولا كلمة غير ما هو مألوف عن استمرار الحياة، حياتى وحياته دون أن يعرف ما كانت هى تعانيه وقد تباعد عنها وتباعدت عنه، لم يبق بينهما مشتركا غيرى، اتعلم مالم يتعلمه امثالى فى الفصل وحوش المدرسة ، وآكل وجبات مختلفة عنهم وأتشكك فى امكانيات النجاح فى الفصل التالى لو نجحت، لكننى كنت انجح بمساعدته ربما، أو بعزم تشكل عندى وأنا فى مثل هذه السنوات العسيرة لولا انه بجوارى دائما، صحيح انه كان يقدم لى مطالبى بحنو الأب وبعطفه، لكن طعم الأشياء لم يكن كما كنت انتظر أن تقدمها بيديها، وكنت ارى دموعه أحيانا واشفق عليه اكثر مما اشفق على نفسى، لأنه يعيش وحدته ويأتنس بوجودى أحيانا معه دون شريكة لترعاه سنوات وسنوات تمر بعسر وثقل

ومثلما باحت هى لى فى المنامات، أو حكى لى عنها من الحكايات التى كانت تروى له ولا اسمعها من الغرباء، يحكى لى متباهيا بأنها رفضت عشرات من كانوا يتقدمون لطلب يدها ولا توافق فيواصل اهلها ضغطهم عليها بلا فائدة لو هددتهم بالانتحار لتخلص نفسها من الحياة بينهم، وقد اكد لى من كانوا بالقرب منها بعد ذلك بسنوات لأنها اختارت أن تبقى وحيدة وضحية لملاعيب من خطفوا مالم بكن يحق لهم أن يخطفوه من رجل له أصله وناسه، وكان سعيه لاستعادة ارضه بعنف مطلق أو بقضاء وا ع وتفا سيل التفاصيل الكاشفة لملاعيبهم وقد سعوا للخلاف وخسروا فى نهاية ثلما خسر الضحايا اكثر، لو اعتبرنا أن قمر والمنصور وهما ابى، ا لصراع لم يكن لهم فيه دور غير الاستجابة لوساوس شيطان

سلطوه عليهما، وكنت اسعى للتعرف على تفاصيل ما جرى من احداث مع من التقى بهم أو أتعرف عليهم من ناسنا أو ناسهم إذا تأكدت انهم لا يكذبون، وقلة منهم كانوا لا يكذبون والكثرة منهم كانوا يتحدثون عن سيرهم الذاتية بأكاذيب بلا دلائل،لعلنى بإحساس اليتيم الخالص لم اجد رجلا مثله ولا تعرفت على واحدة مثلها، رغم اننى سعيت وسألت كما قرأت وسافرت وعدت فلم ار مثيلا لهما،لأنهما يتشابهان مع سلالة الفراعين أو الكيانات النادرة فى كتابات فائقة التميز والشهرة بحبها وعشقها وتوافقها فى كل شئ كى تكتب لنفسها الخلود، ويقينا أقول لكم إننى تساءلت عن قدرته على الاحتمال وقدرتها على الفراق وبعدى عنها زمنا كان يطول بحساباتى على الأقل، كيف صبرت هى على نفسها على هذا النحو؟ وكيف عاشت وحدتها دون شريك مثلما عاش وحيدا من غير شريك فكان يحدث طيف قمره، وربما كانت هى تتحدث عن منصورها، وقد يبدو ما أقوله مستحيلا بمنطق عصرنا السائد، وقد يبدو خيالا أو طوفانا فى الفراغ السرمدى الممدود بلا حدود والذى كان يطوف بى واطوف معه قبل أن يتحقق لقاءهما المشروع، وبعد عنائهما ومكابداتهما ووداعهما لدنيانا فى الوقت المشترك والمتقارب فى نفس اليوم لتجعل خيالنا يسرح بعيدا ويحاول استنتاج ما يوحى بدلالة يلزم أن نفكر فيها، لموتهما فى نفس اليوم والشهر والعام أو الساعة، ربما يقال إنها سرحة لخيال من باح لكم بما عاشه واحتملناه أحيانا وصدقناه احيانا، ولأنه لم يكن موجودا أو واعيا فى المرحلة الأولى لعلاقة بدأت بطفلة عمرها سبع سنوات تدخل مساحة مزروعة لتلملم حبات البلح أو عناقيد العنب، وقبل أن تلتقى بفلاح يسمح لها بأخذ ما تشاء بلا مقابل أو ثمن، لكن الطيف كان هناك يتمنى تقاربهما اكثر وأكثر لكى تكون من نصيب أبيه، واحتمالات أن يكون ابنا لهما بخياله الذى كان يطوف حالما بالمستحيل الذى

يتحقق، لكن الصراعات الموروثة جعلت عمر العلاقة بينهما محدودا بثلاث سنوات لا تزيد، ويكون الانفصال بينه وبينها محتوما ومفروضا بلا رغبة أو قصد منهما، ووجودهما معا يتعارض مع حياة كانت مشحونة بصراعات واكاذيب والدم يسيل بلا تردد أو مراوغة، فيجدد المخزون من الغل الكامن فى بعض القلوب العاشقة للقتل وزراعة الكراهية فى القلوب، وكم تمنيت أن يتأكد وجودى بينهما لسنوات اطول بدلا من هذا التعجل غير المعتاد، أو الغموض والتباعد قبل أن يودعا دنياهما فى نفس اليوم ونفس الشهر ونفس العام، بعد خمس سنوات من انفصالهما الجبرى على غير ارادة منهما لأكون وحيدا ويتيما اما وأب فى الثامنة من عمره أو اقل قليلا، فهل كنت استحق ما جرى لى؟ وهل تمكنت من طرح ما كان ساكنا بمشاعر الطيف السارح فى فراغ، قبل أن يتحقق ويصير طفلا يواجه اليتم وحده؟

الغريب انه كان يوم عيد ميلاد عيد الذى كنت فيه هناك فى الكفر الذى ولدا فيه وعاشا، وكانت أجازة نصف العام التى تصادف أنها كانت فى يوم العيد، والغندور الصبى يطالب جدى الذى كان يعانى من شلل الذراع الأيمن أن يفرح بوجودى فى عيد وأنا عيد، وقد اتى بى أبى للكفر لأراها ويسافر لمسكنه بالمدينة التى عاش فيها مغتربا، وآخر مشوار رأيتها فيه كان فى صباح نفس اليوم الثانى من أيام العيد ونفس اليوم الذى سافر فيه، وكانت حزينة وملهوفه تسألنى عنه وتبكى فأبوح لها بأنه سافر، فتهز رأسها وتبتلع ريقها بعسر ثم تربت على ظهرى وتحتوينى، تماما مثلما فعل هو قبل أن يسافر فى نفس اليوم لأنه كان يحتوينى ويربت على ظهرى، ويهمس لى أن اذهب لزيارة امى والغندور يرد عليه بحماس ويعده أن يأخذنى لأراها فى نفس اليوم ساعة العصر.

لكن ثالث ايام العيد كان نهاية عمرها وعمره وبداية ما كابدته فى زمن اليتم الذى طال، فرحيل ابى يؤثر فى حدى، ورحيل امى يؤثر فى كل الناس الذين كانوا حولنا فى المدافن يتأملون نعشها المحمول ويتباكون عليها كما كانوا يتباكون عليه عند دفنه بنفس المدافن التى يفصلها الفراغ ، يحتوينى بعضهم ويمسح دموعه وأنا واع بأن الهم سيكون همى وهم جدى، وانها استراحت باختيارها كما استراح باختياره، وربما كان توافقهما ناتج عن تباعدهما الغصب، دون أن يفكر هو أو تفكر هى فى مصيرى، وأنا الوحيد الذى مازال يتشكك انهما ماتا معا بترتيبات دبرتها ارواحهما معا، فهل انتحرا فى يوم سبق لهما اختياره قبل أن يفترقا؟ وكيف تمضى خمس سنوات على انفصالهما بالتمام والكمال، وأنا الذى تبقى منهما كعلامة حية لكل من يختلفون فى انحاء بلدنا ويتصارعون ويبررون القتل بلا عقل ولا منطق غير الحمق وضيق الأفق، رغم اننا حسب ما قرأته فى كتب التاريخ عراقة غير مسبوقة لكنها تاهت من البعض بعد سنوات من القهر المتوصل الذى سبب كل ما نراه حولنا من حماقات راينا بوادرها فى كفرنا العتيق... تمت.

هذه الرواية

عن العلاقة الشائكة بين الأصيل والوافد بحسابات القرية المصرية، وعن الصراع التحتى الذى يتجلى فى الذاكرة ميراثا ثابتا يتجدد فيتأكد أنه ضرورة لازمة لمواصلة الحياة، وأحفاد الفلاح المصرى الفصيح يملكون القدرة على استعادة الأحداث وروايتها للأبناء والأحفاد فحافظوا عليها وحفظوها لآلاف السنين، وروايات الناس فى كفر عسكر لم تنته وستستمر وتتجدد وينضاف إليها بأحفاد كل حقبة ويضعهم أمام السؤال الحرج عن إمكانية التعايش مع الآخر رغم ما كان فى سابق الأزمان صراعا مع الوافد ليستعمر أو يستثمر ماله ويتجمل، وقد يتحقق التواصل والتلاحم وتبقى انسانية الإنسان غاية.

ولعلنا من خلال الطيف السارح فى الآفاق البعيدة قبل وجوده على الأرض ويتأنسن من خلال رؤيته فى فراغ لم نره أو نتخيله على استحياء، من خلال رؤيته فى الفراغ الممدود نرى العالم بعينيه وذاكرته قبل أن يتواجد بيننا ويصير بشرا سويا ووريثا لتركة نزهو بها ونحوطها بالرعاية لتتواصل الأجيال وتبقى الأرض التى نشأنا فى احضانها جديرة بكل عطاء وهى قادرة على المنح والحنو على الأبناء والمنصور ابن عوف المفتون فى شبابه بطفلة رآها عند رأس غيطه وهو يجمع عناقيد العنب، وهى تمد له يدها بثمن عنقود أو عنقودين فيهز رأسه وينزل ليحاورها ويمنحها ما طلبته ويتمنع عن أخذ الثمن.

لكن الغندورة بنت شلبى تملك الفتنة التى غزت بها قلب الحاج إبراهيم عوف، وبالغواية ترتبط به وتنجب له طفلا جميلا يتسمى على اسم امه "

الغندور " فيصبح المنصور فى بيته غريبا وخصما وقد تحول الغندور لوريث ومالك للأرض والدار وعلى غير كل التوقعات يترك المنصور داره ويسعى لتأكيد هويته وأصالته ، لعله وقد احترف مهنة " الساعاتى " ليحسب الزمن ويعرف اهميته، عندما جاء إلى الكفر كان يملك القدرة على تحقيق المخبوء فى مشاعره نحو " قمر " التى رآها طفله تحولت إلى حلم وأمنية تتحقق بعسر، و" عيد " الذى كان طيفا يصير طفلا ليواصل دوره بعد مرحلة الطواف الحر فى الفراغ الذى أتاح له أن يستقرئ الأحداث ويتوقعها، يرصد سلوكيات البشر ويتفاعل معها فى تجريب جديد فى الحكى بحساباتى، هى جسارة يلزم أن نخوض دهاليزها ومنحنياتها وفراغاتها ونخوضها أو نفتح ابوابها لنستكشف مسارات تتخفى علينا من خلال التجريب، كاتبا وقارئا ودارسا لمسار الفن بكل أشكاله وأدواته نستهدف انتباه القارئ والرائى والسامع لنتواصل فى مشاوير العطاء، فهل توافقوننى؟

رقم الإيداع : ٢٠١٤/١٥١٢٧م

الترقيم الدولى : 978-977-07-1663-2

المؤلف..

أحمد الشيخ

ليسانس آداب قسم تاريخ ١٩٦٧ آداب عين شمس – دبلوم تمهيدي ماجستير ١٩٦٨ حاصل على جائزة الدولة التشجيعية ووسام الدولة للفنون من الطبقة الأولي عن مجموعة " النبش في الدماغ " ١٩٨٥

عضو اتحاد الكتاب / نادي القصة / اتيليه القاهرة / جمعية الأدباء / نقابة السينمائيين / جمعية مؤلفي الدراما .

مقرر لجنة القصة بالمجلس الأعلي للثقافة عام ٢٠١٢ /٢٠١٣

عضو لجنة القصة عام ٢٠١٣/٢٠١٤

من مؤلفاته :

دائرة الانحناء	مجموعة قصصية	١٩٧٠
الناس في كفر عسكر	رواية	١٩٧٩
مدينة الباب		١٩٨٣
كشف المستور		١٩٨٤
الحنان الصيفي		١٩٨٧
حكاية شوق	رواية	١٩٩١
حكايات المدندش	رواية	١٩٩٦
أرضنا وأرض صالح	رواية	٢٠٠٨
هوامش المدينة	رواية	٢٠١٠
عاشق تراب الأرض	رواية	٢٠١٢
جالس القرفصاء يتودد لروحه "	مجموعة "	٢٠١٢
جيوب الكفن		٢٠١٣